فراس حج محمد

مســـــاحة شخصية

من يوميات الحروب على فلسطين

دار الفاروق
للثقافة والنشر

مساحة شخصيّة

من يوميات الحروب على فلسطين

مساحةٌ شخصيّة

من يوميّات الحروب على فلسطين

فراس حج محمد

منشورات

دار الفاروق

للثقافة والنشر

نابلس- قلسطين

2024

الكتاب: مساحة شخصية

المؤلف: فراس حج محمد

موضوع الكتاب: يوميّات

تصميم الغلاف: الفنانة ميسم فراس

ISBAN: 978-9950-381-13-1

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

منشورات

دار الفاروق

للثقافة والنشر

شارع جمال عبد الناصر – نابلس – فلسطين

تلفون: 00970/9/2313969

Email: abu_rafat_be@hotmail.com

المعرض: شارع سفيان – مجمع القوقا التجاري

الطابق الأرضي تلفون: 00970/9/2338219

نابلس – فلسطين

الإهداء

إلى كل مقاوم باسل، "يرى اليومَ موعدنا لا الغدا"، وإلى أبطال معركة طوفان الأقصى (2023/10/7)

سـأظل أكتـب: هـذا الفعـلُ دغـدغني
بـل شـاقني بجميـل الفعـل ثـوّارُ
سـلمت سـواعدكم يـا جـيش نصـرتنا
أنـتم منارتنـا، أنوارُنـا، النـارُ
لا يفهـم الأعـداء إلا أن يطـيح بهـم
سـيف البطولـة والغيـث مـدرارُ
طـارت عقـولُهُمُ يهـذون في وجـلٍ
قـتلى وأسرى وعنـد الحـربِ فُـرّارُ

ف. ع

المقدّمة

ستنتهي الحرب في أية لحظة، لا حرب ستدوم إلى الأبد، مهما طالت الأيام، والشهور، ستأتي اللحظة التي تضع فيها الحرب أوزارها، وأهوالها، وكل مصائبها. بعد الحرب، سنعود إلى أشيائنا المعتادة، لكن إلى حين، ستعود الحرب بالتأكيد، وستعاد هذه المشاهد مرة أخرى، تذكروا لقد كانت هذه الحرب السادسة، وسنعيش مشاهد حرب سابعة وثامنة، وربما المائة، إذا ظلت الأمور عالقة، كما هي الآن.

العالم في غزة، العالم في فلسطين، العالم في القدس، وسيعود من جديد الفاعلون الحاليون، وربما تتغير الوجوه فقط، لكنّ معجمنا اللغوي سيظل هو هو، وخطب الزعماء هيَ هي. سيعود المحللون العسكريون والسياسيون، والبثوث المفتوحة في الفضائيات، كل شيء سيعاد سرده من جديد، كأنه يسرد للمرة الأولى، وسيكون علينا أو على غيرنا إن نحن تعبنا أو سئمنا أن نكتب الكلام الذي كتبناه مرة أخرى، لن تتغير الألفاظ والأفكار ولا النصوص. علينا أن نستعدّ لما هو آت، كما استعددنا لما مضى.

بالتأكيد، سنعود إلى عد الضحايا، وتصنيفهم، إلى قتيل ومفقود وجريح، وتفرّخ الحرب الجديدة القصص المأساوية نفسها، من تدمير المباني كاملة، وقصف كل مظاهر الحياة، والموت السريع الهائل الكبير، وقصص الأطفال والناجين والمشردين.

والسؤال الأكبر إلى متى سنظل هكذا نعيش هذه الدوامة في هذه الدائرة التي لا تنتهي. لقد خفتت الحرب قليلاً لتعيد الجيوش الغازية ترميم العدة والعتاد، ويُعيد القادة ملء خزان الحقد والموت لإفراغه مرة أخرى بصورة أبشع من المرة التي سبقتها.

على العالم الحر أن يكون أكثر شجاعة، ويقرر إنهاء المشكلة من جذورها، إن كان فعلا معنيا بغزة، أما إذا كان منتظرا فصلا جديدا من مسرحية العبث

فليرتقبها عن قريب، ليستمتع بمشاهدة مناظر الدم والقتل والتدمير لعله يُشبع نفسيته المريضة هذه المرة وهو يرى انصباب الدم مع شظايا القنابل المتفجرة كالحمم البركانية حارقة كل شيء في غزة، البشر، والشجر والحجر.

المساحة الأولى: من قلب الجحيم

النكبة ومناسبة الحديث عن مآلاتها
الخميس (15 أيار 2014):

بدأ الكتّابُ بالكتابة حول نكبة الشعب الفلسطيني، كتّاب عرب وغير عرب، فلسطينيون وغير فلسطينيين، وسيسيل حبر كثير، كما سال دمع كثير، وأُهْدِر مال كثير، وسُفح دم كثير، وأُفني عمر طويل، والكتّاب يكتبون، كتّابٌ بارعون ومتمرسون، وكذلك متطفلون مبتدئون، سيكتبون الشعر والنثر، ويمجدون القتيل ويشتمون القاتل، ولكن....

ماذا سأكتب أنا عن النكبة، نكبتنا، نكبة الشعب الفلسطيني التي كانت نتيجة وسببا، كانت نتيجة تفرقنا، وضعفنا وبدائيتنا، وسذاجة شعوبنا، تلك السذاجة التي تعمقت وترسخت أكثر، نحن الشعوب العربية قاطبة، بالأمس القريب، كان هناك منشور عن "السيسي" على الفيس بوك، ينتقده في أمور كثيرة، ما أثارني ليس المنشور، فالرجل له من يحبه، وله من يكرهه، ولكنّ المثير للانتباه ما علقت به بعض القارئات، إذ قالت: "السيسي عميل، خائن، غير وطني، دكتاتور، بحبه وح انتخبه" هذه السذاجة ليست حكرا على زمان دون زمان، إنها موجودة في شعوبنا العربية، ولم يحُلّ التعليم والثقافة ومحو الأمية تلك السذاجة، لأن الفرق واضح بين الوعي واللاوعي، وهذه الحالة من عدم الوعي هي التي أودت بفلسطين وبكل وطننا العربي الكبير، وهي ذاتها التي جعلت النكبة أكبر وأوضح وأشمل.

ماذا سأكتب عن النكبة، وأنا أرى نكبات متتالية في شعبنا الصغير، وشعوبنا العربية قاطبة، أرى النكبة الكبرى في سوريا وليبيا وتونس ومصر واليمن بلاد الربيع العربي القارس، أراها في المخيمات المعدة للاجئين الفلسطينيين والسوريين وتزايد أعداد اللاجئين في العالم الذين يعانون ويلات الحرب ويقاسون مرارة التشرد، أراها في الموقف الرسمي والفصائلي الفلسطيني حيال ما يجري للفلسطينيين في سوريا ولبنان وغزة، أراها في الحال المتردية التي وصل إليها الأسرى في سجون المحتل، إذ لم تعد تؤثر في المحتل أي إجراءات، ولو مات الأسرى جوعا ومرضا، فمن سيحاسب هذا الكيان المحتل والمختل في إنسانيّته؟

أراها في البهرجة الإعلامية، وفي التضليل السياسي الفلسطيني وتهديد إسرائيل في الانضمام إلى تلك المؤسسات الدولية الراعية لحقوق الإنسان سلما وحربا، وكأنها العصا التي تحاول دويلتنا الموهومة أن تضرب بها على رأس الكيان فتخضعه، وهي تعرف أن مثل هذه المؤسسات وتلك الانضمامات ما هي إلا هوشة في معمعة كبرى، لا تؤثر لا سلبا ولا إيجابا في صالح القضية الفلسطينية، حتى ولو ادعى الكيان معارضتها، فهو يريد أن تتعثر مسيرة السلام بأي شيء وبأي مناسبة ليزيد هذا التعثر من إحباطنا، ولنقتنع أننا فعلا قد حققنا نصرا عليه، ونحن في نهاية المطاف نضحك على أنفسنا، إننا أشبه بعباس "أحمد مطر" الذي كان يغافل العدو ليخرج من الدائرة التي رسمها له من يسيطر عليه، واحتلّ بيته، وهو في النهاية، لم يكن يضحك غير على ذاته الهبلة:

اللص خط حوله دائرة

وأنذره:

"إياك أن تجتاز هذي الدائرة"

علا خوار البقرة

خفّ خوار البقرة

خار خوار البقرة

واللص قام بعدما

قضى وطره

ثم مضى

وصوت عباسٍ يدوي خلفه:

فلتسقط المؤامرة

فلتسقط المؤامرة

فلتسقط المؤامرة

- عباس... والخنجر ما حاجته؟

- للمعضلات القاهرةْ

- وغارة اللص؟

- قطعت دابره

جعلت منه مسخرةْ

انظر:

لقد غافلته

واجتزت خط الدائرة!

أراها في حالة الفقر المدقع التي يعيشها أبناء الشعب الفلسطيني نتيجة سياسات اقتصادية كارثية أفقرت الشعب وجعلت أكثر من ثلاثة أرباع الموظفين يعيشون رفاهية مزيفة، بعد أن استولت البنوك على معاشاتهم مقابل سيارة فارهة ومنزل مشيدٍ بحجارة تغرس صاحبها في الطين.

ماذا سأكتب عن النكبة وأنا أراها تفرّخ نكبات صغرى وكبرى في حياة هذا الشعب المقهور، فأصابه العفن والوهن؛ ففي كل شيء حدّث ولا حرج، في الثقافة والتعليم والتدهور الحاصل فيهما، وشواهده رأيناها في كل مخرجات النظام التعليمي كل يوم.

حدث ولا حرج عن الوضع الاجتماعي المتفسخ نتيجة لهاث الكل وراء تحصيل لقمة الخبز، ولا يستطيعون إليها سبيلا إلا بشق الأنفس، المرأة تعمل، والرجل يعمل، والأولاد في الشوارع، لا ألفة تجمعهم، ولا عائلة دافئة تحتضنهم، فقط يريدون مالا، فالمتطلبات أكبر من أن يستمتعوا بالحياة، فخرج أو سيخرج جيل بلا

مشاعر ولا ثقافة ولا علم، وهذه هي النكبة الكبرى، جيل مفرغ من كل القيم إلا القيمة المادية، جيل مفرغ من قيمة المقاومة وكراهية المحتل، لأن القادة والساسة أقنعوه بالدليل الذي لا يقبل الشك أن المحتل هو أمّنا وأبونا ولولاه لن نحصّل القوت، وغدونا نشهد نوعا من التطبيع المخفي مع العدو، وشيئا فشيئا يصبح الأمر عاديا، بعد أن أفرغ الجيل- أو كاد- من روح المقاومة وأصبح لاهثا وراء المتعة العابرة عبر التكنولوجيا الرقمية والصورة المحنطة هنا وهناك.

ماذا سأكتب عن النكبة والنكبة الحقيقية ليست بضياع الوطن، إننا نشهد نكبة ضياع الإنسان المتسلح بحقه وبمبرر وجوده على هذه الأرض، هنا علينا أن نقف فنتأمل قهرنا وضياعنا وتيهنا الذي أكمل ستاً وستين دائرة، مرشحة للتوالد إن لم نفُق ونعدّ للثورة الشاملة، بدءا من الإنسان الفرد، وانتهاء بهذا المنطق الذي يحكم حياتنا، يكفينا ستٌّ وستون طعنة في القلب والخاصرة.

الحرب وأسئلة الموت المدبّبة

كل صباح من صباحات الحرب يعبق برائحة الأكفان وتلوح في ابتهالاته أغشية السواد لا بد من أن يكون خاصا ومختلفا، ولكن علينا أن نقاوم موتنا حتى الموت، ولا نستسلم، ومتى تأتينا الساعة المنتظرة والمواجهة المحتومة، فلنواجهها بابتسامة ساخرة، لأننا كنا غافلين عنها، ألم يقولوا: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا"؟

لا أظنّ أن الحرب قادرة على أن تجعل سؤال الموت أكثر إقناعاً من ذي قبل. الموت لغزٌ في السلم، وهو معضلة في الحرب، وكلما تعقّدت الحرب زاد سؤال الموت تعقيدا أيضاً، مع أنه يغدو أسهل من أجل أن نتعايش معه ونتصالح على حصته اليومية التي يصرّ على تحصيلها ضريبة بقاء في الأرض الملتهبة.

فلنصحُ قليلا لعلنا نستجلي بعض السر، فجعبة الموت المفاجئة كالمتوقعة المنتظرة ما زالت عامرة تنفجر في أية لحظة، وعلى الهواء مباشرة، فما زالت السهام معدة، لعلها تصيب أحدنا اليوم أو غدا، في عز الذهول أو جنون نسيان أننا سنموت، وليس المهم أن نموت، فليس لعقل أن يتصور خلوده في هذه الخادعة المسماة الدنيا، ولكن هل كنا على مستوى يليق بإنسانيتنا المقهورة لنموت ونحن نستحق الكرامة؟ المقاومة تناضل من أجل أن تعطي هذا السؤال حقّه في الإجابة المقنعة.

في الحرب الشعواء، لا أحد يتذكر الآيات التي سيتلوها عليه المعزون والأقارب والأهل والأصدقاء والأحبة، لا وقت للقراءة، لا وقت للتعزية، لا وقت للتدبر ولا للمواعظ المعلبّة في الخطب الباردة، الوقت كله مشغول بشيء واحد؛ سرعة الدفن التي يجب أن تكون بسرعة القتل والموت والانفجارات. لا معزين، فمَنْ سيعزي مَنْ والكل مقتول عاجلاً أم آجلا؟

هذا سؤال آخر للحرب فهي لا توفر فرصة لأن يحزن الأب على أبنائه، ولا الأم على أبنائها. مشهد مصغّر ليوم القيامة "يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت" "وترى الناس سكارى وما هم بسكارى"، لأن الإنسان مشغول بنفسه وسلامتها أولا، وهو

يعرف أنه لن ينجو إلا بمعجزة، لكنه لم يتخلّ عن ضحاياه، سيدفنهم، وينتظر من يدفنه في أية لحظة قادمة.

فما بين موت وموت، وحزن وحزن، وما بين ثانية وأخرى تتسلل أجراس الموت لتخيّم على المكان، فتصمت الأصوات، وتبهت النفوس، وتكاد القلوب تتوقف عن النبض، هكذا يحدث عندما يصبح الموت سيد الأوقات كلها، بدأنا وانتهينا بآلام الموت القاسية، هذه المصيبة الكونية التي تجعل الكل حائرا عاجزا لا يستطيع القول ولا الفعل، إنها سر آلة الحرب الوحشية، وملخص بليغ عن حقيقة ما يفعله الإنسان بأخيه الإنسان، ليتحوّل إلى آلة لا تشبع من سفك الدم والتهام الجثث.

استأذنتنا الأرواح وغادرتنا، فجعلتنا أرضيين وقانعين وخائبين، وهي تحلق في علو أبديتها الخالدة، وقد تحررت من أسرها وخوفها وجبنها، لتنضم إلى مسارح الطيور السابحة في فضاءات غير هذه، ونحن كما نحن نقلّب كفا بكفّ، عاجزون، صامتون، كأننا لم نعرف أنّ الموت هو نهاية الرحلة التي انطلقت بشراهة لتعبئ خزانات من الدم لعلها تكفي ملك التوحش أعواما قادمة، ليثمل منها في سهراته ومجونه.

كيف لنا أن نقاوم الموت؟ هل تخفف الكتابة من الألم؟ وهل تستطيع أن تجفّف منابع الحزن النابت في ضفاف الجمل؟ هل بمقدور الكتب المترهلة التي تعاني من شد الحروف أن تمنحنا شيئا من وهم البقاء على قيد حياة ستنتهي بأية لحظة؟ فبلاغة الموت الصامتة أبلغ من أحاديث الذم لأمر تعرفه البشرية جيدا وتقرأه بطلاقة مع كل حرب شرسة، فعلام الهجاء والحزن؟ فإننا ميتون، فما علينا إلا الاستعداد، فهل بمقدور الحرب أن تعطينا فرصة لهذا الاستعداد ليعاتب- على الأقل- الصديق صديقه على سوء التفاهم الذي قد حصل قبل أن تأتي هذه الماحقة؟ ماحقة زاحقة وذات فَناء متلاحق، جعلت الموت قاعدة لها نسير في ما تأجّل من حياتنا بناء عليها. فيا لله ما أقسى الحرب! وما أشد قوانينها! وما أبشع أن نراها ماثلة في كل خطوة من خطوات حياتنا!

2023/11/13

كلّ المصائبِ من قديمٍ ترتوي من حزنِنا وعزاؤنا التحليلُ

في كل حرب لا يبرز عندنا إلا المحللون السياسيون والعسكريون، مع أنهم في الغالب بل دائماً يهرفون بما لا يعرفون؛ لأمرين، الأول لأن التحليل السياسي أو العسكري يحتاجان إلى معلومات، بل فيض من المعلومات، وهذه في حالتنا الفلسطينية والعربية نادرة وقليلة، وما يحصل عليه المحللون هو ما يحصل عليه المتابع العادي، لذلك تكون تحليلاتهم ضربا من الغيب الذي يبعد المشاهد عن الحقيقة إن أحسنا النوايا بهؤلاء. بعد عشرين عاما أو يزيد سيكتشف المحللون خطأهم الفادح عندما تفرج الحكومات والمؤسسات الأمنية العسكرية ما تسمح به من وثائق سرية، فيعيدون التحليل، وينشغلون بما مضى، وهكذا دواليك، والناس ما زالوا منقوعين في برك الدم، ومصفدين في سجون الظلام.

في تجربتي عضوا في أحد الأحزاب السياسية؛ كان ذلك الحزب يولي التحليل السياسي أهمية كبيرة، كانت لهذا الحزب إستراتيجية شاملة وقوية في تتبع المعلومات من مصادر متعددة، وكان يكلف كوادره من الحزبيين الموثوق فيهم بمتابعة الفضائيات كلها، كل حزبيّ يتابع قناة ويرصد ما يقوله السياسيون، وما يتسرب من أخبار من دوائر صنع القرار، خاصة تلك الأخبار التي تقال مرة واحدة، ويُتكتم عليها، لا ما يحلل المحللون، لأن السياسي لا يحلل إنما يقدّم معلومات، وكان الحزب على قناعة مبكرة أنه لا حيادية في الإعلام، بل كل فضائية هي تابعة لوجهة نظر سياسية دولية ومحلية، وممولة من جهة داعمة لا تقول إلا وجهة نظرها، ولا يحلل محللوها إلا حسب وجهة النظر هذه. فالتحليل السياسي عند الحزب وعند غيره من الأحزاب السياسية العريقة لا بد من أن يعبّر عن وجهة نظر الداعمين، لذلك لا تكون محل ثقة كبيرة إلا بوصفها تخدم التوجه العام لصناعة الرأي العام المناصر لهذه الدولة أو تلك من الدول الاستعمارية الكبرى.

ما زال هذا الحزب يعتمد الأسلوب ذاته، ويتتبع المعلومات، ويحلل بناء على ذلك، فتأتي تحليلاته صائبة بنسبة كبيرة، لأنه يفهم السياسة الدولية وما تقوم عليه من فكرة استعباد الشعوب واستعمارها، والسيطرة على مقدرتها، وجعلها أمما ضعيفة تدور في فلكه، تابعة له، والصراع الحقيقي بين الدول الكبرى هو على المصالح

السياسية والاقتصادية، ويجعلون بلادنا وبلاد تلك الشعوب ساحات لتصفية حساباتهم. ومن هذه البؤرة المركزية في فهم الحزب للسياسة الدولية فإنه لا يرى الأمم المتحدة ومؤسساتها العاملة قاطبة مهما ادعت من إنسانية وحقوق إنسان إلا أنها منظمات تسعى إلى تحقيق أهداف الدول الاستعمارية في جوانب الحياة كافة؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والصحيّة. فكل تصريح لسياسي غربي لا يؤدي إلى هذه الطريق فإنه تصريح كاذب ومراوغ.

هكذا هي الفكرة التي قالها الحزب منذ عقود، وكان يسخر منه الناس، ولا يعدون كلامه إلا شطحات خيال. ولم يكن يؤكد نظراته الثاقبة في التحليل إلا الوقائع الكبرى، فرأيه كان واضحا فيما حدث عام 1967، و1973، و1982، و2006، وكل حروب غزة الظالمة من 2008، وحتى اليوم 2023. لا يخدع الناس ولا يطبطب على أكتافهم ليخدعهم ويقول لهم بصريح العبارة إن الحل يكمن في القضاء على الهيمنة الاستعمارية العالمية ومؤسساتها جميعها، وعدم الثقة بهم مطلقاً، ويؤكد أن الأنظمة العربية جميعها بلا استثناء أنظمة تابعة، ليس لها مصالح خاصة تسعى لها، وليس لها أمن قومي أو وطني حقيقي تحرص عليه، وليست هي بشيء إلا أنها أنظمة أنشئت دكتاتورية لتحمي مصالح الغرب، فأمدّهم بما هو كفيل بهذه الغاية ليستقووا على الشعوب ويقهروها لتظل فقيرة جائعة ذليلة، لذلك يرى أن الحل هو في الخلاص من هذه الأنظمة التي يعدها عميلة للغرب، ولم يهيئها الغرب إلا لتكون أنظمة فاسدة أشد الفساد، مترفة، وغارقة في الملذات والشهوات، وذات مصالح اقتصادية ويعملون لمصالحهم ومصالح أسرهم فقط، وأموالهم وديعة لدى بنوك الغرب.

لقد أوجدوا بين الحاكم والمحكوم هوّة عظيمة، من المستحيل ردمها، ولذا فإن عدم الثقة شعور متبادل بين الطرفين، يجده المواطن في تجليات كثيرة، في الأجهزة الأمنية، وفي السجون والأحكام الظالمة، وفي عدم تنمية البلاد التنمية الحقيقية التي تؤدي إلى الاستغناء عن "السيد المتبوع الغربي"، فالحاكم العربيّ إن مرض- لا شفاه الله ولا عافاه- لا يتداوى إلا في المشافي الغربية والأمريكية، لأنه لا يثق بنظام بلده الصحي الثقة التي تجعله يطمئن وهو على سرير أحد تلك المشافي. ناهيك عن

أن تلك الأزمة من الثقة تزداد تعمّقاً في حالات القلاقل والاحتجاجات والحروب. فعرف الناس بذلك وجهاً واحداً للنظام العربي؛ وهو المنافق الكذّاب.

كانت هذه الرؤيا الشاملة تجاه الأنظمة العربية تؤكدها الحروب، وحرب غزة الأخيرة (2023)، حرب الإبادة الجماعية والنزوح القسري هي حرب فاضحة لكل من هو كاذب ومدعٍ وأفّاق، فليس معقولا أن أمة بهذا العدد الضخم من البشر، وبهذا العتاد الحربي المكدس لا تستطيع أن تفعل شيئا لأهل غزة. إنهم كاذبون أولا، وثانيا "منافقون مردوا على النفاق"، وثالثا إنهم ينفذون ما وُجدوا من أجله، وهو رعاية مصالح الغرب، ومصلحة الغرب السياسية كائنة في هزيمة الشعب الفلسطيني وكسر مقاومته وجعله ذليلا كبقية تلك الأنظمة.

هذا هو التحليل السياسي الذي يتجنبه المحللون السياسيون ولا يريدون قوله، ويسكتون عنه في الفضائيات التابعة، مع أن بعضهم يعرفه، لكنهم إن قالوه سيخسرون موقعهم، ودولاراتهم، وإطلالاتهم الصباحية والمسائية، وهم يعرضون علينا فذلكاتهم غير الحقيقية معتمدين على "الناحية العاطفية"، وهذا هو الأمر الثاني الذي يوقعنا فيه المحللون السياسيون والعسكريون، فيدغدغون مشاعرنا بالعزة والأنفة والقدرة والعزيمة والقوة.

إن هناك فريقا من المحللين السياسيين يعتمدون على الناحية العاطفية، وهم أسوأ من الفريق الأول في الخلاصة والنتيجة التي سنصل إليها، إنهم يرفعون الأدرينالين في الدم عند المشاهد فيطمئن، ولا يرى أن عشرات آلاف من القتلى والجرحى هي مصيبة ما دمنا نحن الذين ما زلنا نشبع الأعداء قتلا وترويعاً. إن هذا الفريق يرفعنا في الوهم حتى إذا هوينا انتثرنا رمادا في فضاء المعارك، إنهم يعملون على استنساخ تجربة أحمد سعيد، والصحاف مع كل حرب.

وللحقيقة، فإن هذا الفريق ليس متماثلا أبداً، فهم ليسوا واحدا، بل إن البعض منهم يرى الأمر بهذه الصورة "الممكنة من التحرير" لكنه- بلا شك- لم يكن يدري أن القوى الكبرى كلها بما فيها الأمم المتحدة، والدول العربية، تداعوا على أهل غزة، فقد أتوا إليهم، بما لا قبل لهم به. فالله جعل للكون قوانين وسننا لا تتخلف

إلا بمعجزة لأنبيائه، فلا يجوز أن تطالب غزة الفقيرة المحاصرة لما يقارب العقدين أن تهزم العالم كله بعدته وعتاده واستكباره وصلفه وتقدم أسلحته وتجييش إعلامه ومرتزقته ومفكريه ومثقفيه شر هزيمة، مع أن صمودها- والله- صمود أسطوري بطولي، لكنّنا لسنا في زمن المعجزات، ولا في زمن الملائكة التي ستقاتل معنا، لكان إذاً يكفينا ملَك واحد ليدمر كل تلك الآليات العسكرية المتوحشة التي تقضم غزة بشرا وحجرا وجغرافيا. إن الأمر ليس بهذه البساطة المخلة بأبسط قواعد التفكير العقلاني، عليهم أن يحترموا- ولو قليلا- عقل المشاهد المشدوه الغارق في ابتهالاته لينجو من شر المصائب المقبلة عليه بلا رحمة.

إن الدرس السياسي الذي تعلمه غزة لأعدائها جميعا القربى والأباعد أن إرادة التحرير هي التي تصنع التغيير، وأنه لا بد من دفع الثمن لأجل أن تكون حراً، أما هذه الحالة البائسة من الخنوع والخوف من الموت وحب الدنيا هي التي ستجعل الأمة كلها في هوان، وتزاد في هوانها وبؤسها، ولن يتركها هذا البؤس إلا أن تكون مثل غزة، ترفض أن تكون ذليلة، وتقاوم وتحارب، ولو قتل منها الملايين. هذه الحقيقة البالغة من حكمتها ما لا يعرفه الساسة الضائعون المرتبطون بما بين أفخاذهم من فضائح لا تحصى، تجعلهم دائما لا يرون الخلاص إلا بقتل الناس والسيطرة عليهم وزجهم بالسجون والانحياز للغرب ودوله ومؤسساته.

لقد نجح الغرب بجعل غزة منبوذة وغريبة، لكنها نموذج فريد من المقاومة والصبر والعزة، بغضّ النظر عن النتائج، فهي قدمت مثالا يجب أن يحتذى لكل مقهور ومغلوب على أمره، ودرسا قاسيا للعرب المتخاذلين، والدول الغربية صاحبة مقولات الحرية وحق تقرير المصير وحقوق الإنسان ومبادئ القانون الدولي الإنساني، لقد أضحت كل مُثلهم التي يتشدقون بها وهما فارغاً لا قيمة لها، فكيف للشعوب أن تثق بعد اليوم بهذه الترهات لفلاسفة بلهاء أغبياء وتافهين؟

لم يرَ الحكام والسياسيون العرب هذه المعادلة المقلوبة والدول الغربية والمجتمع الدولي كله، ومعه المؤسسات الإعلامية والثقافية يطبقون هذه المعايير الدولية من الحقوق والامتيازات إلا من أجل حماية الطرف المعتدي المتوحش، قاتل الأطفال

والنساء ومدمر الحياة بغزة، فقط هذه الحقوق هي للإنسان الغربي والصهيوني الذي يؤكد باحتلاله فلسطين احتلال الروح العربية الإسلامية، فحق الدفاع عن النفس له وحده، وحق حماية المدنيين له وحده، وحق أن يعيش بسلام له وحده، وحق أطفاله له وحده وحق التعليم والحق في الحياة.

هذا هو الظلم الذي تمارسه الأمم المتحدة ودولها الكبرى والدول التابعة لها من الدول العربية جهارا نهارا ودون خجل، فهم لم يكذبوا علينا، فقد أوجدوا كل هذه المؤسسات لاستعمارنا. إننا نحن الذين لا نريد أن نرى هذه الحقيقة، ولا أن نتصرف بناء عليها، فوصلنا إلى ما وصلنا إليه من انتهاك بلادنا واستباحة دم أطفالنا وتنفيذ المجازر البشعة على الهواء مباشرة، والغرب راضٍ يضحك مسرور، لكن لو قتلت امرأة بسلاح ناري بسيط تضج الدنيا وتصبح هناك حقوق إنسان، ف "قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر، وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر". هكذا تصرّف الجميع حيال غزة.

يخطئ المحللون السياسيون عندنا دائمون، وهم لا يرون إلا ما يراد لهم أن يروا، وعليه فإن هؤلاء النفر من "السادة" المستضافين على الشاشات ما هم إلا سن في دولاب الاستكبار العالمي، ولن يكون لهم نفع حقيقي لتبيين الطريق الحقيقي في الخلاص من هذا الظلم العالمي الذي بلغ مداه، واستطال ليصبح إنكاره عاراً على كل من وُصِف بأنه "محلل سياسي" أو "محلل عسكري". إنهم سادرون في غيهم كالسياسيين سواء بسواء، ألا قاتل الله الظالمين ولعنهم.

ليس للاستحمار من حلّ سوى المزيد منه

نشرت صحيفة القدس الفلسطينية يوم الأربعاء الأول من آذار 2023 كاريكاتيرا على صفحتها الأخيرة كما هو معهودها. يظهر فيه تجسيد لشخصيتين عربيتين قديمتين: سيبويه والفراهيدي، ويظهر أنهما جالسان في الصحراء، حيث اللون الأصفر الرملي يسيطر على فضاء اللوحة، وحيث شجرة النخل، عدا لباسهما، ومع هذا التجسيد العربي التراثي، يكتب الرسام: وجدتهم يكتبون لكن "لاكن"، وشكراً "شكرن" و"عفواً عفون". ويبدو أن سيبويه حزين يبكي على هذه الحالة المزرية. ولكن، ألهذا دلالة سياسية؟

يقول الدكتور علي شريعتي في كتابه "النباهة والاستحمار": "عندما يشبّ حريق في بيت ويدعوك أحدهم للصلاة والتضرع إلى الله ينبغي عليك أن تعلم أنها دعوة خائن، لأن الاهتمام بغير إطفاء الحريق والانصراف عنه إلى عمل آخر هو الاستحمار، وإن كان عملا مقدسا"، ولكن مرة أخرى، هل استحمرت "القدس" أم أنها استحمرت من اشتغلوا بسيبويه واللغة ونسوا أن هناك أحداثا أجل وأعظم من تنوين يكتب نونا؟

لا أظن أن رسام الكاريكاتير يريد منا الاشتغال باللغة، ومتابعة أمر التنوين والنون، فهو ليس في حصة إملاء في غرفة صف ابتدائيّ، إنما أراد أن يلفت نظر القراء في صحيفة ذائعة الصيت والانتشار إلى أن من لا يقوم بواجبه في مثل هذه الظروف حالته هذه هي، يشتغل بشيء لا نفع له ولا قيمة.

على أية حال إن الاستحمار كثيرة مظاهره في فلسطين والعالم العربي، وخاصة من يشتغل بقضايا غير القضايا الملحة، والكاريكاتير تحديدا يحيل إلى العرب واشتغالهم بما هو غير ملحّ، كأني بالرسام يحيل على قضية أحمد الصفدي رئيس مجلس النواب الأردني الذي وظف آية ليدعو لأهل العراق بالخير، في اجتماع مؤتمر الاتحاد البرلماني العربي بدورته الرابعة والثلاثين، المنعقدة في بغداد، يأتي رئيس مجلس الشورى السعودي عبد الله آل الشيخ ليصحح تفسير الآية.

في اعتقادي الشخصي لم يخطئ الصفدي وهو يستشهد بالآية القرآنية، كما أن عبد الله الشيخ لم يخطئ في البيان، لكن كما هو في الكاريكاتير الذي يبدو فيه أن سيبويه على حق، وهو يرى ما يرى من تبديل التنوين نوناً. لكن، ليس هذا هو وقت التصحيح والتبيين على الملأ، على الرغم من أن الصفدي كان يستشهد، وجاء بالآية مثلاً، ولا يشترط في المثل إلا مطابقة الحالة العامة، لا التفاصيل الصغيرة. ثمة ما هو أهم من هذا التصحيح غير الضروري فيما ظنه "الشيخ" انحرافا تأويليا لآيات الله، ونحمد الله أنه لم يكفّره على "سوء التحريف"، فقد كفّر بعضهم آخرين على أقل من هذا.

لم تعد المشكلة في ألف لكن، ولا في نون عفوا وشكرا، ولن تستمع النساء إلى نصيحة من كتبت على الفيسبوك: "إياك أن تتزوجي رجلا يكتب لكن لاكن، حتى لا يتكاثروا" إنما المشكلة الكبرى هو الغرق في الاستحمار إلى هذه الدرجة المقيتة.

أحياناً، والله، أخشى على نفسي وأنا أكتب في غير الواقع الراهن، أن أكون مصابا بداء الاستحمار بكل ألوانه، فحوّارة التي احترقت، والبلاد التي ضاعت، والشهداء الذين يرتقون واحدا تلو الآخر أو جماعات، والوضع القلق منذ أتيت على هذه الدنيا، وأنا لا شغل لي إلا الكتابة البعيدة عن هذا الراهن القاتل، فأكتب غزلا ونقدا وأعشق النساء، وأصدر الكتب التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

أليس هذا أيضا استحمارا شاملاً؟ أوليس استحمارا أن أضيّع ما كنت فيه من عمل في السياسة لألتحق بركب الأدب؟ إي والله إنه لأعظم استحمار قمت به، فلا يمكن بحالتي وحالة المشابهين لي أن نقول: "**فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**"؛ لأنني باختصار لم أشتغل بالعلم والفقه، بل اشتغلت بما هو أدنى. إنني كنت عديم المسؤولية بدرجة لا توصف! فهل سيفيدنا الفراهيدي؟ وهل سيشفع لنا سيبويه؟ وهل سيحمينا الغزل وعطر النساء من حساب التاريخ العسير؟ فما الحلّ إذن؟ أم أنه لا حلّ للاستحمار إلا بالمزيد منه عندنا نحن الكتاب وعند هؤلاء المشتغلين بالسياسة، العرب تحديدا؟

يا إلهي كم نحن أغبياء! فلولا هذا الاستحمار بطبيعة الحال لم تمكث فلسطين محتلة حتى هذا الوقت، خمسة وسبعون عاماً ونحن جميعا غارقون في الاستحمار، أفرادا، وكتّاباً، وقيادات فلسطينية، وأحزاباً، وأنظمة عربية فاشلة فشلا ذريعاً، بل إن مهمة هؤلاء جميعاً تكريس الاستحمار ليصبح عاما وطاماً أشبه بالاستحمار القومي العام الذي عم حياتنا كلها بكل ما يعني ذلك من وقاحة وتفاهة.

الدعاء مخّ العبادة ووهم من أوهام البلادة أيضاً

في مقطع جميل ودال للشاعر الصديق مفلح أسعد؛ يقدّر الله حقّ قدره، ولا يتعامل معه بسذاجة الناس الكسالى الباحثين عن راحة الضمير، فيدعوا الله، ليكفي الله المؤمنين القتال. الشاعر متقدّم جدا على كل فقهاء الظلام، سواء القائلين بالدعاء والحاثين عليه، ويغضّون الطرف عن العمل الصحيح للنهوض بهذه الأمة، أو القائلين بمنع الدعاء وتحريمه، لأنه يفرّق الأمة أحزابا وأشياعا، وكأنّ الأمة صلبة ذات صبغة واحدة، موحدة على قلب رجل واحد يقودها، وتأتمر بأمره. فريقان مضللان، يسوّقان الانحراف في فقه الدعاء المعتبر لدى الفقهاء.

يقول الشاعر:

"كرّس بما أوتيتَ مجدك يا ابن أمّ

لا تنتظر ريحاً تزلزل خيلهم

فالله ليس مقاولاً

نعطيه خارطة القضاء على الخصوم

الله لا يُهدي مفاتيح المدائن للذين يصفّقون

لا ينبت الأزهار في الأرض اليباب

لا يسمع الأصوات تُقرع من قلوب كالطبول الخاوية

الله أسمى أنْ نجادله جفاف الحظّ في أقدارنا".

من الواضح والمعروف في البديهة العقلية المحضة أنه لا بد من العمل، وما عملته الفلسفات الحديثة المادية والإلحادية هو ربط الناس بالعمل دون الاعتماد على قوة إلهية، فهي لا تعطي اعتبارا لهذه القوة، منذ أن اعتبر نيتشه أن الإنسان هو الإله، وأعلن موت الآلهة، فكرة أصبحت هي التي تسير عليها الحضارة الغربية

المعاصرة، وما تبع ذلك من انعدام للقيم الروحية والمثل العليا، وصار الهاجس الوحيد لكل بناة تلك الحضارة التقدم المادي والسيطرة على الضعيف، ونهش لحمه دون أن يكون هناك أي مدعاة للمحاسبة أو التفكير في أن قوة إلهية ستحاسب صناعها يوما ما، فاخترعوا للبشرية كل ما يودي بها ويجعلها ألعوبة بيد آلهة السياسة والمال من هؤلاء المجرمين، بناة الحضارة المعاصرة.

هذا هو روح الحضارة الحديثة الذي انكشف وبجلاء كبير في غزة، وفي غير غزة، بل في كل منطقة تشعر فيها الحضارة الغربية أنها مهددة ماديا وقيميّاً تثور وتدمر تلك المنطقة، تدمر الشجر والحجر والبشر، ولا تلتفت إلى ما تدعيه في دساتيرها من مبادئ إنسانية، إنهم هم الشيطان في أسوأ صورة يمكن أن يتجلى فيها عبر العصور.

يواجه هذه الفلسفة فلسفة أخرى روحية غيبية مغرقة في غيبيتها، لا ترى أن العمل واجب، وتستند إلى القوة الإلهية لتعمل لها وعنها كل شيء، وكأن تلك القوة وجدت من أجل أن تنفذ رغبات البشر، هذه الفئة الموصوفة بالمتواكلة الكسولة المطمئنة إلى رحمة هذه القوة، تسقط من اعتبارها كل ما في الكون من قوانين علمية وسنن طبيعية. ارتاحت ضميريا وعقائديا ونفسيا وهي ترمي بهمّها كله على أكتاف تلك القوة الهائلة، فتمجدها غاية التمجيد، لكنها لم تفهم ما تريده منها، فانقطع الوصل والوصال بينهما، وظلت فئة ضعيفة خائرة ضائعة، الشك يتلبسها أكثر من اليقين، لا تعرف كيف يكون المنكر فتتجنبه بما ينبغي أن تتجنبه، ولا تعرف المعروف فتتبعه بما يجب عليها أن تتبعه.

فلسفتان متناقضتان عدوتان، شريرتان، غير منتجتين إنتاجا سليما للقيم أولا وللتقدم ثانيا. يأتي المقطع الشعري السابق موجها لأبناء الفلسفة المتواكلة الكسولة التي تمجد القوة الإلهية تمجيدا خاطئاً. على هؤلاء أن يعلموا أن "الدعاء مخّ العبادة" ضمن شروط محددة، وأنه هو نفسه يكون مدعاة للضلال في مواقف أخرى. في فقه الدعاء، يشترط أن يقوم المرء بالعمل الواجب عليه أولا، لذلك وجدت قاعدة "اعقلها وتوكل"، أي اعمل ما يناسب فعل التوكل التي ترجو الله أن

يساعدك فيه. اعقل ناقتك؛ أي اربطها ثم توكل على الله، بمعنى يجب أن تأخذ بالأسباب، لا أن تتركها هملا هكذا، دون عقال، ثم تحمّل الله المسؤولية عن ضياعها، إن الله لن يتحمّل مسؤولية غبائك وتقصيرك، فلا تجعل الله حارسا لناقتك وأنت ساهٍ لاهٍ عنها؟

يستحضرني مقطع مصوّر لفتى أسود يحمل زوادته على ظهره ويسرد القصة الآتية: "ذات يوم كان رجل يغرق في الماء، ومرّ قارب، وقال له: هل تحتاج للمساعدة، أجاب: كلا، شكرا. الله سينقذني، ثم مرّ قارب آخر، فقال: أتريد المساعدة، وأجاب: كلا، شكرا. الله سينقذني، ثم غرق وذهب إلى الجنة وقال: يا رب لماذا لم تنقذني؟ أجابه الله: أرسلت إليك قاربين ولم تبالِ". فهذا الرجل فهم إنقاذ الله له بشكل خاطئ، فلم ينفعه يقينه، كان ينتظر أن يحمله الله غصبا عنه ليضعه على متن قارب من القاربين. أي غباء هذا؟ هذا هو حال كل من اتّكل على القوة الإلهية دون أن يعمل ما هو مطلوب منه، سيغرق، سيحترق، سيموت. الله ليس مسؤولا عن كل هذا الغباء الذي يتمتع به هذا النوع من المؤمنين.

هذه مريم العذراء عندما ولدت تحت النخلة؛ امرأة ضعيفة أشد ما يكون الضعف في حالة ولادة، يطلب الله منها ما تستطيعه من عمل حتى يحقق لها الله منيتها، فقال: "وهزي إليك بجذع النخلة"، هل باعتقادكم أن امرأة مثل مريم تستطيع هز النخلة من أسفلها؟ إنه يريد منها ما تستطيعه من عمل، وإلا فلا، وكل قصص القرآن الكريم فيها هذا الشرط الأساسي من أجل أن تقف "القوة الإلهية" مع الإنسان، ومنهم الأنبياء جميعا، فكل قصصهم موحية ودالة في هذا الجانب.

بنو إسرائيل رفضوا القتال مع النبي موسى، وقالوا له: "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون". لم يستجيبوا للعمل، فتاهوا في الأرض أربعين سنة، وحرّمت عليهم الأرض المقدسة، لأنهم يريدون الله "جنديا" يقاتل عنهم، ويحقق لهم نصرا. وعلى الطرف المقابل عندما استعد طالوت للحرب، هزم جالوت وقتله بمقلاع وحجر، هذه هي السنة الإلهية.

الشاعر مفلح أسعد يقول هذا، إذاً لا بد من أن تعمل وتعمل، وأن تستفرغ الوسع والطاقة، وبعدها يأتي التوكل على الله والدعاء، والتضرع له. فليس بمعقول أن يسير المرء إلى الهيجاء وهو بلا سلاح مادي، ويقول إن معي ربي سينصرني، لن ينصرك الله وأنت متخلف عن سنته وقوله وهديه وما طلبه منك. هذه مسألة يلخصها الحديث الشريف الآتي "اجعل مع دعائك شيئا من القطران"، عندما وجه النبي ﷺ أحدهم وكان يدعو لناقته الجرباء بالشفاء، فأشار عليه النبي الكريم أنه لا بد من أن تلتمس مع الدعاء الدواء المناسب، ألا وهو "القطران".

فالأرض- كما يقول مفلح أسعد- لن تنبت الأزهار هكذا دون أن يكون هناك فلاح نشيط يعتني بها، الاعتناء اللازم فتكون مؤهلة لإنبات النبات، وتتحول الأرض من أرض يباب إلى أرض مزهرة يانعة، فالله لن يتحول إلى فلاح يحرث الأرض ويعزقها، ويبذرها، والإنسان مضطجع في منزله، يأتيه رزقه رغداً.

هذه هي المعادلة الفكرية الصحيحة لمواجهة الأعداء، وليس غيرها، أما أن نمكث في المساجد والكنائس نتلو القرآن والصلوات وندعو أن يهلك الله الأعداء، فإنه لن يستجيب لنا، لأنه لم نقم بما يجب علينا من عمل، فكيف ندعو الله فقط في بلادنا العربية والإسلامية المترامية الأطراف ذات الجموع البشرية الهادرة والأسلحة المكدسة أن ينصر الله أهل غزة. لن يحدث ذلك استجابة لدعاء هؤلاء الذين اطمأن خاطرهم وأدوا ما عليهم، وناموا مرتاحي البال، إن الله يستجيب الدعاء عندما تهدر الجموع وتتحرك الجيوش لنصرة المظلومين الذين تشويهم القنابل الأمريكية بنارها. أما أن نقول اذهبي يا غزة فقاتلي إننا ههنا ندعو لك، فهذا هو الغباء بعينه، والاستحمار بأعلى تجلياته.

هذا درس مهمّ فقهته المقاومة جيّدا فطبقته، فجعلت مع الدعاء شيئاً من القطران، لعلها وعساها تكون من الناجين والمنتصرين، فهي لم تركن إلى الدعاء المتحلل من العمل، بل قامت بما استطاعته، وقد فاجأت العالم بهذا الذي أعدته ليكون لها ما تريد من تحقيق الغايات أو قرب تحقيقها على أقلّ تقدير.

هؤلاء هم أعداؤنا

من يتوقع منكم أن يجد عربيا أصيلا حاملا اسما مضافا لاسم الجلالة أن يدافع عن الكيان الغاصب وقتلة هذا الكيان المتمرد، مصاصي الدماء في فلسطين ولبنان ومصر؟

إن الصهاينة المحتلين الغاصبين لم يراعوا حقا لإنسانية أو معاهدة دولية أو بروتوكولا سياسيا، حتى أن القوة الأولى في العالم لم تقدم على ما قامت به إسرائيل من قتل وانتهاك للحرمات، فاقتحمت عمّان والجزائر وتونس وقبرص وألمانيا والعالم أجمع بحثا عن فريستها لتنقض عليها بكل سهولة ويسر. وبعد كل ما قامت به من جرائم أتخمت صحف التاريخ تجد من يدافع عنها، ومن يدافع عنها هذه المرة؟ إن من يدافع عنها ليس أمريكيا أو بريطانيا أو يهوديا أمريكيا، إنه كاتب عربي مسلم تسمى باسم عبد الله الهدلق (كويتي)، ليعصي الله والمنطق والرجولة فيما تخطه ريشة أوهامه المشبوهة.

هل يعقل أن يقوم كاتب عربي يستخدم لغة القرآن الكريم العربية لينشر هذيانه المسموم ليدافع عن إسرائيل معتبرا حربها الأخيرة على غزة حربا شرعية (حرب 2012)، فهي تدافع عن شعبها وتحمي المدنيين ضد إرهاب حماس، ومعتبرا أن ما تفعله حماس من أعمال مقاومة ما هي إلا أعمال إرهابية.

عجبا لأمره وأمر من شاركوه هذه الفرية، قد نختلف مع حركة حماس كثيرا أو قليلا في نهجها السياسي وطريقتها في إدارة الأمور، ولكن لن نختلف معها على شرعية المقاومة، فالحرب اليوم ليست على حماس وقيادات حماس فقط، إنها حرب على غزة بكاملها، حرب يدفع الدم العربي المسلم ثمنا لشيطنة نتنياهو وبارك، لأنه لا رادع لأفعالهم، ما دام هناك كتّاب يبررون فعله ويعطونه شرعية مطلقة لقتل الأطفال وتدمير غزة بكاملها.

إنه لزمن عربي رديء أن ترى المرجفين في المدينة من العرب المغاوير حملة الأقلام غير الشريفة يتبارون في مدح القتل الصهيوني، والله إن كتّاب الغرب ممن امتلك ضميرا حيا ولا يحب إلا انتصار إسرائيل، ليخجل ضميره الحي أن يعطي إسرائيل

شرعية لقتل الناس بهذه الطريقة البشعة، لقد وصلنا إلى حالة من التردي والبؤس لنرى الغريب الرابض في أرضنا صاحب شرعية ليقتلنا ويدفننا في أرضنا أشلاء، إن هؤلاء هم الأعداء الحقيقيون "المرجفون في المدينة"، فلتنم العصابة المارقة مرتاحة البال والضمير، وهي تكسب خندقا آخر وتفتح أبواقا أخرى لتدافع عنها، إنها ليست الأنظمة هذه المرة إنهم الكتّاب الذين يشكلون الوجدان الحي لأي أمة.

فلتتابعي أعمالك الشرعية في قتل إرهابيي غزة المساكين أيتها الديمقراطية جدا والحضارية جدا، فقد أزعجوك وأرهبوك بأجسادهم الطرية وبأطفالهم اليتامى الباحثين عمن يحميهم، فقد مات صلاح الدين، واعتقل المعتصم، ونفي محمد الفاتح فأصبحوا في دياجير أسفار التاريخ العربي الموروث الذي كبّرنا عليه أربع تكبيرات ونحن نرى أقزام الكتاب ينهلون من دماء الأطفال ليكونوا في مقدمة المدافعين عن صواريخ الاحتلال الرحيمة بأجساد الأطفال فتحيلها رمادا في لحظات.

هنيئا لهؤلاء القتلة، وبؤسا لكل من خط وكتب مجافيا طبيعة الأشياء وقانون العقل والمنطق، و"ويل للعرب من شرب قد اقترب".

"وحدهم" من يتحمل مسؤولية العنف في فلسطين

هذا العنوان ليس إعادة للخطاب الذي قد يتشدق به بعض السياسيين الواقعين، الواقعين بين "الصير والباب"، ومجبرين على مسك العصا من الوسط، ليرضوا الشعب ولا يغضبوا جنرالات الاحتلال. إنما هو في واقع الحال حقيقة سياسية نراها ونعيشها يوميا، في البيوت، وعلى الطرقات، وفي المواسم كافة؛ الاجتماعية والزراعية والثقافية والدينية، فالاحتلال والتعسف والعنجهية البغيضة هي التي صنعت الكره، وهي الدافع لكل هذه الأعمال، وسيشهدون وسنشهد المزيد منها في قادم الأيام والأشهر والسنوات، ما يجعل "آخرين" يفكرون بالمزيد من عمليات الانتقام، وهم يرون المستوطنين و"جنودهم" يتمادون، والسلطة الفلسطينية لا تفعل شيئاً سوى أن تستنكر وتدين دفاع الناس عن أنفسهم، سلطة ضعيفة ومستكينة وشبه ميتة، ولا تريد لأي أحد أن يتململ ويعبر عن سخطه، كأن سياسييها وتصريحاتهم "غير الوطنية" و"غير المسؤولة" والشاذة والمربكة، خناجر مغروسة في خاصرة الشعب المقهور، والمسلوب، والمسجون، والمقتول، والرازح تحت الاحتلالين وسعار الغلاء وشظف العيش، تطارده الأشباح في المنام واليقظة.

أحد عشر شخصاً قضوا نحبهم في ثلاث عمليات مسلحة، نفذها فلسطينيون غاضبون، لهم تجاربهم الخاصة مع الاحتلال، هذه التجارب السيئة جدا تقول للاحتلال: "إنك لا تجني من الشوك العنب"، على قادة الاحتلال أن يفهموا ذلك جيدا، وأظنّ أنهم لن يفهموا ذلك، فهم بعد كل عملية يزدادون عنجهية وتجبرا، ما يعني إقدام آخرين على القيام بعمليات نوعية، على الأقل تشفي صدورهم وصدور أهاليهم مما تعرضوا له من جنون صلف الاستعمار الصهيوني اللاإنساني، وتماهي السلطة الفلسطينية مع هذا المحتل في قهر الناس وتعذيبهم بطرق معلنة وأخرى مخفيّة.

الاحتلال بشع، وتزداد بشاعته عندما يتحدى شعبا كاملا ويريد أن يضربه في أعماقه الروحية والثقافية والتاريخية، كما فعل الاحتلال من استقدام الوزراء العرب ليجتمعوا عند قبر المؤسس الأول لكيان الاحتلال المدعو (بن غوريون) هذا حادث لئيم جدا ومستفز وكان يلزمه أن يرد عليه سياسيا ويمنعه أو على الأقل يحتج عليه،

ملك الأردن أو ملك رام الله، أو الفرعون المصري. بالفعل تم إلغاؤه بسبب وقوع عملية الخضيرة 2022/3/28.

بشاعة الاحتلال ليست في الدم فقط وإراقته في كل وقت وفي كل مكان، بشاعة الاحتلال الصهيوني تكمن في الكره المنهجي للعربي والفلسطيني. سياسة الاحتلال وتفكيره قائمة على عدم الاحترام لكل ما هو غير صهيوني وغير يهودي، عربا وغير عرب، فكر يقوم على الكراهية الإنسانية ولا يعترف إلا بهم وحدهم، والجميع مسخر لخدمتهم، إنها "نازية جديدة".

من يتأمل التجربتين "الصهيونية اليهودية" والنازية يجد أنهما تتقاربان جدا في النظرة إلى الآخر المختلف، لذلك فهما تجربتان غير إنسانيتين، وكما لعن التاريخ التجربة النازية سيلعن التجربة الصهيو-يهودية، فهي وبال على العالم وشر لا كابح لجماحه، وما هذه العمليات إلا نفثة مصدور ومقهور، والحل الحقيقي يكمن في إزالة هذا الكيان غير الشرعي وغير الإنساني الذي لا يقوم إلا على استعباد العالم والسيطرة عليه.

أحيانا أقول إن المشكلة ليست في الاحتلال من حيث هو، فالعالم مليء بالاحتلالات، لكن المشكلة في هذا الاحتلال أن قادته مجردون من كل مسؤولية إنسانية ولا يشتركون مع غيرهم ولا يتقاطعون مع بني البشر في شيء من قيم عامة، فصنعوا لأنفسهم قيما ومعايير تختلف عن باقي العالم، فأصبحوا هم في جهة والعالم في الجهة المقابلة، فلا يعترفون بالحق والخير والجمال كقيم إنسانية عامة، بل لهم حقهم وخيرهم وجمالهم، تلك القيم التي لا تعني سوى الشر في مآلات الواقع المعيش، فمتى أصبح الإسقاط وتوظيف العاهرات والجنس وممارسته من أجل الحصول على المعلومات والمكاسب السياسية والعسكرية "عملا وطنيا ترعاه السياسة" إلا مع هذا "الشر" الاحتلالي، مارسوا ذلك مع الكل، معنا نحن الفلسطينيين، ومع العرب من الأمراء والسياسيين المساكين، ومع الإيرانيين، ومع قادة آخرين في العالم، فأي شر هذا الذي تقوم عليه الحركة الصهيونية وهي تدمر

العالم سياسيا وأخلاقيا، لتتربع على عرش قيادة الشر. هذه ليست إنشائية ولا مبالغة، إنها حقيقة الإجرام الصهيوني الذي لوث اليهودية معه، ليقوم على أكتافها.

على العالم جميعا أن يحذر من هذا الشر ويقاومه وبكل ما يستطيع، فالقضاء على الشر ضرورة إنسانية وبشرية وقيمية غاية في حد ذاتها، وهذه ليست مهمة الفلسطينيين وحدهم، بل مهمة العالم أجمع. فلنبادر إلى ذلك لإنهاء هذا الشر وإزالته، ألا يكفي العالم ما يعيشه من بلاء نتيجة رعايته هذا الفكر المجبول بالشر على مدى قرن وأكثر. فليعد للعالم رشده، وللسياسة الدولية حكمتها، وللناس احترامهم لقيمهم.

إنسانية الثورة وأخلاقية المقاومين

الهدنة وانتصار أخلاقية الثوار:

في سبعة أيام الهدنة (24/11- 30/11/2023)، كنت متفائلاً جداً، ليس من أجل وقف الحرب مؤقتاً، بل لأنني رأيت ثماراً سياسية لحرب همجية، رأيتها لصالحنا، نحن الشعب، وليس فقط للمقاومة. المقاومة في هذه الأيام كانت تناضل بمنهجية أخرى، تناضل على جبهة لا تقلّ خطراً عن جبهة السلاح والاشتباك، جبهة يظهر فيها المناضل الفلسطيني رجلا نبيلا بحق، يتمتع بكل أخلاق الثائر الباحث عن حقه ضمن منظومة كاملة من الأخلاق المتكاملة، فهو شرس قويّ في المعركة عند الاشتباك لا يرحم مقاتليه، يضربه بكل ما أوتي من قوة ساعد، ويخطط لمكيدته بكل ما منحه الله من بصيرة ودهاء، هذه الصورة مرعبة بلا شك للطرف الآخر الذي سيسحب هذه الصورة وسيطبقها بالكامل على "الأسرى" والمحتجزين والرهائن. لذلك بكى أهالي المخطوفين لأن أبناءهم بين يدي المقاومة، قلقوا بجد على مصير أبنائهم وفتياتهم، لا سيّما وأن "الماكينة" الإعلامية الغربية والصهيونية الصاخبة المصاحبة للحرب وسمت المقاتلين بأنهم داعش، هذا يفترض في عقول هؤلاء الناس من الضحايا وأهالي الضحايا بأن أبناءهم ستقطع رؤوسهم، وربما سيحرقون أحياء، وسيتم اغتصاب النساء، وتزوجيهنّ للمقاتلين، وسيختار رئيسهم ما يريد من هؤلاء "السبايا" ليدخل بهنّ دون مهر ودون عقد ودون موافقة منهنّ. هذه هي صورة داعش في الأذهان، وهذه صورتها الإعلامية الموثّقة مع كثير من النساء الأزيديات. إنها صورة مرعبة حقاً.

توقّع المحتلون أن يحدث هذا للمخطوفين والمخطوفات، لكنّ المفاجأة السياسية الأخلاقية فاجأتهم. أظن أنهم- أيْ عصابة الشر والمتحدثون باسمها من إعلاميين مؤدلجين وكتاب وصحفيين- لم يكونوا يريدون الصورة المغايرة لما تم تسويقه من صورة للمقاومة، كانوا يريدون أن يروا داعش في غزة، لتظل هذه هي صورة المقاومين في الإعلام وفي الأذهان، وعند أهالي الضحايا. كانت المفاجأة الصاعقة المذهلة، أو بالتعبير القرآني "أسقط في أيديهم"، فلجأوا إلى الفبركة والتضليل وإلى أنّ ما تمت رؤيته في الإعلام من فيديوهات بثها "الإعلام العسكري" للمقاومة

وراءها ضغط على الرهائن ليظهروا بصورة المبتسمين غير الخائفين الذين يودعون المقاومة بعبارات المودة والحب والشكر والامتنان، وما زاد من مأساوية الصورة، ما ظهر فيه الأسرى والأسيرات الخارجين من سجون الاحتلال من تنكيل وقتل، فاق كل ما قد يتصوره عقل، إنها "وحشية عظيمة"، تركت يدي الطفل محمد نزال مكسورتين ملفوفتين، يا للقدر ما أشد حكمته العادلة! "وبضدّها تتميزُ الأشياء"، صورتان نقيضتان إحداهما تظهر الأخرى وعمقها فيما تدل عليه.

المقاومة في هذا الفعل الذي رسمته بسبعة مشاهد مرئية أيام الهدنة، كانت جزءا أصيلا من الحرب، لأنها تواجه بطريقتها وعلى طريقة غيرها سموم الحرب في شيطنة المقاومين. المذهل في هذه الصورة كيف جمع المقاوم تينك الصورتين معاً في إطار واحد، صورة المناضل الشرس الذي لا يرحم، وصورة المناضل الذي يحترم إنسانية الأسرى والمخطوفين ليراعي شعورهم ويحترمهم ولا ينتقص منها. ليس المخطوفون وحسب، بل إن ذلك الكلب المحظوظ إعلاميا قد حظي بتجربة "رائعة" في غزة، ولعله أصبح الكلب الأشهر بعد كلب أصحاب الكهف.

لقد بدت وجوه أولئك المخطوفين والمخطوفات تنضح بالبشر، والارتياح، وهي تحيي عناصر المقاومة، حتى وهم داخل سيارات الصليب الأحمر، ما ينفي شبهة الإكراه التي ادعاها البعض. بل أكثر من ذلك، عندما تركت الأسيرة (دانيال ألوني) رسالة بخط يدها وبلغتها العبرية تشكر المقاومة على "إنسانيتها العظيمة". هذه الرسالة وثيقة تاريخية ذات بعد مقاوم في التصدي لكل الدعوات المغرضة في تشويه صورة المقاومة، بل إن هذه الرسالة لتؤكد أن هذه هي المقاومة الرائعة في أخلاقها، "وشمائلٌ شَهِدَ العدوُّ بفَضْلِها، والفضلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ". فلم ترها دانيال إنسانية عادية، بل عظيمة، فما الداعي- يا ترى- لتقول إنها إنسانية عظيمة؟ لعلّ كل من يعرف الإسلام ومنظومة قيمه المتصلة معاً، بعضها ببعض، سيفقه معنى هذه الإنسانية العظيمة، كما أن كل من يعرف الاحتلال ويريد أن يرى أفعاله سيرى أن وحشيته عظيمة أيضا في تعامله مع النساء الأسيرات والأطفال الأسرى.

إن هذا الفعل كان لافتاً، وساعد كثيرا في تغيير الصورة، ليس عند من يناهض المقاومة، فهؤلاء لم يتغيروا ولن يتغيروا، فهم لا يقاتلون غزة لأنها داعش، بل هم يصمون مقاومها بداعش لتبرير قتلها والقضاء عليها، لذلك لم يكونوا معنيين بأن يروا، بل إنهم بعد أن رأوا ظلوا "في طغيانهم يعمهون"، وما كانوا يرددونه ظلوا يرددونه، فما زالت تهمة "قطع رؤوس الأطفال" تتردد، و"اغتصاب النساء" تعاد في الإعلام الغربي وفي تصريحات القادة الغربيين والمجرمين من عصابة الشر، وسكتوا عن تعاملات عصابة الشر مع أسرانا. إنما كانت هذه الصورة عاملا حاسما لدى الناس والجماهير بشكل عام في كل أنحاء العالم، لأن الناس تحركها البساطة والفطرة النقية، أما هؤلاء الساسة ومن يدور في فلكهم، فيتحركون بناء على مصالح واعتبارات مختلفة، فلن يغيروا ولن يبدلوا.

عزمي بشارة وأخلاقية السياسة والقوانين الدولية:

بعد انقضاء الهدنة، استمعت إلى الدكتور عزمي بشارة يتحدث من قطر عن "الحرب على غزة... السياسة والأخلاق والقانون الدولي" في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، محاضرة منشورة على موقع المركز الإلكتروني، مكونة من (21) صفحة، واستغرقت من بشارة ما يزيد عن ساعة لإلقائها في جمهور منتخب من باحثين ودارسين وطلاب جامعة ومفكرين ومؤثرين، ولمحت كثيرين ممن يعملون في منابر الجزيرة الإعلامية، فأتت الكاميرا على الشاعر تميم البرغوثي، وعلى مقدم برنامج "جو شو"، ولو دققت أكثر لعرفت آخرين، وهذا ليس مهماً في هذا السياق، إنما قد أعود إليه لاسترجاعه في مناسبة أخرى غير هذه، لدراسة سياقات الحرب الجانبية والعاملين في تلك السياقات.

تحدث بشارة في قضايا كثيرة، لكنني معنيّ بفكرة؛ تبدو أنها مركزية في عقل الدكتور عزمي، وقد استمعت إليها منه كذلك أيام الحرب في لقاءين على شاشة تلفزيون العربي، وهي أن منظومة القيم العالمية التي تقرها الأمم المتحدة من العدالة والمساواة والحرية هي مُثُل إنسانية عامة يجب ألا تدفعنا- نحن الجمهور ونحن نشاهد انتهاكاتها الصارخة في غزة- إلى فقدان الثقة بها، فهذه القيم هي التي تدفع

الآخرين لأن يتضامنوا مع غزة في هذه الحرب، لذا فهو يخشى أن ينزلق الناس/ الجمهور إلى هذه الفكرة (عدم الثقة بتلك القيم)، ومع هذه الفكرة يؤكد بشارة أن ما أتت به الأمم المتحدة من قوانين وقواعد وشرعيات هو المرجع الذي يجب أن نقيس عليه كل تصرف في الحرب والسياسة والعلاقات الدولية.

هذه الفكرة في عقل الدكتور بشارة، تبدو جميلة، لكن قبل أن أبين مشكلتها الفلسفية والفكرية بالنسبة لي أظن أن ثوار غزة المقاومين عندما تصرفوا التصرف المبهر أخلاقياً لم يكونوا يبنون تصرفهم ذلك على القانون الدولي، ولا أخلاقياته المقررة في الاتفاقيات والتشريعات الأممية، مع أنها في ظاهرها إنسانية حلوة، براقة، جذابة، وجاذبة، لكنها كاذبة بالتأكيد، وسأبين لماذا.

منذ اللحظة الأولى لموضوع الخطف، والخاطفون يؤكدون مرجعية النبل الأخلاقي لديهم في التعامل مع "الأسرى" والرهائن، ويعزون ذلك إلى القرآن الكريم، بعض المخطوفين قالوا إنهم- أي الخاطفين- لن يمسوهم بسوء لأن قرآننا لا يسمح بذلك، فذكروا الجماهير قاطبة بموقف القرآن من الأسرى المتمثل في قوله تعالى في سورة "الإنسان" "ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً". هاتان الآيتان هما الضابط الأخلاقي للتعامل مع هؤلاء الخارجين من الأنفاق "مستبشرين" باسمين بوجوه نضرة، وبصحة جيدة بعد خمسين يوما من الحرب والحصار المميت على كل شيء في غزة، لقد جاءت هاتان الآيتان في سورة اسمها "الإنسان"، بمعنى أن القرآن الكريم حررها من الأيديولوجيا الدينية، وجعلها عامة لكل الناس، لأن الناس لن يكونوا كلهم مؤمنين بالقرآن والإسلام، وهذا من عظيم صياغة القرآن الكريم وآياته، بمعنى أننا ملزمون بتطبيق ما جاء في هاتين الآيتين على كل أسير.

أعود إلى بشارة وفكرته المركزية، لأناقش ما بدا لي أنها "غير عادلة" تماماً. القاعدة التي يبني عليها د. عزمي رأيه هو أن هذه القيم إنسانية عامة، وهي مشترك بين البشر جميعاً، وهذا ما لا خلاف عليه مع أحد، لكن المشكلة تكمن في أن د. عزمي لا يحرر

هذه القيم من إطار الأمم المتحدة، بل يريدها أن تظل تدور في فلكه. ولكن ما العيب في أن تدور هذه القيم في فلك الأمم المتحدة؟

إن ارتباط هذه القيم بالأمم المتحدة، أولا يربطها بقواعد وأسس فكرية وفلسفية مختلفة عن الأسس الفكرية والفلسفية التي سار عليها الثوار الفلسطينيون المقاومون، ما يجعل فعلهم ينتمي إلى دائرة أخلاقية مختلفة، لا تريدها الأمم المتحدة، ولا يرضى عنها د. عزمي بشارة وفريق كبير من الباحثين الليبيراليين، وإن التقت هذه القيم بالمفاهيم الظاهرية بالاسم فقط (العدالة، المساواة، الحرية)، فثمة عدالة ذات مفهوم إسلامي يراه المقاومون بغزة يختلف عما تراه الأمم المتحدة، وكذلك المساواة والحرية، وشرح ذلك يطول، ولكن أقول باختصار كما بدا في نقاشات خارج سياق الحرب أن كثيرا من اتفاقيات الأمم المتحدة المستندة على هذه القيم الثلاث ليس لها قبول في كثير من بنودها لدى المجتمعات الإسلامية، كاتفاقيات حقوق المرأة، والطفل، والجندر وغيرها.

ثانياً؛ يناضل د. عزمي من أجل إثبات بطلان ما قاله الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس في بيانه الداعم للاحتلال، ويحاسبه بناء على مجموعة من الانطلاقات الفلسفية والفكرية، ويرى بشارة أن هابرماس قد خالف "الأخلاقية" التي يجب أن يلتزم بها الفيلسوف عموماً المنطلقة من قيم الأمم المتحدة، وكذلك فعل مع شيلا/ سيلا بن حبيب الأمريكية من أصل تركي، "كاتبة مقالات وفيلسوفه وأستاذه جامعيه وعالمة سياسة وكاتبة سِيَر"- هذا هو تعريفها في موقع الويكيبيديا. طبعا على اختلاف بين سيلا ويورغن هابرماس في الحدة والانحياز وتفاصيل المواقف، إنما يلتقي كلاهما عند نقطة معينة هي التي ينتقدها عزمي بشارة؛ مساءلة "أخلاقية النظر إلى الحرب على غزة".

ثالثاً؛ وهذه النقطة هي الأهم بالنسبة لي، وتتعلق بدور الأمم المتحدة، ومن يرعاها، وكيف تدير شؤون العالم، فكل ما تقوم به هذه المنظمة الدولية الهائلة لا يتمتع بأي نوع من العدالة أو المساواة أو الحرية، لأنها لا تقوم بتطبيق سياساتها على الجميع بالمعايير نفسها، لو سلّمتُ بالحياد الفكري الفلسفي لهذه القيم، إنما

هي مجموعة من المقررات الذهنية والصياغات اللغوية التي لا تحتاجها الدول الكبرى إلا في حالات نزاعها هي مع بعضها البعض، لذلك تراها تدافع عن المدنيين وقت الحرب، حربهم هم، وليس الحرب التي هم يشنونها علينا، حدث ذلك في العراق، وفي البوسنة والهرسك، وفي سوريا، وفي فلسطين منذ النكبة وحتى اليوم، بمعنى أنه في السياق الفلسطيني، فإن المحتل يخترق العدالة والحرية والمساواة منذ خمس وسبعين سنة، والأمم المتحدة تصفق له، وتقدم له الرعاية والولاية والاصطفاء وتحميه من المساءلة. ضمن هذه التصرفات الأممية الرعناء لا شك في أن الجماهير ستفقد ثقتها بعدالتهم ومساواتهم وحريتهم هم، إن كانت منطلقة من قواعدهم، أما إن كانت ذات أصل فكري عام غير مُتحكَّم به من صاحب المصلحة والقوة فإن الناس فعلا لا بد من أن تكون لديهم قواعد وقيم تلتقي عليها في عيشها المشترك وإحساسها وتعاطفها مع القضايا الإنسانية.

رابعاً؛ كان ينبغي على الدكتور عزمي بشارة، بتصوري، أن يؤسس لأفكار جديدة بقواعد فكرية وفلسفية جديدة، وهو قادر على ذلك، والوقت سامح بذلك، والفرصة مواتية، وأن يخلّص الفكر الإنساني من التبعية العمياء للأمم المتحدة التي ترعى شؤون الدول الاستعمارية في الدرجة الأولى. بمعنى أن يقود حملة فكرية دولية من أجل تبني منظومة فكرية جديدة تأخذ بعين الاعتبار أن الشعوب الضعيفة الواقعة تحت الاحتلال لن تتحرر عن طريق الأمم المتحدة، إنما ما يحررها هو المقاومة الباسلة المدعومة عالميا من الجماهير المؤمنة بقيم العدالة والحرية والمساواة بين البشر، بوصفها قيما عالمية غير مرتبطة بالأمم المتحدة، وغير خاضعة لمصالح تلك الدول، وغير مرتهنة بالفلاسفة الذين أنفق الدكتور عزمي وقتا طويلا في محاضرته واقفاً، وهو يفند آراءهم، بل وهو يعرض ما لا يجب أن يعرض، فالنهار ليس بحاجة إلى دليل لأقول إنه موجود؛ "فلَيسَ يَصِحُّ في الأَفهامِ شَيءٌ، إِذا اِحتاجَ النَهارُ إِلى دَليلِ" كما يقول المتنبي.

إن غزة اليوم هي النهار الواضح، على الرغم من أن الأمم المتحدة والدول الكبرى لا يعرفون للقيم معنى إلا بالقدر الذي يخدمون بها مصالحهم، وبالتالي فهي منظمة لا تحركها القيم، ولا الأخلاقيات الثابتة، إنما كل ما تبغيه تحقيق مصالحها، وعليه

فالثوار الفلسطينيون المقاومون في غزة وفي غير غزة، يتمتعون بأخلاقيات أيديولوجية ثابتة غير مرتهنة بزعيم أو قائد أو حتى منظمة، بل كلهم يسيرون على نهج واحد، هو ما تمليه عليهم عقيدتهم، وبذلك فإن قيمهم بمنطلقاتها أكثر ثابتا وأكثر تحققا وثقة من تلك القادمة من أروقة الأمم المتحدة، هذه الأخلاقيات بصورتيها في الحرب والسلم وفي الهدنة أيضا، لا تتغير مفاهيمها وتظل ثابتة بصرف النظر عمن يتعامل بها. ومن هنا نجح المقاومون في تسطير هذه القيم في الهدنة وفي الحرب وعلى أرض المعارك أيضاً، ففي كلتا الحالتين تبدو إنسانية الثائرين المستندة إلى القيم التي لا تزول ولا ينبغي لها أن تزول، فمقاومة المحتلين بشراسة عند الاشتباك بشجاعة وبسالة قيمة إنسانية عليا لا تقل أهمية عن تلك التي يتسامح فيها الثوار مع "الأسرى" والمخطوفين والرهائن.

اشتباه المحن الإنسانية بعضها ببعض:

في اليوم الثاني للحرب بعد الهدنة، استمعت إلى لقاء طويل مع الباحثة أديبة عبد الصمد روميرو، وهي إسبانية من الموريسكيين، مسلمة، وعائلتها ذات جذور إسلامية، تحولت العائلة إلى المسيحية أيام محاكم التفتيش التي حدثت بعد سقوط الأندلس عام 1492 م، وتتحدث بهذا الجانب عن الإبادة الجماعية لمسلمي الأندلس بعد عام 1609 م، وكيف اضطر هؤلاء أن يعيشوا بِدِينَيْن، فهم في الظاهر مسيحيون، وفي السر مسلمون، يُعلّمون الإسلام لأطفالهم. تفاصيل مهمة على مدى أكثر من ساعتين، تلخص ذلك التاريخ المخفي من حياة مسلمي الأندلس.

ما لفت انتباهي في حقيقة الأمر شيئان، الأول مقاربة الموضوع الفلسطيني بالموضوع الأندلسي، وقد انتبه إليه- سابقاً- الشاعر محمود درويش في ديوان "أحد عشر كوكباً"، بدأه بمجموعة نصوص تحت عنوان "أحد عشر كوكبا على آخر المشهد الأندلسي".

يربط درويش بين المسألتين، الأندلس وفلسطين، ويأتي على تجربة أبي عبد الله الصغير، وكان هناك حديث عن السلام والمفاوضات بعد مؤتمر مدريد (1991)،

ولعلها ليست صدفة أيضا أن يكون مؤتمر السلام في إسبانيا/ الأندلس. يقول درويش في المقطع الرابع "أنا واحد من ملوك النهاية":

مذ قبلتُ "معاهدة التيه" لم يبقَ لي حاضرٌ

كي أمرّ غداً قرب أمسي. سترفعُ قشتالةٌ

تاجَها فوق مئذنة الله. أسمعُ خشخشة للمفاتيح في

باب تاريخنا الذهبيّ، وداعا لتاريخنا، هل أنا

من سيُغلقُ بابَ السماء الأخير؟ أنا زفرة العربيّ الأخيرةْ".

وبتقنية الإسقاط التاريخي يخاطب الشاعرُ الزعيمَ ياسر عرفات، في المقطع السادس "للحقيقة وجهان والثلج أسود"، يؤكد درويش أن هذا الرحيل أو السلام (كما في الطبعة الأولى) سيتركنا حفنة من غبار، في المنافي والضياع:

إنّ هذا الرحيل (السلام) سيتركنا حُفنةً من غبار...

من سيدفن أيامنا بعدنا: أنت... أم هم؟ ومن

سوف يرفع راياتهم فوق أسوارنا: أنت... أم

فارسٌ يائسٌ؟ من يعلّق أجراسهم فوق رحلتنا

أنت... أم حارسٌ بائسٌ؟ كلّ شيءٍ معدّ لنا

فلماذا تطيلُ النهاية، يا ملك الاحتضار؟

وتأتي الباحثة أديبة عبد الصمد روميرو على تجربة الموريسكيين الذين تهجروا واقتلعوا من ديارهم، وفروا إلى شمال أفريقيا (المغرب، تونس، الجزائر)، وتتحدث

عن مدينة شفشاون، وهي مدينة بناها الموريسكيون وتشبه كثيرا المدن الأندلسية كما تتفق الباحثة مع المحاور في هذا التوصيف.

ما يلفت الانتباه بهذه الجزئية أيضا ما قالته الباحثة؛ إن أهل شفشاون من الأندلسيين ما زالوا يحتفظون بمفاتيح بيوتهم في غرناطة "وأخذوا مفاتيح البيوت معهم وهم يعتقدون أنهم سيرجعون إليها قريباً"، فربَط المحاور ذلك بالموضوع الفلسطيني والنكبة الفلسطينية، "فالصورة طبق الأصل مع ما حصل ويحصل حاليا مع الفلسطينيين"، لتسترسل الباحثة أديبة في الحديث عن علاقتها بالفلسطينيين وأصدقائها من الفلسطينيين ممن يقيمون في إسبانيا.

ليس فقط الموريسكيون من يشبهوننا، بل إن القضية الكردية تشبه القضية الفلسطينية، في حرمان هذا الشعب من حق تقرير المصير في دولة واحدة موحدة في جميع المناطق التي يسكنها الأكراد، وقد تقسمت بين أربع دول. وقد انتبه كثير من أصدقائي من الأدباء الأكراد إلى هذا التشابه في التجربتين، وما يجمعهما من تفاصيل المأساة السياسية والإنسانية والإبادة الجماعية.

ولعلّ هذا التشابه قد قاد درويش أيضا ليكتب للشاعر العراقي الكردي سليم بركات قصيدته "ليس للكرديّ إلا الريح"، والريح غالبا عند درويش في أشعاره تدل على المنفى والضياع والتشرّد والشتات، يقول درويش: "فإنَّ الكُرْدَ يقتربون من نار الحقيقة، ثم يحترقون مثل فراشة الشُّعَراء". إذاً، لسنا وحيدين في المأساة، معنا غيرنا من المستضعفين الذين لم تنصفهم الأمم المتحدة، فقد احترقنا نحن والموريسكيون، كالكرد مثل فراشة الشعراء، وبقيت تلك الهيئات الدولية تنافق، وتسيّرها مصالح الدول الكبرى، لترى أن كل الشعوب المستضعفة هي الشعوب التي تقدم الضحايا والتنازلات، فكان علينا، كما كان على الموريسكيين، كما كان على الأكراد أن نخضع لمشيئة الدول الكبرى، وليس لمنظومة العدالة والمساواة والحرية التي تدعيها الأمم المتحدة، ولمثل هذا يجب أن ينتبه الدكتور عزمي بشارة، فهذه النماذج الثلاثة وغيرها بطبيعة الحال، تكشف أن تلك القيم الأممية ليست إنسانية بالمطلق، كما هي إنسانية المقاوم الثائر الفلسطيني الذي رضي أن

ينحاز فقط إلى منظومة من القيم المطلقة غير الخاضعة للمشيئة البشرية التي تغيرها المصالح وموازين القوى، ولذا فإن العدالة والمساواة والحرية عند الضحايا وفي تفكيرهم لها معانٍ أخرى لا تدور في عقول الساسة الكبار المتحكمين في مصائر العالم، ويرسمون خرائطه على أهوائهم، وما يشتهون.

وأخيراً، أرجو من الدكتور عزمي بشارة الذي أحب محاضراته ولقاءاته، وأستمع إليه بشغف، أن يعذرني على استخدام اللغة غير المحببة له، بعبارات "يجب" "ولا بد"، كما أشار في أحد لقاءاته التلفزيونية، فكأنه أحيانا لا مفرّ للمرء إلا أن يقع في مصيدة اللغة ذاتها والنمط اللغوي الفكري ذاته، فليسامحني، فثمة ما هو أهم من اللغة ولطافة استخدام أساليبها، فكأنه لا بد مما منه بدّ.

من درنة ومراكش إلى غزة والمصيبة واحدة

يصحو التاريخ فجأة في عقولنا وضمائرنا، فهل نقول: جزى الله الشدائد كل خير، فقد فتحت عيوننا وقلوبنا أكثر على ليبيا؟ بل فتحت عيوننا على درنة، تلك المدينة الغافية الوادعة التي أتاها الموج من حيث لم تحتسب.

في فلسطين لم تكن ليبيا بعيدة عنا في كل مراحلنا، دائما يحضر قائدها عمر المختار، وقصيدة أحمد شوقي التي تعلمناها وعلمناها في مدارسنا: "ركزوا رفاتك في الرمال لواءً، يستصرخ الوادي صباحَ مساءَ". أكاد أجزم أن كل فلسطيني يعرف عمر المختار كما يعرف أبا عمار أو أحمد ياسين، لأنه حاضر في السياق ذاته. فهل نقول مرة أخرى: جزى الله الشدائد كل خير فقد جعلتنا أشد قربا مما كنا نظن؟

مأساة درنة المركبة، جعلتني شخصيا أبحث في تاريخ هذه المدينة، أقرأ عن علمائها، وعن شعرائها، وعن طبيعتها وعن تاريخها، وأقرأ في كتاب "درنة الزاهرة" الذي ألفه العلامة الشيخ مصطفى الطرابلسي، فهل أقول أيضا: جزى الله الشدائد كل خير، فقد فتحت لي الأفق الثقافي لأتعرف على مدينة لم تكن في بؤرة النقاش العام، كأنها مدينة مَزْوِيّة، ومنزوية، هادئة، مكتفية بنفسها. كذلك الحال مع كل مأساة تصيب مدينة ما، تدفعنا إلى البحث عن تاريخها، فكأنّ التاريخ يتحوّل إلى معلم حاذق، يخلق لدينا الرغبة في البحث والتعلم.

قرأت قصائد رثاء وفجيعة عن درنة، قرأت قصيدة الشاعر مصطفى طرابلسي، حفيد الشيخ العلامة صاحب كتاب "درنة الزاهرة" الذي ذهب ضحية الإعصار، كتب يرثي درنة قبل هذا الذي حل بها، حائزا على صفة "الرائي" أو المتنبي الليبي الدرناوي، فها هي المدينة كما قال:

"عظم الله يا خوي أجرك فيها... درنة انتهت وتريد من يرثيها

درنة كانت طفلة جميلة بالدلال ازدانت

من ظلم ياما ومن مصايب عانت

التاريخ يفخر وين ما يطريها".

وقصائد أخرى لهذا الشاعر الشاب الذي قضى نحبه، فكان من خسائر درنة الكبيرة في هذه المأساة التي لا تعرف الرحمة، وثمة قصائد لشعراء آخرين، تفجعوا وتوجعوا على درنة، قصائد للشاعر سالم المساهلي، والشاعر جلال عثمان، والشاعرة آمنة الأوجلي، والشاعر عصام علي غنيم، وآخرين غيرهم. فهل سأقول أيضا: جزى الله الشدائد كل خير؛ لأنها عرفتني على الشعراء وعلى القصائد وعلى صورة المدينة الشهيدة الشاهدة في هذه القصائد المفعمة بالحب والوفاء والصدق، وتنضح بالمشاركة الوجدانية مع أهلها جميعاً؟

جاءت عاصفة دانيال وترافقت مع زلزال المغرب المدمر، ليجتمع الهولان في خبرين على شاشة التلفاز، لا تدري لمن الأولوية، أزاح الإعصار الزلزال عن تصدّر المشهد، على قاعدة أن المصيبة الأحدث تطرد المصيبة الأقدم ولو كان الأمر أسبق بأيام أو حتى ساعات. الشاشات الآن جاهزة للبث المباشر من درنة، الحالة صعبة، مخيفة، لا تستطيع أن تقارن بين مشهد زلزال مدمر، وعاصفة هوجاء عمياء، تخبط خبط عشواء في كل هذه المدينة. لا تستطيع أن تقول إن إحداهما أهون من الأخرى، الضحايا في المصيبتين في تزايد، الدمار كبير، ويتسع، وأنت العربي الفقير المعدم من الحيلة القابع في بلد محتل، ليس لك إلا المشاهدة بحسرة، وما بين الخبرين ينسلّ خبر عن شهيد فلسطيني، تزيح الخبر جانباً، لتظل في صلب الخبرين: الزلزال الأحمق، والعاصفة الماحية الماحقة، أأقول أيضاً: جزى الله الشدائد كل خير، لأنها أهدتني مصائب أكبر؟ يا للمفارقة المحزنة التي تجبرنا على المقارنة بين مصيبة وأخرى، فتواسينا المصائب ذاتها بذاتها!

في ظل هذا الوضع الكثيف الأسود، زلزال، وعواصف، واحتلال، وخسائر لا تقف عند حد، وبلاد منكوبة من المحيط إلى الخليج، بشتى أنواع النكبات، فكيف لمشاهد أن يشعر بالراحة والاطمئنان، وكأن كل تلك المصائب من التردي السياسي والتشرذم لم تعد كافية، لتأتي الطبيعة وتشد سواعدها ولتحكم قبضتها علينا؟ فما علينا ونحن هذه حالنا إلا أن نقول ما قال مصطفى طرابلسي الشاعر الشهيد: "ليس

لنا في هذه الشدة إلا بعض... لنتساند حتى لا نغرق..."، ليس فقط غرق الماء، بل أيضا الغرق في بحور الهزائم، فكلنا واحد، كل متصل، من المحيط إلى الخليج. أليس لهذه الشدائد فائدة إذاً لأنها جعلتنا موحدين أمام الكارثة؟ فهل سأردد كذلك: جزى الله الشدائد كل خير، لأنها جعلت القلب المصاب في فلسطين ينبض للقلب الموجوع في درنة؟

لم نَفُق من الزلزال والعاصفة الحادثين في أيلول 2023، حتى ضربتنا عاصفة الاحتلال المجنون بعد السابع من أكتوبر، لتدمر كل شيء في غزة والضفة الغربية، وتقتل أكثر من عشرين ألف إنسان في بضعة وسبعين يوماً فقط. لعلّ الزلزال والعاصفة أرحم ألف مرّة من احتلال مثل هذا.

رحم الله شهداءنا جميعاً، وأعان الله المصابين على تجاوز هذه المأساة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وتبقى إرادة الحياة أقوى من الموت، وأخيرا: **"**عسى الكربُ الذي أمسيت فيه... يكون وراءه فرج قريبُ".

لا تجعلونا نكفرُ بكم أيضاً

لماذا نصرّ على الاستنجاد بإخواننا العرب؟ أليسوا منا ونحن منهم؟ لماذا يتركوننا هكذا نهبا للطامعين، ليس في فلسطين بل في كل بلاد العرب؟ نحبهم، وعتبنا عليهم كبير وكبير، فماذا عسانا أن نفعل ونحن نُهرس تحت جنازير الدبابات الصهيونية ومدافعهم الحاقدة؟ عليكم أن تكونوا معنا. هذا هو المنطق الذي تعلمناه وآمنا به.

إنه نداء الدم يا أخوة الدم والمصير، إنه نداء الدين أيها المسلمين، إنه نداء الإنسانية أيها الناس. لا تتركوا السكرة تأكل الفكرة، وناهزوا الوقت، حكاما وشعوبا، إننا نستصرخ رجولتكم وتاريخكم المجيد، فالتاريخ لن يجاملكم، ولن يكتب إلا ما قد عشتموه وعايشتموه.

لقد كفرنا بالشرعية الدولية التي أضاعت بلادنا، فلا تجعلونا نكفر بأننا أمة واحدة، يجمعها مصير واحد على الأقل، إن تفرقت بيننا المصالح والأهداف، على الرغم من أنه لا مصلحة أهم وأولى من المحافظة على فلسطين بأيديكم وأيدينا، فهي بلادكم أيضاً، ونحن قطعة من لحمكم وتاريخكم، وجغرافيتنا جزء من جغرافيتكم، ومناخنا وشعرنا ونثرنا ونحونا وقواعدنا، بل إننا ما زلنا نصلي لإله واحد، أم تراكم تخليتم عن إلهاكم هذا، فـ "إلهنا وإلهاكم واحد ونحن له مسلمون". فلا تبدلوا نعمة الله كفراً وتُحلونا دار البوار، وتدفعونا لأن نكون مثلكم كفارا بكل ما تبقى من تاريخ وحضارة ودم وماء وهواء وتراب يجمعنا. تذكروا ما قاله الشاعر إبراهيم اليازجي:

تَنَبَّهـــوا وَاسـتَفيقوا أَيُّهـــا العَـــرَب
فَقَـــد طَـــمى الخَطــبُ حَتّـى غاصَـتِ الرُّكَـبُ
اللّهُ أَكــبرُ مــا هَـــذا المَنــام فَقَـــد
شَــكاكُمُ المَهـد وَاِشـتاقَكُمُ التُرَبُ
أَلِفتُم الهـون حَـتّى صـارَ عِنـدَكُمُ
طَبعــاً وَبَعــضُ طِبــاعِ المَــرءِ مُكتَسَــبُ
أَلَــيسَ فــيكُم دَمٌ يَهتاجُــهُ أَنــفٌ
يَومــاً فَيَــدفَعُ هَــذا العــار إِذ يَثِــبُ

المساحة الثانية: على الحوافّ الناتئة

اسمح لنا بالاختلاف معك يا رَيِّس

كتب السيد الرئيس محمود عباس مقالاً في صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ 2011/5/17، وأعادت نشره وكالات أنباء متعددة ومواقع وصحف في التاريخ نفسه، وطرح السيد محمود عباس في المقال قضايا مهمة، وإن لم يكن فيها أي جديد على صعيد القضية الفلسطينية؛ فقد أعاد ما هو معروف، ويكتسب المقال أهميته من كونه مكتوباً بقلم رئيس السلطة الفلسطينية، وفي ظروف جاءت أحداثها دراماتيكية، وأعني بذلك ما تم في القاهرة من مصالحة بين الفصيلين المتنازعين (فتح وحماس) فأعاد السيد الرئيس تأكيد موقف السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير من قضايا الصراع العربي الإسرائيلي، أو الفلسطيني الإسرائيلي، ولذلك فالمقال يشكل رسالة تطمين للمجتمع الدولي بأن حماس ستسير في خطه، وليس العكس، وقد اشتمل المقال على جملة من الملحوظات أسجل بعضها فيما يأتي:

أولا: أكد الرئيس اعتراف السلطة والمنظمة بأحقية اليهود في أرض فلسطين وعلى نسبة 78% منها، وهذا واضح لا لبس فيه، ويقبل سيادته بـ (22%) من فلسطين التاريخية لتكون المجال الجغرافي لدولة فلسطينية العتيدة، وهي الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام 1967، وغدت المشكلة الحقيقية هي الاستيطان وتعنت الاحتلال في عدم اعترافه بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره على هذا الإقليم، على الرغم من كل الاستحقاقات التي التزم بها الجانب الفلسطيني، وفي ذلك إجحاف بحق الشعب العربي الفلسطيني التي سلبت أرضه، وتشرد في المنافي، ومحو لكل التضحيات والعذابات التي قدمها هذا الشعب على مدى ما يزيد من ستة عقود.

ثانيا: يرجع الرئيس محمود عباس المرجعية في إحقاق الحق، إلى هيئة الأمم المتحدة، وهي أساس البلاء وأس الداء، وقد أشار سيادته إلى ذلك في المقال، وكأننا لم ندرك الحقيقة، وهي ساطعة سطوع الشمس في أن مَنْ أضاع فلسطين وظلم الشعب، وحرمه من حقوقه هي هذه الهيئة المستبدة التي نظرت إلى المغتصب أنه صاحب حق لا يُجادل فيه.

ثالثا: لم يطرح سيادته قضية اللاجئين بوضوح ليؤكد عودتهم إلى ديارهم التي حرموا منها، وظلوا على مدى هذه العقود المرة يحلمون بالعودة إليها، ورمزت إليه كما قال أحداث الذكرى الثالثة والستين الأخيرة، مقدمين ما يزيد على (14) شهيدا، في سبيل الالتفات إلى أنهم لم ينسوا فلسطين، وبدا أنهم مصرون عليها، وإنما طرح هذا الموضوع في نهاية المقال للحل العادل ضمن القرار 194، وهذا بطبيعة الحال خاضع للتفاوض، مما يعني أنه قد- ولا أجزم- قد لا تكون هناك عودة كاملة للاجئين، إن وافق الاحتلال أصلا على ذلك خلال عملية التفاوض إن أصبح لهذه العملية التي أثبتت فشلها على مدى عقدين- كما قال- نتائج ولو بسيطة.

رابعا: تجاهل سيادته الاستناد إلى الشعب والثورات الشعبية عربيا، وربما إقليميا، ولم يبدُ أنه راهن عليها إطلاقا، وتناساها بالمجمل، مما يعني أنه لم يحفل، ربما بالشعب ورأي الشعوب التي ثارت في مصر وتونس وسوريا وغيرها، وكل تلك الثورات قامت وعينها على فلسطين، ناهيك عن قوافل شرايين الحياة السابحة نحو غزة وأسطول الحرية، ولو راهن الرئيس على هؤلاء لكان أجدر به أن يحقق شيئا ذا بال، وأجدى نفعا من اللجوء لهيئة الأمم، ولاكتسبت قضيتنا زخما سياسيا وقوة لها أبعاد عظيمة الأثر في السياسة الدولية، ولفتحت الآفاق أمام السياسيين، ولم تحصر آليات إنهاء الصراع بإحدى الطريقتين العقيمتين؛ التفاوض أو اللجوء لهيئة الأمم.

وأخيرا: عفوا يا سيادة الرئيس إن اختلفنا معك، فهذا مجرد رأي لمواطن من هذا الشعب المقهور، عاش يأمل بأن يرى فلسطين محررة، فعلى كثرة ثوراتنا وانتفاضاتنا السابقة، واستراتيجياتنا البعيدة والطويلة والقصيرة والقريبة، إلا أنه ما زال يرى أن فلسطين هي الأبعد منالا، والأصعب طريقا، لكنّ طريقك التي ارتضيتها لنا لنتحرر بها كانت أكثر ربطا بالمحتلّ، وأبعدتنا عن التحرر والتحرير والكرامة الإنسانية والوطنية.

ما هي النتيجة بعد 28 عاماً على اتفاق أوسلو؟

يصادف يوم الثالث عشر من سبتمبر (2021) الذكرى الثامنة والعشرين لتوقيع اتفاقية أوسلو، فماذا جنى الشعب الفلسطيني من هذا الاتفاق؟ وقد طبّلت له الأبواق الإعلامية في حينه، ونفخت فيه وبالغت وكأنه التحرير، وانبرت الأقلام المأجورة والعقليات التافهة تناضل دونه، مصرين على جعله الفتح العظيم، وقد تحققت أماني شعبنا في الحرية والاستقلال، ونال مطالبه المشروعة وصار شعبا حرا معترفا فيه على كل المستويات، فقد عاد المشردون واللاجئون، وخرج الأسرى من أقبية الظلم الصهيونية، ورحل الكيان الغاصب عن بحرنا وبرنا، وخرجوا من ذكريات الذاكرة، وحملوا أسماءهم وموتاهم، بل وماتوا بعيدا عنّا، وصرنا نتنفس هواء الوطن العليل، وعمّ الرخاء الاقتصادي أرجاء الوطن.

ألم يكن هذا ما منانا به القادة الأفذاذ والمفكرون الأشاوس؟ ولكن ماذا جنينا بعد كل هذه الدوامة؟

ربما حصلنا على ملامح وطن غاب بين الكراسي الموهومة والزعامة المترفة والسيادة المتلاشية، وأرتال من الوزراء والمديرين العامين، واليافطات المعلقة هنا وهناك، لتدل على اسم ولغة دون معنى أو شبه فكرة متخلقة عقلانية لتكتسب شرعية وجود بوجه من الوجوه.

ربما حصلنا على ملامح وطن أكلت أديمه الجرافات الصهيونية واحتواه جدار الضم والتوسع، والتهمه الغول، لنحصل على مزيد من البؤس والحرمان والتشرد، وينفتح الأفق على مزيد من التشرذم، ليمعن الوطن بعدا وضياعا؛ أبعد وأبعد مما كان عليه قبل "مسرحية أوسلو" سيئة الإعداد والإخراج والسيناريو.

ربما حصلنا على ملامح وطن غدا فقيرا، يطلب أهله الكفاف ولا يجدونه، طحنته الآلة الاقتصادية ليكون مستهلكا ومربوطا ومحكوما بقدر الاقتصاد

المتربص بنا، لتزيد المعاناة اليومية، ونصبح شعبا يعيش على الإعالات الدولية، وندخل في سلسلة لا تنتهي من الاستجداء لنحصل على غبار الطلع في فطور أو غداء أو عشاء، وتعجز الدولة وفكرتها وشعارها عن تلبية أبسط الحقوق الاقتصادية لشعب مثخن بالجراح، ونخر في عظامه سوس الهزائم المتوالية.

ربما حصلنا على ملامح وطن يتآكل يوميا ويتناقص، فقد فرخت الجغرافيا جغرافيّات، وغدا الوطن صورة زعيم وخريطة تعلق على الجدار في المؤسسات والدكاكين الوطنية، وصار الخلاف قاعدة السياسة الفلسطينية والاتفاق على التنافر والتناحر هو عنوان الإعلام الفلسطيني بكل أطيافه التي لا تريد خيرا لهذا الوطن المغلوب والمقهور والمذبوح من الشريان إلى الشريان.

ربما حصلنا على ليالي أطول في سجون الظلم وتأقلمنا مع سجون عرضها الوطن المستباح والذات المنهوبة، وصارت قضية الأسرى قضية فرعية، يتفرع عنها أغنيات إعلامية ومهرجانات وتفاهات تسويقية كسدت بضاعتها منذ زمن عتيق، بل وتدهور الوعي إلى أسفل دركاته في التعامل مع الأسرى، فأصحاب المعالي غارقون فيما هم غارقون فيه، والأسرى تتكثف العتمة حولهم، ولا يريد أحد "هناك" رؤيتهم، أو إقلاق راحته بأخبارهم.

ربما لم نحصل ولن نحصل إلا على المزيد من الأيام والذكريات التي تذكرنا بليل البؤس الفلسطيني الطويل، فالقائمة فعلا طويلة والذاكرة الفلسطينية مثقلة بأعباء التاريخ وأوجاعه ولكنها مرشحة للازدياد، ما دامت العقلية السياسية اللاهثة وراء الوهم هيَ هي. هذا الوهم الذي ولّد "دولة القمع الأمني"، وصار الاعتقال السياسي أمرا مفروغا منه، وازدادت القبضة الأمنية على الجميع، وتجرأت العناصر الأمنية الفلسطينية على الدم الفلسطيني وعلى الحق الفلسطيني، كما تجرأ السياسيون على المقامرة بمصير شعب كامل أصبح مرتهناً لمستقبل بلا ملامح.

لقد فقد الفلسطينيون كثيرا بفعل أوسلو، والعصابة التي أفرزته، ومن حقنا نحن أبناء الشعب الفلسطيني المتضررين من هذا الاتفاق وإفرازاته العقيمة التي أفقرتنا وسلبتنا كل ما كان في أيدينا أن نصف هذا الاتفاق بأنه أكثر شرّاً من النكبة، ومن النكسة، ومن الحروب التي هُزمنا بها بفعل سوء التخطيط وعبثية التنفيذ.

ماذا استفدنا من أوسلو غير تعميق "الدولة العميقة" للحزب الحاكم، مع أنه لا دولة ولا شبه دولة على أرض الواقع، وصار الوطن حسبة للمسؤولين وأبنائهم، وكل المؤسسات في خدمتهم، وكل الامتيازات تصب في جيوبهم، لكنّ الشعب وأبناءه لا شيء لهم سوى الفقر والعوَز والسجن والتشريد والتهميش والملاحقة والقتل. هذا هو أوسلو، لا شيء آخر، إنه نكبتنا الوطنية التي لا علاج لها إلا بالعصيان الشامل ضد كل هذه الطغمة الحاكمة المتغولة؛ لأنه لا خلاص من الاحتلال دون أن يتخلص الشعب ممن يشكل سدا منيعا لاستمراره فينا وفي أرواحنا وفي بيوتنا وعلى أراضينا وعلى طرقاتنا، وتمتد قوانينه لتحاصرنا وتميتنا.

فلا مرحبا ولا أهلا بك يا "أوسلو"، لقد آن الأوان لتموت، ولتكفّ عن العبث بأرواحنا التي تشتاق لحظة ترى فيها الحقيقة كعين الشمس دون تدليس وتزويق ومساحيق المهرجين الوطنيين. وكفاك استهتارا وغباء أيها الصانع أوهامنا وآلامنا، وكفاك بؤسا أيها التاريخ.

السيناريو نفسه مع اختلاف المخرجين

"فإذا وجد المسلم بيده (200) ليرة فأكثر، بنى بها بيتين وسكنهما بدون قصارة، ثم استدان وقصرهما، واتسعت دائرة البناء معه، بتشويق زوجته وتكثير أولاده، فاستدان بالمائة تسعة وبالمائة 12 و15. فلا يمضي زمن إلا وقد أثقل الفائض على عاتقه، وباع داره لليهود بالسعر الحاضر، وقد أنفق عليها أضعاف هذا السعر، وخرج خاوي الوفاض. فهذا هو حال أكثر المسلمين الذين أحدثوا الدور الجديدة بظاهر مدينة القدس خارج أسوارها".

جاءت هذه الفقرة في كتاب د. فيصل دراج "ذاكرة المغلوبين- الهزيمة والصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني"، نقلاً عن المفكر الفلسطيني روحي الخالدي، حيث كان يتحدث عن وضع الفلسطينيين في الفترة التي سبقت الاحتلال الصهيوني المجرم لفلسطين وتأسيس الكيان الغاصب، وكيف كانت تنتقل الأراضي بثمن بخس إلى أيدي اليهود الصهاينة لإقامة المعسكرات والكيبوتسات، والتجمعات الاستيطانية.

هذا كان فيما قبل النكبة ربما بعشرين سنة أو أكثر أو أقل. والأمر اليوم هو هو، سواء في انتقال الأراضي للصهيونيين عن طريق سماسرة مجرمين، وقد شاعت هذه الهجمة على الأراضي قبل بضع سنوات، وعلت أصوات خجولة كصوت الخالدي في حينه للتحذير منها. لكنّ العملية مستمرة وبصمت.

في زمن الخالدي كان الناس يستدينون من الأشخاص بالربا بفوائد مرتفعة، واليوم الناس تستدين من مؤسسات ربويةٍ مهمتها هي هي، إغراق الناس في الديون وفي حياة البذخ والترف الكاذب الخادع، فهذه السياسة التي جاءتنا منذ عهد سلام فياض وانفتاح البنوك على الموظفين وتسهيلات القروض، كان الهدف منها إغراق الناس وربطهم بمرتباتهم، لا سيّما وأن ما يقارب من نصف الشعب الفلسطيني أو أكثر يعيش على الرواتب من الحكومة. وهنا يأتي دور استلاب قرار الناس وجعلهم خاضعين للقرارات الحكومية، وأنهم غير قادرين على المقاومة، فوضعتهم السلطة بين خيارين: إما المقاومة والجوع والسجن وملاحقة البنوك، وإما أن تخرس وتأكل وتشرب وتسمع موسيقى وبنت حلوة تركب معك في سيارة فارهة وتذهبان سوياً إلى شواطئ تركيا.

وعليه، فالناس مشغولة بالبناء والزواج والسفر والتمتع بالملذات العابرة وشراء السيارات وبهرجة المظاهر الخادعة حتى غدت مرهونة حياتها للبنوك، ولسياسة خبيثة ربطت الناس بالاستهلاك، وفتحت لهم المجال ليظلوا تحت رحمة الدائن الذي تحول من المرابي الشخص إلى المرابي المؤسسة، فتحول الناس كلهم إلى البنوك وإلى مؤسسات الإقراض من أجل الإنفاق على الكماليات، إضافة إلى أن كل هذه العجلة من الاقتصاد مربوطة مع الكيان الغاصب، فصارت حتى معاشات الموظفين بيد الإسرائيليين، فعمّ البلاء، وانعدم أفق المقاومة وتم قتل الروح المعنوية في النفوس، فالكل مرهون للبنك، العامل والموظف والتاجر والمزارع. ومن يفكر بالمقاومة، سيفكر بالتبعات وما ستجره عليه من خسارات مضاعفة، وهكذا استخدم الاقتصاد في ترويض الشعب وربطه باحتياجاته اليومية، دون أن يكون عنده بنية تحية لمنظومة اقتصادية قادرة على العيش خارج نطاق عجلة الاحتلال، ولا يفكر قادته بإيجاد حلول لفك ارتباط الاقتصاد الفلسطيني عن اقتصاد الكيان المحتلّ، فما بين الكيانين مصلحة مشتركة على ما يبدو. هذه المصلحة التي تظهر في كثير من الجوانب، ولا يغرنّ أحداً تلك اللغةُ الإنشائية في اعتبار الكيان عدوا يجب أن يقف عند حده، إن هذا هو خطابهم المعلن للشعب فقط، ولاستهلاك الإعلام المحليّ، أما الحقيقة فالكيانان متوحدان على هدف واحد هو قهر الشعب وإذلاله ضمن برنامج معدّ على بصيرة، يراها المواطن مجسدة في هذا المقطع من كتاب الكاتب السوري الكوردي المغترب جان دوست "في قبضة الكابوس": "يُقال إن الدكتاتوريات تتقصد إيجاد أزمات متنوعة كل بضعة أعوام حتى تشغل الشعب بذلك. في الحقيقة ينحصر التفكير في الحاجات الضرورية ومستلزمات العيش في أيام الأزمات. حين يجوع المرء يفكر بالخبز ولا تخطر الحرية على باله".

وهكذا تفعل بنا السلطة الفلسطينية، تدخلنا في عملية تدجين وترويض، ولكنها تدخلنا بهذه العملية سنوياً، وأحيانا مرتين في العام الواحد. هذه السلطة بوصفها مؤسسة حاكمة جمعت أوسخ ما في كل الأنظمة العربية التي مرت على الشعوب العربية. فالسلطة تُحكِم حولنا حبلها لتخنقنا بالسياسة العامة وبالإجراءات الطارئة التي تفتعلها، تفعل كل ذلك وهي تسوّق شعار الوقوف في وجه الاحتلال، وهي في حقيقة الأمر تعمل مع الاحتلال ضد الشعب وضد فلسطين وضد التحرير، إن لم نفهم الصورة على هذه الكيفية

فكيف سنفسر إذاً إجراءات السلطة على الأرض، تلك الإجراءات التي لا تخدم الإنسان ولا الأرض ولا التاريخ ولا الواقع ولا المستقبل الفلسطيني. الساذجون وحدهم من يصدقون كل هاتيك الزعبرات الفارغة التي أصبح المواطن فيها عاريا وفقيرا وذليلا وغير قادر إلا على التفكير بلقمة الخبز الحاف، فكيف سيفكر إذاً وهذه هي حاله بالمقاومة، لقد خدعونا عندما قالوا علينا أن نبني الوطن ومؤسساته، فإذا بهذه المؤسسات ضروع أثداء لا تصب إلا في أفواه المنتفعين من أبناء السلطتين السياسيتين الفلسطينية والصهيونية، وباعتماد ومؤامرة محكمة مع سلطة رأس المال المتوحشة القذرة.

السلطة الفلسطينية عرّاب التطبيع السعودي

يبدو- والله أعلى وأعلم- أن السلطة الفلسطينية شعرت بالملل دون أن يكون لها دور أو حصة في كعكة التطبيع العربي الزاحف بقوة من كل فجّ عميق، ليشهدوا لهم منافع فيه، فبدلا من أن تشجب وتولول وتحرد، وتخسر مالا وسفرا، وامتيازات، فأعربت عن مساعدتها لتكون عرّابا هذه المرة لتطبيع السعودية مع الاحتلال. السلطة بهذا الإجراء السياسي التكتيكي "البراغماتي جداً" تتحاشى ما كانت تفعله بنا أمهاتنا ونحن أطفال، عندما كنا نحرد عن الطعام أو الشراب أو عطية ما، فيُدِرن وجوههن عنّا غير آبهات بحردنا، وتذهب الحصة لغيرنا من "الواقعيين" العمليين من أشقائنا، أما الحردان، فالله لا يقيمه، وراحت عليه!

هكذا ببساطة لعبة السياسة اليوم، طفل سياسة أو أحمق لا فرق، يريد أن يكون له نصيب؛ لأنه جرّب الحرد مع الإمارات فراحت عليه، ورجع صاغرا ذليلا يشمشم من فتات المال الإماراتي. لقد تعلموا أخيرا أن الحرد لا يجدي نفعا، فعليك أن تنخرط باللعبة، وعليّ وعلى أعدائي يا شعبنا المناضل! وكما قالت ستي الله يرحمها: "وَهُو يا ستي قطعة ولا القطيعة". كانت ستي رحمها الله أيضا تفهم بالسياسة، هذا ما اكتشفته بعد رحيلها.

أما السعودية، فالحق يقال والله، إنها "حريصة على ألا تغضب السلطة من التطبيع"، لذا فإن التطبيع القادم لن يتم إلا برضا السلطة، وإشراكها في الرشف من صحن "الشوربة" ولو بملعقة صغيرة، كملعقة دواء الأكامول الإسرائيلي للأطفال، فقد أثبت نجاعته ضد الحمى! فها هي السلطة كما جاء في الخبر تطالب السعودية "بتجديد المساعدات المالية التي أوقفتها الرياض قبل عدة سنوات". فالرياض أيضا "تعطي وتحرم زيّ هواك"- هوى نتنياهو وهوى بايدين ملك الروم المعظّم.

وليس التطبيع السعودي، بل كل "التطبيعات" القادمة لن تسمح السلطة بمرورها دون أن يكون لها "حصة ما" أو "امتياز ما". أما كونهم طالبوا

بطلبات "وطنية" كهذه الواردة في خبر صحيفة القدس على صدر صفحتها الأولى يوم الجمعة في الفاتح من سبتمبر 2023، والقاضية بتبادل أراضٍ والدفع إلى استئناف مفاوضات فهي طلبات خيالية تعرف مسبقا أن "اليهود الغلابى" الذين يعانون من الاضطهاد لن يوافقوا عليها مطلقا، بل سيسخرون منها، هذا إن كان ما طرح إعلاميا فعلا وحقا سيقال خلف الأبواب الموصودة، فالاحتلال انتهك مناطق أ و ب و ج، وانتهك حرمة الأموات قبل الأحياء، وسرق الماء والتراب والهواء، فهل سيعطينا أراضي بدلا من أراضٍ؟ فالنتنياهو غير معني بتقديم مثل هذه "التنازلات"، ولن يكون مستعدا لبحثها مع نفسه حتى، فهي بالنسبة له، نكتة مثيرة للقرف، فقد "شاخ على التيوس بلا فلوس" فما الذي يجبره لتقديم هكذا تنازلات؟

عدا أن منطق الاستبدال الوارد في الخبر بحد ذاته جريمة، كأن الأرض الفلسطينية قطعة قماش ملك شخصي لأزلام السلطة القابعين في المقاطعة الراملّاوية يبادلونها ويستعملونها ويتصدقون بها كما يشاءون، وعلى أي أساس يتم الاستبدال؟ أليست كل الأرض لنا؟ إنهم يتعاملون مع الموضوع بمنطق الغباء العام، واستعباد العباد، دون أدنى إحساس بالكرامة الوطنية، أو الشخصية على أقل تقدير.

أي استغباء هذا؟ وأي استحمار لهذا الشعب الذي يدفع يوميا من دمه وعرق جبينه ثمن فواتير المقاطعة والسفراء والمحافظين الجدد والقدماء وامتيازات الوزراء والأعيان وأبنائهم في الداخل والخارج.

السلطة تعلم أن طلبها بتبادل الأراضي سيضاف إلى قائمة المستحيلات، (بما فيها المساعدات السعودية إلا إذا أوعز بايدن بدفعها أو بتقديم جزء منها كرشوة سياسية داخلية)، لتصبح تسعة مستحيلات بعد أن أضاف وائل كفوري قبل سنوات مستحيله الثامن "لما ضحكت وخصرك مال" على رأيه. وبهذا سيصبح المستحيل التاسع لما "الكيان يضحك وخصره يميل" من طلب السلطة غير المعقول والجنوني، فالأرض كل الأرض تحت سيطرته، بل

وكل من في المقاطعة وما حول المقاطعة يأتمرون بأمر نتنياهو ومن هو أحقر من نتنياهو رتبة ومرتبة.

وبهذا القرار السياسي الفلسطيني تكون السلطة الفلسطينية قد دقت خازوقا آخر من خوازيقها السياسية في لحم الإنسان الفلسطيني وعظمه قبل أرضه وقضيته، وصارت تلحق "الأخضر" لتنتفخ جيوب القادة من جهة، وتنتفخ السجون بالأحرار المناضلين من جهة أخرى. وكلّ ميسر لما خلق له، فالسلطة خلقت للتطبيع، والشرفاء خلقوا للنضال والتحرير. إنها قسمة ليست "ضيزى" إنها القسمة العادلة، فهنيئا لكل طرف بما قسمه الله له.

نعم، إننا خائفون ومرعوبون

إجابة لسؤال مهم "خايفين من إيه"؟ أقرأه وأعيد كتابته بلهجة مصرية شعبية محببة إلينا نحن الفلسطينيين، نحن الذين قضينا أعمارنا المتطاولة منذ عام 1917، ونحن ننتظر حلا لقضيتنا، كثير من الفرص ضاعت أو أضعناها ونحن نأمل خيرا وحلا وتحريرا، تعلقنا بهذا النظام أو ذاك، كما أن قياداتنا التاريخية لم تقصر في إبعاد الشعب عن أمله وآماله، ومع الأيام وتراكم السنوات ما زلنا نقول: "خايفين" من إيه؟ طبعا "خايفين" من كل شيء، من الأنظمة العربية، ومن المنظومات والمنظمات الدولية، ومن الاتفاقيات المشروطة، ومن الربيع العربي، ومن أنفسنا وأصدقائنا، ومن أعدائنا. "خايفين" من أحلامنا المسروقة التي تبتعد عنا يوميا لتصبح كوابيس مزعجة لم تعد تعطينا نوما شهيا أو حياة مستقرة، فكلنا صرنا نغفو على تهليلة العفريت وحكايات الدمار والخراب.

رحم الله درويش الذي ربط منذ ما يزيد عن ثلاثة عقود في ديوانه "أحد عشر كوكبا" بين الأندلس وضياعها وبين فلسطين وتلاشيها، فكل يوم تصبح الجغرافيا أبعد، ويغرق الشعب في تفاصيل حياته اليومية وينسى قضاياه الكبيرة، فلا تلوموا هذا الشعب، فقد أوصله الجميع عن سابق إصرار وتعمد إلى ألّا يفكر إلا بالراتب و"الماهية"، لا حيلة له وهو لا يجد ما يطعم به أبناءه، عدا توفيره لهم حياة حرة كريمة وعزة وأملا بوطن لا تغتاله وحوش الاحتلال أو جيوب الفاسدين.

فكلنا نعيش خريفا يطحن الأيام وما علينا سوى الانتظار وإن طال، ولكن ماذا ننتظر؟ إننا ننتظر أن يجود علينا القدر ببعض موت، قبل أن تجود علينا المنح العربية والدولية بنزرها اليسير الذي يبقينا في منطقة وسطى ما بين الجمرة والنار.

لم تنفعنا التصريحات ولم تنفعنا الإستراتيجيات والسياسات ولم نحصل إلا على وهم الدولة التي تسبح في حقل من السراب، لم نحصل إلا على مناصب

لا سيادة فيها، مجرد كراسٍ مرسومة على أوراق بالية، ولم نحصل إلا على ألقاب خاوية ومفرغة، لقد صدق الشاعر في قوله واصفا حالتنا وكل حالة مشابهة لحالتنا الإنسانية المؤلمة:

ألقـــاب مملكـــــة في غـــــير موضـــــعها

كـــالهر يحـــكي انتفاخـــاً صـــولة الأســـدِ

هذا ما حصل عليه الشعب المنكوب، وكأنه لم يناضل منذ ما يزيد عن القرن من أجل بلد مزدهر وحياة حرة كريمة، وكأن شبابه لم يقضوا أجمل سنوات عمرهم في السجن من أجل أن يتخلصوا من كل ما يسحق وردة جميلة تفوح عطرا كل صباح، وكأن الشعراء لم يذوبوا حنينا لكلمة حب يقولونها لحبيب جميل منتظراً الرجوع والها مشتاقا، يتطلع بشوق من شرفة المنزل على ما يريد القلب ويهواه، وبعد ذلك نقول "خايفين" من إيه؟ نعم، إننا خائفون ومرعوبون، لأننا لم نحصل على حلم بحجم الكف، ولم نربح سوى الخسارة والفقر والتشتت:

حلم بحجم الكفّ طارْ

ما نفعُ أشعاري

يا ذلّة الأشعارْ

حلم بمكر داكنٍ

يبكي على وجع مُدارْ

حلم بسجن الذكريات ممدّدٌ

يحرّكه الغبارْ.

لماذا الخامس عشر من نوفمبر مجرد كذبة بلهاء؟

أجيب باختصار، وقبل الخوض في بعض التفاصيل. لأنه كما قال مريد البرغوثي "وأنت تمعن بُعْداً أيها الوطنُ". كل يوم تبعد "فلسطين المتخيلة" أكثر، كل يوم نغرق في الوهم أكثر، كل يوم ويستشرس الفساد السلطوي حولنا في كل المواقع أكثر وأكثر، كل يوم والمواطن البسيط مهدد بالحواجز والقنص والقتل والاعتقال أكثر. كل يوم والأسرى في غياهب السجون الصهيونية يموتون دون أن تقدم لهم السلطة شيئا ذا بال. كل يوم والسلطة وأعمدتها من المنتفعين الرأسماليين والمثقفين الخائبين ينهشون لحمها، ويكسرون عظمها، ويوهنون عزيمتها. أين هو الاستقلال إذاً؟ إنها مجرد كذبة بائسة ونكتة مقرفة ليس لها أي معنى. إنها "كذبة تشرين" الفلسطينية التي لا يريد أي فلسطيني أن يكذّبها أو يحاول نقضها أو نقدها. فصارت واحدة من مقدساتنا ومكدّساتنا الوطنية.

في عام 1988 عندما أعلن ياسر عرفات استقلال فلسطين من منفاه في الجزائر، ثمة أشياء كثيرة كانت تدغدغ عواطفنا الوطنية آنذاك، الآن أعترفُ أننا لم نكن صغار عمرٍ فقط، بل صغار عقل أيضاً، كبرنا عمرا وبقي عقلنا صغيرا، كبرنا وكبر معنا وهمنا لنحتفل كل عام بوهم الاستقلال. أين الاستقلال هذا المزعوم الذي لا تستطيع فيه السلطة الفلسطينية التي تدير شؤون السكان الفلسطينيين كسلطة مدنية أن تضع اسم "دولة فلسطين" على المعاملات الرسمية مع هذا الاحتلال وفي مخاطبة العالم. إننا مثل ذلك الساذج الذي كذب كذبة وصدقها. وصار يدافع عن شرف أنها حق وصدقُ.

عندما أعلن عن يوم الاستقلال، كنا أقوى، كنا أقدر على المقاومة، كنا أقدر على أن نقول للعالم أجمع: "لا"، كان الشعب أفضل حالا من اليوم، هذا الشعب الغارق في تفاصيل حياته اليومية، وأنسته السلطة والاحتلال معا أن يفكر بفلسطين المحررة. كيف يفكر بفلسطين المحررة وهو يرى أصحاب السيادة والمعالي، والمواكب والتصريحات يُغرقونه في التيه والضياع؟ إن من

يدقق في الأمر لا يجد سوى أنها لعب أطفال، وفقاقيع، ورغوة صابون، فجندي واحد دون أن يشهر أتفه الأسلحة قادر على منع سيادته ومعاليه من المرور في شارعٍ في نابلس أو رام الله أو جنين أو حوارة. ناهيك عن الخروج خارج القفص، والتحليق في الطائرات لمقابلة رؤساء الدول، كأننا مثلهم.

عندما أعلن الاستقلال قبل خمسة وثلاثين عاماً كان ثمة "حكومة منفى" و"دولة منفى" يناضل معلنوها لتقوم على التراب الوطني، وتستند إلى تجارب عالمية ناجحة. ولكن ما حدث هو أن هذا المنفى تعمق أكثر في الحياة السياسية، وصارت الدولة فكرة غيبية لا وجود لها، لا في المنفى ولا على الأرض، وتمخض الجمل (هو لم يكن جملا في الحقيقة) فولد فأراً. أيضا (هو لم يلد فأرا في الحقيقة، كان حملا كاذباً) فلم يلد إلا ظل الدولة وسراب كبير المساحة لن نستطيع أن نقطعه دون أن نتحرّر من هذه الأوهام التي تجعلنا نعيش في قرف الاستغباء والاستحمار السياسي المصنوع من أكبر القيادات الموصوفة بالوطنية.

أين هو الاستقلال أو حتى شبه الاستقلال الاسمي والسلطة عاجزة عن توفير رواتب موظفيها بعد أن عجزت عن توفير حماية أمن المواطن وأمانه وبيته وشجرة زيتونته، إنها لم تستطع حماية وزرائها ونوابها؛ فاعتقلوا وأهينوا على الحواجز واستشهدوا، والقائمة طويلة، ومرشحة لتكون أطول ما دمنا سابحين في وهم يسمى "عيد الاستقلال".

وأخيرا، ما هو معنى الاستقلال أكثر من حصول الموظف على يوم عطلة، هذا الموظف المهدد بالاقتطاع من راتبه لتجاوز أزمة مالية تتفاقم بفعل الفساد السلطوي المجنون أولا وأخيرا، وليس بفعل الاحتلال، فما تنفقه السلطة وأبناؤها في الفراغ يكفي لتستقل السلطة عن الاحتلال اقتصاديا على الأقل، لو أرادت أن تستقلّ فعلاً. إنني على يقين أن من المصلحة العليا للقيادات تلك أن تستمر حالة الوهم هذه ليظل الظرف متاحا لنحتفل يوميا بالغباء والعبث.

كل عام والدولة أبعد، ولكن كل عام وفلسطيننا نحن الفقراء الكادحين بألف خير. إنها لنا ونحن لها، لكن علينا أن ننهي هذه الحالة التي صنعت كذبة كبرى تسمى "كذبة تشرين".

على هذه الأرضِ ما يسحقُ الحياة

على إثر الحالة السياسية المتردية في الجمهورية الفلسطينية العظمى الممتدة من رام الله شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، حتى وصلت أبعد مدى مستطاع، وضربت شعاعا في عين الحقيقة، وامتدت في أصقاع الأرض، وتوغلت في عمق الأمجاد حتى وصلت إلى قلعة المقاطعة في رام الله، حيث إنها لتحصيناتها الشديدة المنيعة المائعة كأنها السائل؛ لن تستعصي على جنود الاحتلال لو سولت لهم أنفسهم اقتحامها ليلا أو نهارا، ولن يضيرهم لو أتوها زواراً، ستكون لهم الأبواب المفتوحة مشرعة أياديها تترصدهم لتعانق حقدهم بمحبة غامرة، وسترفع البنادق وتصوب إلى صدور حاملها حتى لا يتم إلا ما ينبغي له أن يتم من مراسيم انتهاكاتها المتكررة.

على إثر هذه الحالة الشامخة في عنان الحضيض، والرافعة رأسها في ذبول الصقيع، تأتي معركة الأسرى، هؤلاء الأشاوس الذين تشرفوا بحمل أوسمة الشرف في زمن العار، تحملوا الغياب والعناء في ظل إستراتيجيات الذكاء المستحكم في أروقة التفاوض المجدي جداً:

سبحْ بحمدك

إذ أعطوك خردلة وناراً يا أسيرْ

سبحْ

فذاكَ السجنُ بيتُك وانتظرْ

تصريحَهم في خطبةِ الوهمِ الكبيرْ

يا ليتنا متنا، ولم نظفر بدمعتِك التي

غطّت على الحزنِ المُثير

على إثر هذا التعقل القاتل، والحرص المهيب على المشاعر الإسرائيلية الفتاكة بأبنائنا، سنقف جميعا غدا أو بعد غد، وربما سنكون مضطرين عظمة وبأسا كأنه الحديد لننشد في أحلامنا:

وطــنَ الخرافــة إنّنــا وَهْــمٌ أتــذكر ذلّنــا
يــا أيّهــا الــوطن الــذي يغتالنــا يــا بؤسَــنا

على إثر ذلك، عليك أن تعلم أيها الوطن الكسيح أن الشاعر يغتالك قبل الوزير، وأن الفجر متآمر مع الشمس التي تحرق زنود الرجال ولا يجدون غير غبار الكلام في آخر اليوم، يتزودون به ليطعموا أبناءهم.

على إثر ذلك هل تعبنا من الكلام؟ أظنّ أن اللغة لا تحبّ مفرداتُها السياسةَ العجماءَ، صفيقةَ الوجه، البلهاء، خاوية الروح. لذلك غطت في سبات عميق، اتركوها لراحتها لعلها تجد حلما بعيدا في ذات أرض أو بعض قطعة من سماء لم تلطخ بجنون يحرق ذلك القمر الممتقع بسواد ليلته الطويلة.

علما، وعلى إثر ما يحدث على الأرض من معاركِ كلامٍ ضاريةٍ جدا، فإنني لا أحب السياسة، مع أنني أستغرب جدا كيف لم يقل محمود درويش: "على هذه الأرض ما يسحق الحياة".

فهل نحن نستحق ما نحن فيه من نعمة المجد العظيم؟ فلتتحدث يا زمن.

المسكوت عنه في السرديّة الفلسطينية الرسمية

يشير تبني رواية ما لحادثة تاريخية معينة، والقبول بتعدد الروايات حولها إلى وجود معضلة تأسس إلى قبول كل الروايات في منطق الصراع الفكري الذي يقود إلى الصراع على الأرض. في فلسطين ثمة روايات متعددة لحدث النكبة، ثمة سرديات مختلفة في الجهة الواحدة، فهناك سردية دينية وأخرى تاريخية، وتنحلّ السرديتان إلى سرديات فرعية تتشابك وتتصارع فيما بينها، فكيف ستتصارع مع الرواية التي تعدها نقيضا؟

في تقديري الشخصي أخطر تلك السرديات هي السردية التاريخية للصراع على الأرض. التاريخ غير حقيقي وغير شامل وفيه جوانب معتمة كثيرة، والسردية التاريخية بشكل عام هي سردية مخاتلة وفيها الكثير من المراوغة والخديعة والخذلان، ويزداد هذا الأمر وضوحا في الحالة الفلسطينية، نظرا لتاريخ فلسطين الممتد والمتعمق في الزمن، الجغرافيا ثابتة والتاريخ سائل ومتحرك. سكن هذه البلاد سكنا شرعيا ملايين من الناس من أديان وأعراق مختلفة، حتى وصلنا إلى الحالة السياسية اليوم، لمن هذه الأرض اليوم؟ أيحق للتاريخ أن يقول كلمته في ذلك؟

في السياسة لا منطق إلا منطق القوة، فالتاريخ ليس له اعتبار عند السياسيين، فأمريكا تحولت إلى مستعمرة "الرجل الأبيض" رغما عن قوة التاريخ وعشرات الملايين من الهنود الحمر، وإسبانيا تأسلمت ثمانية قرون ثم عادت إلى الصبغة الغربية، وكذلك الحال مع فلسطين، كانت بيزنطية مسيحية بعد أن كانت وثنية كنعانية ثم غدت عربية إسلامية، ثم ها هي اليوم ذات صبغة عبرانية. لا أحد يستشير كتّاب التاريخ، فهؤلاء عليهم أن يكتبوا أعمال المنتصرين، هؤلاء هم القادرون على المحو والإلغاء والتغيير وليس كتّاب التاريخ وأصحاب منطق "السرديات المتصارعة" على أرض فلسطين.

ومع كل ذلك، ومع إيماني العميق بلا جدوى "صراع الروايات" مع المحتل، لأنه يستهلك الوقت والجهد بلا طائل، فلا هم سيخضعون لمنطق التاريخ إن كان قويا ولا سيغيرون الحال، ولن يفسحوا لنا المجال لنظل على هذه الأرض ونتصرف فيها بحُرية، ووصلوا إلى ضرورة عدم اقتسام الأرض معنا، لأن منطق القوة هو الحكم الأول والأخير وليست قوة المنطق التاريخي، مع أن التاريخ أيضا لا يبشر بخير مطلق، ففيه ما يخيب أملنا وآمالهم أيضا لو أردنا الاستناد على التاريخ في أعماقه.

سأسلم جدلا بمنطق التاريخ، فكيف سنبني سردية فلسطينية متماسكة في مواجهة التاريخيات الأخرى؟ وإلى أي حد يمكن أن نستفيد من التاريخ القديم الموغل في الزمن لبناء مثل هذه السردية المتصلة والمنطقية؟ وكيف يمكن أن نقرأ التاريخ وأحداثه؟ وبأي أدوات، علمية علمانية، أم دينية عقائدية؟ ثمة صراع مخفيّ داخل هذا البناء الهشّ في بناء سردية مقبولة لدى الجميع، العلماني الأكاديمي سيكون في صراع فكري مع الديني الشعبي والديني السياسي. كما أسلفت. وما نواجهه من معضلات في بناء السردية التاريخية القوية المنطقية هم أيضا يواجهونها لكن دون أن تشكل لهم مصدر إزعاج لأنهم أقوياء لا يحتاجونها في صراعهم معنا، سمحوا لبعض منهم أن يتلهى بها على هامش المشروع الاستيطاني كله، أما نحن فقد اتخذنا منها إستراتيجية في صراع طويل مرير، ليس للتاريخ دخل فيه، فصرنا نقاوم الشر بسلاح اللاسلاح.

إضافة إلى ذلك، لا بد من أن نواجه أنفسنا بحقائق تاريخية ليست بعيدة عنا، إنها ابنة العصر الحديث والنكبة المعاصرة، ويجب ألا نغفل عن ذلك، وخاصة دور العرب والأنظمة العربية وجيش الإنقاذ الذي أغرقنا في لجة الاحتلال، فالنظام العربي الرسمي ما زال غربي التوجه، صهيوني السياسة، تضليليّ الفكر، متحالف مع القوى الاستعمارية الغربية ضد الشعوب أولا

وضدنا نحن ثانيا، وحروب غزة كلها تشهد على ذلك، والتاريخ القريب يشهد على ذلك، تاريخ النكبة المعاصرة.

إن أية سردية ستظل "سردية" غائمة وناقصة وخادعة إن لم تبحث هذا الجانب من الرواية الفلسطينية، ولا يمكن لها أن تكون فعالة إلا إذا تمّ تداولها في المدارس وفي الجامعات بشكل علمي منهجيّ موثق في كتب مقررة جنبا إلى جنب مع مساق القضية الفلسطينية والتربية الوطنية، ويضيء عليها الباحثون في الدراسات المحكمة. فالفلسطينيون أبناء التاريخ الحديث لم يتخلوا عن أرضهم كما اتفق العرب والمحتلون على أن يقولوا، بل وَثِق الفلسطينيون بجيوش العرب التي خدعتهم، وسلمت البلاد إلى العصابات الصهيونية، وساعدت على طرد الفلسطينيين من ديارهم. لو لم يكن هناك "جيش إنقاذ" عربي لم تكن البلاد قد سقطت بهذه السهولة المُرّة، أو على الأقل، لما استقرت على ما هي عليه اليوم.

لقد تكرر هذا السيناريو الخبيث المر فيما عُرف بحرب الأيام الستة؛ إنها لم تكن أكثر من مسرحية لتسليم بقية "غرب النهر"، إتماما لما تم الاتفاق عليه "مسبقا" بين "الهاشميين" وبين بريطانيا في اقتسام البلاد، ليكون غربيّ النهر للكيان الغاصب، وشرقيه ملكا وراثيا لأحفاد الهاشميين من نسل "الشريف" حسين القادم من عمق الصحراء العربية ليمنح هذه البلاد (فلسطين) للحركة الصهيونية.

كثير من الحوادث على الأرض كتب عنها الذين عاصروا تلك الأحداث شربوا المرارة مرتين، والأمرّ كان من يد الحليف العربي الذي كان يدا علينا وسيفا لقطع رؤوسنا. إن أية سردية فلسطينية لا بد لها من أن تعرّف الأجيال القادمة كيف ضاعت فلسطين، وأي تلك القيادات التي أضاعتها. على من سيصوغ تلك "السردية" أن يبين دور "الملك عبد الله الأول" وكيف حمى الصهاينة وأمنهم في مدننا وقرانا وخذلنا نحن الفلسطينيين، خذلنا في أرض المعارك الزائفة وخذلنا في رودوس وخذلنا لاجئين. وما زال النظام الأردني كما

هو النظام المصري كما دول الخليج التطبيعية كما المغرب كما السودان عناصر خذلان للقضية الفلسطينية.

أية سردية فلسطينية عليها أن تبين دور النظام العراقي في الستينيات كيف ساعد اليهود بل أجبرهم النظام العراقي بالتعاون مع زعماء الحركة الصهيونية على الخروج من العراق ليهاجروا إلى بلادنا ليسكن اليهودي العراقي في بيتي. وعلى أي سردية فلسطينية للصراع عليها أن تقول كيف خذلنا "حافظ الأسد" وعمل فينا ما عمل في تل الزعتر، وكذلك اللبناني وتحالفاته مع العدو لكنسنا وتحجيمنا والقضاء علينا ومحاصرتنا وطردنا من لبنان بعد 80 يوماً من الصراع المميت.

إن أية سردية فلسطينية رسمية تسكت عما صنعته بنا الأنظمة العربية ستكون هذه السردية إحدى تجليات خذلان المرء لنفسه. على أبنائنا أن يتعلموا في المدارس أن يوسف الفلسطيني خذله إخوته قبل أن يبيعه زعر ليصبح رقيقا ومسجونا.

وعلى السردية الفلسطينية أن تقول وبصريح العبارة كيف خذل المثقف العربي القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني وناصر الاحتلال، حتى قبل إنشاء الكيان الغاصب، وأن يكف النظام التعليمي الفلسطيني عن تبجيل هؤلاء كتابا ومثقفين كباراً، بل على النظام التعليمي أن يكشف عن المثقفين المناصرين لقضيتنا، ويدرس نصوصهم وكتبهم، فكل من خذلنا لا ينبغي لنا أن نقرأ أدبه مهما كان، فهم منافقون، وما قدّموه من أدب لا يساوي شيئا أمام ما جنت علينا مواقفهم السياسية في وقوفهم مع المحتلين والقتلة. يجب علينا أن نكون "متطرفين" و"متشددين" أكثر من أي وقت مضى، وإلا فإن الحقيقة ستُعرف، والأجيال ستكشف زيفنا، ولن يرحمنا أحد.

أظن أنه قد حان الوقت لنقول ما يجب أن نقوله، وعلى تلك الأنظمة أن تعترف بخطاياها، وتكفر عن آثامها، وتكف أيديها عن القضية والتدخل فيها،

وليكن "النظام الثقافي الفلسطيني" قويا ليعري ويجلي هذه الحقائق، ومن أراد أن يغضب، فليغضب، وعلى النظام السياسي الفلسطيني أن يتحرر من التبعية والاستجداء. فتلك الأنظمة لا تدفع الأموال للفلسطيني إلا لأنها أضاعت أرضه وشردته، فعليهم أن يتحملوا ذلك غصبا عنهم وحقا لازما في أعناقهم، فهم السبب فيما نحن فيه الآن، أعيدوا لنا الأرض وأخرجوا المحتل منها كما أدخلتموه، بل خذوه إلى دياركم وأعطوه عواصمكم ودللوه كما يدلل أحدكم ابنه وابنته، وأطعموه، وأدخلوه غرف الاستقبال، وزوجوه وتزوجوا من بناته الشقر، وحسنوا من نسلكم وأنسابكم معه، أما فلسطين وخيراتها وأبناؤها وبناتها فمقدسون كالقدس بل أطهر.

إن أردنا أن تكون المعركة معركة تاريخ ورواية وبناء سردية قوية، فمن الحكمة ألا يقف الفلسطيني في منتصف الطريق ضعيفا خائبا منتظرا، فقد حان الوقت لا ليكتب الكتّاب رواياتهم وأشعارهم ومقالاتهم فقط، بل حان الوقت للتخلص من "النزعة الفردية" والشخصية والمصلحة الذاتية لنضع نقاطنا نحن على حروفنا وتكون الخطوة الأولى للانطلاق نحو التحرر، بالخلاص من وهم "القومية" التي أضاعتنا، ومن وَهْم العرب الذين يدعموننا، فما حكّ جلدك مثل ظفرك، فلتتولّ- أيها الفلسطينيّ- جميع أمرك، ولتذهب الدبلوماسية والدبلوماسيون إلى قعر جهنم، فهي بهم أولى، وهم بها أحرى وأليق.

صورتان نقيضتان

1- من مفكرتي الشخصية

ما زال ذلك الرد يتردد صداه في الذاكرة عندما كان أتباع حماس يردون على دخول منظمة التحرير الفلسطينية في عملية السلام والحديث عن معادلة القوى، وأن الشروط الدولية ليست في صالح المقاومة المسلحة، كانوا يقولون وقتذاك: "من لا يستطيع الزواج/ التحرير لا يحق له الزنا/ التفاوض"، ويشكك هؤلاء بمبدأ "خذ وطالب" الواقعي الذي انتهجته المنظمة أملا في تحقيق بعض الخلاص من الاحتلال، ولو على شبر واحد من أرض فلسطين.

دخلت حماس في هذا الطور من مبدأ "خذ وطالب"، وصارت تطالب بدولة في مناطق الضفة والقدس الشرقية وغزة (مناطق 67)، ولكن دون وهم التنازل عن فلسطين التاريخية، وما يعنيه ذلك الخيال الرومانسي السياسي الجميل من تدمير دولة إسرائيل وعودة اللاجئين إلى ديارهم التي هجروا منها.

هل بإمكان هؤلاء الأتباع الذين ما زالوا على قيد الحركة وصفوفها التنظيمية العودة إلى ذلك السجال السياسي الصبياني في منتصف التسعينيّات؛ ليكتشفوا أنهم كانوا يتمتعون بخيال روائي فنتازي، على الأقل، وهم يعقدون التشبيه بين الزواج والتحرير، وبين التفاوض والزنا الحرام شرعا بكل تأكيد، لعلهم يدركون أن الحركة اليوم تشرّع وتشرعن عملية الزنا السياسي التي أضحت، بقدرة قادر، فعلا وطنيا مباحا شرعا، بل حلالا شهياً؟ يحدث هذا بين كل حربين، ويكاد يكون دون وسيط عربي أو أجنبي.

لقد "التبس الأمر على اللقلق" كما التبس الأمر على أتباع حماس الممتلئين عنفوانا جميلا وخيالا ثوريا حادا وهم يشاهدون حركتهم الموصوفة بالإسلامية وبنهجها الموصوف بالمقاومة المسلحة أنها أصبحت حركة (تزني) سياسيا، وهي تزين الفعل في نفوس الأتباع هؤلاء، ليروا أنهم يحسنون

صنعا وهم يشرّعون الدخول إلى نفق مظلم كان غيرهم قد دخل فيه وتاهوا ولم يستطيعوا الرجوع، ولم يكونوا سعداء ليتعظوا بغيرهم. يكفي أن الحروب على غزة لها هذا الناقوس من الخطر الذي يصيح بأعلى ما فيه من قوة فيزيائية أن التفاوض عملية "زنا" سياسي فعلاً، وما أنتجته من اتفاقيات في طول البلاد العربية وعرضها كان "ابنا غير شرعيّ"، ويحق للمقاومة قتله بلا رحمة.

عليهم إذن أن يجربوا ويدخلوا معمعة معركة هي خاسرة في المطلق. خاسرة في الفعل الثوري، وخاسرة على طاولة المفاوضات، وعلينا أن نتذكر المثل الإنجليزي القائل "من يدفع أجر العازف يختر اللحن"، وها هي حماس تعزف اللحن المناسب استرضاء لمن يدفع لها فواتير النضال الوهمي في عملية زنا سياسي لن يجلب إلا المزيد من العهر في أروقة السياسة في المستقبل. علينا أن ننتظر فقط لنرى ما هو أكثر فحشا على موائد السياسة وشهوة الحكم المجنونة التي تجعل من صاحب الكرسيّ والهراوة عبداً، وليس سيداً.

لم يقف الأمر عند هذه "الزنية" الفاحشة، بل شهدنا جميعاً وبامتعاض مقرف ما حدث مؤخرا في الحرب على حركة الجهاد الإسلامي (2022)، حيث تجمدت حماس، وتصنّمت، وفتحت رجليها ليبول "لبيد" في سوأة الحركة، وحيّدها في الجولة الأخيرة، و"أسلمت" من يشاطرونها الجغرافيا والمصير إلى أعدائهم، وقادتها يعلمون أن المسلم أخو المسلم، لا يخذله ولا يسلمه، لقد كان جرماً أبشع من ممارسة الزنا تحت ستار الكعبة، وكل الدماء التي نزفت تتحمل حماس مسؤوليتها بشكل مباشر في تلك الحرب.

يبدو أن هذه "الحركة اللعوب" أتقنت فن الدعارة السياسية، فأتت بجرمها المشهود العلنيّ بإعادة علاقتها مع نظام بشار الأسد المجرم الذي سبق الطغاة في إجرامه، فاستباح كل المحرمات، وأتى بما لا يخطر على بال شيطان رجيم، ها هي الآن حماس، تفتح فخذيها لطغاة النظام العلوي الطائفي في سوريا ليتلاعبوا بها، ويجروها إلى حيث يريدون إلى مواخير السياسة وعفنها.

لقد حفرت حماس قبرها في دهاليز العهر السياسي عندما انحازت إلى روسيا وإيران والنظام المجرم في سوريا، وقبل ذلك عندما تواطأت مع أهداف الاحتلال، وحققت له أمانيه، وساعدته على النيل من حركة الجهاد الإسلامي ومجاهديه، ودخل قادتها وإعلاميوها في جحر الضب ولم يخرجوا منه إلى الآن (حتى 7 أكتوبر 2023)، وقبل هذه وتلك، عندما هيأت أتباعها للتنازل عن فلسطين التاريخية، ولا يغرنكم أنهم يتشدقون بالكلام الفارغ، فقد تعلموا من سوريا وإيران اللتين لم تجدا منذ 1979 الزمان والمكان المناسبين للقضاء على "الكيان الغاصب" كما يصفه طغاتهم، وغدا "فيلق القدس"، و"الحرس الثوري" و"حزب الشيطان"، فيالق عهر سياسي لم تنتج إلا الدمار للأمة قاطبة في سوريا ولبنان وفلسطين وطهران.

لا يصح في حق الزاني إلا الجلد أو الرجم، والنبذ على رؤوس الأشهاد، ليكون عبرة للمعتبر، فلا شيء أشد من "الزنا السياسي" أثرا وخطرا، ولعمر الله إنه لأشد من الزنا الفردي، فضياع أمة لا يقارن بسقوط امرأة ورجل في حمأة الرذيلة، ولن يكفّر الذنب إلا إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، فتنفضّ الحركة عن التفكير بالمفاوضات، وتتبرأ من جميع الأنظمة العربية، وتعود إلى غسل الاحتلال وكنسه بأنهار الدم والشرف والمجد. وإنني لأرى أن حركة مثل هذه مؤسسة على أيديولوجيا قوية، قادرة على صناعة الأبطال، ستحقق ما يفوق التوقعات إن أرادت ذلك وتحرّرت من الخضوع للواقع المذّل.

2- الشاعر أبو فراس الحمداني شهيدٌ شاهدٌ على أرض غزة

إمارة حلب الإسلامية في عهد الأسرة الحمدانية، كانت تضطلع بدور جهادي عظيم في ظل محيط إسلامي محبط، كانت تعاني منه الأمة وقتها من تفكك وصراعات على السلطة وتحالفات مع العدو غير نظيفة، مع أنها لم تكن تمتلك جيشا قويا جرّارا، لكنها امتازت بأنها ذات شكيمة وعزيمة وقوة لم تستسلم للبيزنطيين الذين احتلوا حلب، وظلوا يقاومون بشراسة ما دفع الروم للانتقام من الحمدانيين بحرق المدينة وتدميرها بالكامل.

هذه الإمارة التي تربع على عرشها سيف الدولة الحمداني، وواكب أعمالها الحربية الشاعر العظيم "المتنبي"، صارعت (الروم) منفردة، وقدمت الشهداء، والأسرى، وأنتجت هذه المناوشات وتلك المعمعات الحربية ما عرف في الأدب العربي بـ "الروميات"، وكان من بينها عدا روميات أبي فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة، روميات أحمد بن الحسين أبي الطيّب المتنبي.

كان أبو فراس شاعرا وأميرا مجاهدا، لم تكن صلته بالأمير سيف الدولة لتحط همته عن القتال... قاتل مقبلا غير مدبر، ووقع في الأسر، وناجى أمه بقصائد كثيرة، ولعل أمتع قصائده الرومية، وهي طويلة وحافلة، وتزخر بالمعاني الإنسانية قصيدته المشهورة "أراك عصي الدمع" التي غنتها أم كلثوم بألحان رياض السنباطي، وقد عتب فيها على ابن عمه سيف الدولة إذ لم يسرع بفدائه من بين مخالب الأعداء البيزنطيين.

هذا الشاعر الفارس النبيل العظيم الشجاع الأسير والبطل والشهيد فيما بعد، كان مثالا كاملا في الرجولة والبطولة، قضى نحبه شهيدا وقد جرح في بعض المعارك، وكان شابا، ربما لم يتجاوز الثلاثين عاما إلا قليلا، لكن البطولة لا تقاس بالسنوات، والرجولة لا تكون إلا بالمواقف، إنه فعلا قد صدق وقد وصف نفسه بزين الشباب في أبياته لابنته وهو على فراش الموت جريحا، راثيا نفسه، ومعزيا سلفاً حبيبة قلبه:

أَبُنَيَّـــــــــتي لا تَحـــــــــزَني ... كُــــلُّ الأَنــــــامِ إِلى ذَهـــــابِ
أَبُنَيَّـــــتي صَـــــبراً جَميــــــــ ... ــــلاً لِلجَليــلِ مِــنَ المُصـــابِ
نـــــوحي عَــــلَيَّ بِحَســــرَةٍ ... مِــن خَلـفِ سِـترِكِ وَالحِجـابِ
قـــــــولي إِذا نــــــــادَيتِني ... وَعَيَيـــتِ عَـــن رَدِّ الجَـــوابِ
زَيــــنُ الشَـــبابِ أَبـــو فِـــرا ... سٍ لَـــم يُمَتَّـــع بِالشَـــبابِ

نعم إنه يدرك الآن أنه لم يتمتع بالشباب، وقد أعطي الجاه والمال والصحة، ولكنه أنفق كل ذلك ليكون شهيدا يتمتع بأجره عند ربه، ونعم المآل يا أبا فراس.

إمارة الحمدانيين في حلب والموصل الإسلامية، وبطلها أبو فراس الحمداني وقائدها سيف الدولة علامة بارزة في تاريخ عربي أضحت أحداثه المعاصرة مخزية إلا من بقعة ضوء بازغة من تلقاء غزة، وكأن غزة هي تلك الإمارة الحمدانية في العصر الحديث، وأبطالها المقاومون كلهم أبو فراس؛ أمراء شهداء، صاغوا قصائدهم ملاحم بطولية على أرض غزة، لم يتمتعوا بالشباب، وآثروا المجد على النعيم الزائف.

فما أشبه اليوم بالبارحة، وكأننا دائما على موعد مع أحداث التاريخ ليعيد نفسه. إنه يعيده ببلاغة أشد وضوحاً مما يعتقد الأغبياء أنّ غزة ستموت، أو أنّ البحر سيبتلعها، بل إنها هي من سيبتلع التنين الخائر الذي دخل في مرحلة انقراضه الأخيرة.

المساحة الثالثة: انطفاء عينِ الكاميرا

بمناسبة الحديث عن حريّة الصحافة والصحافيين

قوة الإشارة القادمة من هناك: اليوم (0000/5/3)

تغص الأجندة العالمية بالأيام التي تمجد الإنسان وأعماله، ولا يكاد يوم يمر تقريبا إلا ويكون فيه مناسبة عالمية؛ من اليوم العالمي للمحافظة على البيئة، إلى يوم الطفل، إلى يوم المرأة، إلى يوم مكافحة التمييز العنصري... حتى السعادة لها يوم، والربيع والشعر كذلك، وأشياء أخر، ومهما خطر على بالك ستجد له يوما في المفكرة العالمية، وكل تلك الأيام انتهكها الاحتلال معنا نحن الشعب الرازح تحت الاحتلال منذ 1948، انتهاكا صارخاً، جهارا نهاراً دون أن يحاسب أو يُعاتب أو يوبّخ. فالكيان دلوعة العالم فوق كل قانون واعتبار.

ويوم الثالث من أيار، هو اليوم العالمي لحرية الصحافة، ولكن، يبدو أنه لا حرية صحافة في العالم كله، فالصحافة والإعلام غير نزيهين ومسيطر عليهما بالمال والمنصب وقوة الإشارة القادمة من هناك، وخاصة عندما يتجرأ صحفي ويناصر الحق الفلسطيني، فإنه سيطرد من عمله، فورا، كأنّ تلك المُثل العالمية لم تكن موجودة، ومن يتتبع الأخبار يجد لذلك أمثلة كثيرة، ليس بفعل الحرب على غزة (أكتوبر 2023) فقط، بل دائما وأبداً.

فهل يطيب لأحد الحديث عن حرية الصحافة والإعلام وهو يرى أنهما لا يراعيان الأخلاق المهنية الصحفية والإعلامية في التغطيات الإعلامية؛ فتهمش قضايا ويعلى من شأن أخرى، تبعا لقوة الإشارة القادمة من هناك أيضا.

وكيف يمكن الحديث عن هذا المعنى الإنشائي الخيالي ونحن نرى أنْ لا صحافة تفتح صفحاتها للكتّاب الجدد إلا بصفحات "بريد القراء" وإذا توفرت مساحة مناسبة شريطة ألا تؤثر على الإعلانات التجارية والأخبار الفنية والرياضية وسمعة البلد السياسي والأمن القومي، لأن ذلك سيتعارض بالتأكيد مع قوة الإشارة القادمة من هناك كذلك.

وهل بالإمكان أن يكون هناك صحافة حرة ونحن نشاهد أنه لا صحافة ولا إعلام يعرضان الخبر غير مشوه أو مدبلج أو ملعوب فيه بتقنيات عالية جدا، تبعا لقوة الإشارة القادمة من هناك للمرة الرابعة على التوالي.

وكيف يمكن لطلبة المدارس والحقوق والصحفيين الطلاب والمقبلين على الحياة الصحفية أن يصدقوا أن هناك حرية صحافة وإعلام والسجون ملأى بالصحفيين والمحاكم ما زلت تفرض الأحكام والغرامات وتصادر الحريات وتزج بالسجون والمنافي كل المخالفين من الصحافيين في العالم أجمع إما بتهمة الإرهاب وإما بتهمة معاداة السامية؟ وكلما أرادوا أن يتسامحوا مع الفكرة الخيالية هذه تذكروا الصحفي العراقي منتظر الزيدي صاحب القضية المشهورة. الزيدي خالف قوة الإشارة القادمة من هنا، ومن هنالك هو الآخر.

وكيف لجيل جديد من الصحفيين أن يستسلم لفكرة الإخلاص للموضوعية والحرية، وهو لا يرى حرية صحافة، ولا حرية إعلام، وكلما حاول استعادة الفكرة من دوائر الفلك سطعت شواهد الشهداء تصرخ بأوجاع ساكنيها من الصحفيين، أمثال: سمير قصير، وأطوار بهجت، وقبلهما غسان كنفاني وناجي العلي، وحنا مقبل صاحب مقولة "بالدم نكتب لفلسطين"، والقائمة معروفة ومعدة جيدا من مُصْدري قوة الإشارة القادمة من هناك.

وهل ستظل هناك حرية للصحافة والإعلام والناس أنفسهم يصنعون التزوير ويسوقون للتزوير ويصفقون للعبث، ويقرؤون يوميا لمئات من اللصوص المتكاثرين في هوامش الصحافة ومتنها تكاثر البعوض يسرقون جهود المهمشين وصغار الكتاب والصحفيين بحجج واهية، أقلها سقوطا ما جاء من لدن الإشارة القادمة من هناك، لتتحكم بكل ما هو هنا وهناك.

كيف ستتجرأ الأمم المتحدة على المناداة بيوم عالمي لحرية الصحافة والإعلام وكل البلاد مستباحة يلتهمها الغول حتى وهي في بطن الغول، فقد

خبأ الغول الكبير مجموعة غيلان داخله تآمرت على الكون كله ليكون كوناً غير حر وغير نزيه؛ إذ تفرض الإشارة قوتها من هناك.

فهل بقي من قوة لغة ومنطق لننادي بحرية الصحافة، علينا أولا أن نوقف سيل الإشارة القادمة من هناك، ليتحرر الكل هنا وهناك من سيطرة التدجين والتخريب، ساعتها، لسنا بحاجة لننادي باليوم العالمي لحرية الصحافة والعمل الصحفي.

وكل عام ويوم والصحافة والصحفيون بخير عميم وحرية حرّة متحررة من كل المناسبات التي تقيدها.

أين محمد عبد الله؟

الإعلامي محمد عبد الله، واحد من مذيعي الأخبار في قناة الغد الفضائية، لم يعد يظهر في نشرات الأخبار منذ مدة، كان يبدو على هذا الإعلامي التأثر الشديد حد القهر مما يحدث من تطورات في فلسطين، وخاصة استشهاد المقاومين في نابلس، وفي مخيم جنين، وما شهدته حوارة من حريق استيطاني (شباط، 2023). كان يحاور ضيوفه وهو في قمة الغضب، يتعثر صوته ويختنق وهو يغصّ بالكلام الحارق، ولم يتحلّ بالثبات الانفعالي.

هل بقي في القناة أم تم استبعاده؟ أم أنه في إجازة سنوية أو إجازة تأديبية طويلة؟ هل نُقل إلى برامج أخرى ترفيهية؟ لا أظن ذلك، فأنا أشاهد برامج القناة أكثر من 10 ساعات يوميّاً.

هل هناك مخالفة للعمل الصحفي إذا ما انفعل المذيع؟ أليس هو بشرا وذا مشاعر لا سيّما إذا كان يرى ويسمع ويعاين الظلم الواقع علينا نحن الفلسطينيين؟

هل كل ما أفكر فيه مجرّد هلوسات، لم تخطر على بال القائمين على "قناة الغد الفضائية"؟

كثيرون تأثروا وبكَوْا في أحداث عالمية، وأُشِيدَ بتأثرهم وأصبحوا (ترندات) على مواقع التواصل الاجتماعي. لماذا تأثُّر محمد عبد الله جريمة إن كان استبعاده نتيجة تأثره بأحداث التجبر الصهيوني في الضفة الغربية، وكان يرى صلف الاحتلال من جهة، ومن جهة استخذاء السلطة ومهانة رموزها في جرّهم كالأطفال إلى اجتماع العقبة واجتماع شرم الشيخ الساعيَيْن إلى خدمة الأمن الصهيوني أولا وأخيرا، ولا اعتبار لأمن الشعب الفلسطيني وحياة أفراده.

بالفعل لقد كان مقهورا غاضبا وهو يسأل أسئلته لضيوفه، هذه الأسئلة التي تبرز المفارقة العجيبة بين احتلال لا إنساني بكل معنى الكلمة، لم يترك طفلا

ولا شيخا ولا امرأة، وليس المقاومين فقط الذين يُقتلون كما يُقتل الفراش بالعشرات، وسلطة خانعة لا سلطة لها إلا على البلديات وجباية الضرائب.

كان يثيره بالفعل اختلال الموازين الدولية في التعامل الدولي مع أوكرانيا بوصفها بلدا معتدىً عليها من روسيا، فيمدها الغرب بالسلاح ويفرض العقوبات على روسيا، لكنه لا يفعل الشيء نفسه مع الفلسطينيين الذين يقتلون كل يوم، وكل قتلاهم من المدنيين، وتهدم بيوتهم ومدارسهم، وتزال قرى وتجمعات بأكملها عن الوجود، ولم يترك الكيانُ الغاصب- ربيبةُ الاستعمار الحديث- شيئا من القانون الدولي الإنساني إلا انتهكه في أصغر الأمور وأعظمها، حتى حولوا فلسطين إلى سجن داخله سجون، في ظل تواطؤ دولي عجيب، وصمت عربي مخزٍ، وخضوع فلسطيني رسمي مخجل، فلا أحد يحاسب الاحتلال، ولا يعترض على أفعاله الإجرامية التي تزداد يوميا وحشية وتنكيلاً.

ويبقى السؤال قائما كنصل حادّ يحزّ العصب: لماذا هو الإعلام أيضاً منافق إلى هذا الحد المريض؟ تظهر "الغد الفضائية" أنها معنا، وتتبنى قضايانا، لكن على ما يبدو أنه لا فرق بينها وبين غيرها من القنوات المنحازة للاحتلال ولأمريكا ولمنظومة الهيمنة العالمية، فما القناة إلا سن في دولاب هذه الهيمنة، وذراع من أذرعتها، وأداة من أدواتها.

إن منسوب النفاق في هذه القناة أعلى من غيرها، كلامها معنا وسيوفها علينا، وعند حد "الخط الأحمر" ينقلب الكل ليكون في خدمة "الصهيونية العالمية" والاستعمار، لا أحد يشذ عن ذلك إلا النادر الوحيد. لعلّ هذا هو المقصود بالفعل، والعالم يحتفل نفاقاً باليوم العالمي لحرية الصحافة. فهل بالفعل صحافتنا حرة؟

كثير من الإعلاميين أصابهم ما أصابهم من طرد نتيجة مواقفهم من الشعب الفلسطيني وقضاياه. إعلاميون فلسطينيون، وعرب- وأظن أن محمد عبد الله

مصريّ الجنسية- وإعلاميون غربيون. وكأن هناك تواطؤاً إعلاميا قذرا تجاه القضية الفلسطينية، إذ تريد هذه "الآلة" ترسيخ واقع وجود الكيان الغاصب في الوعي الجماهيري لتزييفه، فلا مشكلة مع هذا الكيان، لو كان منسوب العنف أقل وطأة مما هو عليه.

وأخيرا أين هذا الإعلامي الإنسان محمد عبد الله؟ أرجو أن يكون بخير وبعافية مشاعرية صافية ومتألقة ومشعة في مجابهة الظلم ولو بالاعتراض المحتدم بالكلام والدمعة المحبوسة في العين كما كان يفعل، آمل أن يكون في إجازته السنوية، ليعود صوته الممتد في الفضاء يعمر آفاقنا التي غمرها الحزن واليأس، وقلة الحيلة، فاستبقوا لنا مشاعرنا على الأقل أيها السادة.

عندما يصنع "القتيل" سرديته الخاصة: (2022/5/11)

استشهاد شيرين أبو عاقلة، رحمها الله، مراسلة قناة الجزيرة القطرية، كان أبعد من استشهاد، موت، قتل، إنهاء حياة، التوقف عن العمل، سقوط الكاميرا، انعدام البث. انفجرت كل هذه الدلالات ليصبح الاستشهاد شهادة ساردة ببلاغة معجزة، والموت حياة لأكثر من هذه الحياة، والقتل ارتفاع ورمزية، وإنهاء الحياة صار يحمل حياة مؤبدة في القلب والوعي والذاكرة، كما أنه لم يتوقف عمل شيرين بمقتلها، بل ظلت تنقل الحدث، لقد نقلته وهي مسجاة تنظر ببصيرتها من علو نعشها إلى الجنود المتصاغرين المدججين بالحقد والموت، يحاولون عبثا إطفاء عين الكاميرا لتتوقف عن العمل، فلم يسقط النعش، ولم تكفّ الكاميرا عن فعلها، وبقيت معنا على الهواء مباشرة مراسلة الجزيرة من جنين ونابلس ورام والقدس حتى وهي تقوم حيّة في قبرها شاهدة شهيدة.

حالة شيرين أبو عاقلة من أكثر الحالات التي تفلتت من برودة الموت إلى ألق الحياة، حتى وهي توضع في سياق الاختلاف العقائدي، لم تكن إلا لتعلو على هذا الجدل التافه في توقيته، والتافه في عرضه، فالله لجميع مخلوقاته، والخلق كلهم عيال الله أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، وشيرين من عيال الله وكانت من أنفع الخلق لعيال الخالق. لم يكن أحد يعرف أنها "مختلفة" وهي مرابطة في المسجد الأقصى وفي ساحاته، وهي تدافع عن غزة وترفع شارة النصر وتقول: "يا رب احم غزة"، شيرين منا وفينا نحن الذين نحب فلسطين وتاريخ فلسطين، وشهداء فلسطين، وعظماء فلسطين، وزعماء فلسطين الحقيقيين، وشهداء فلسطين، كل الشهداء، ولذلك فإننا أحببنا شيرين وسنظل نحبها، لأنها أشرف من كل زعمائنا، وأنقى من كل مثقفيها المدجنين، إنها لا تقل شرفا عن غسان كنفاني وباسل الأعرج وأبو علي مصطفى ودلال المغربي.

شيرين أبو عاقلة أنهضت المتنبي من مرقده ليقول فيها: "ولو أن النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال"، نعم لقد فضلت شيرين على كثير من الذكور الساعين إلى السلامة والانزواء ليتمتعوا كما تأكل الأنعام فالنار مثوى لهم، وكان لشيرين الضوء والمجد والخلود.

كما أن شيرين أعادت أمير الشعراء ليقول في دمها المسفوك: "جرى في أرضها فيه حياة كمنهلّ السماء وفيه رزقُ"، وأعادت قول إبراهيم طوقان في الشهيد: "لا تسل عن سلامته روحه بين راحته".

لقد نجح استشهاد شيرين أبو عاقلة من أن يبعث الشعر القديم، كأنه لم يقله قائلوه إلا فيها وحدها، فكانت عالية في حياتها وعالية في مماتها المجازي الذي أكبر من الحياة ذاتها فصار كما ينبغي له أن يصير: "علو في الحياة وفي الممات لعمرك تلك إحدى المعجزات".

على الطرف المقابل، والنقيض لسردية شيرين أبو عاقلة، كان ثمة سردية هشة ميتة، تحاول أن تكون في جنين وفي القدس، لكنها لم تنجح، سردية تغتال الحياة والفرح، وتتمرد على كل ما هو قانوني لتصنع سرديتها البشعة المفضوحة في كل مرة بعين وقلب وفكر شرين أبو عاقلة.

تنجح شيرين أبو عاقلة بهذا "الموت" أن تردّ المحتل إلى مربعه الأول الذي لم يغادره منذ النكبة الأولى الكبرى عام 1948، تعيد له التذكير بحقيقته؛ صغيرا، محاصرا، وغبيّا، وتافهاً جداً، ويخبط خبط عشواء، ليتردى ويعتدي على النعش ليحاول إسقاطه، إنه تصرف- عدا أنه صبياني- فهو غير أخلاقي، لم تحترم تلك الكائنات العبثية جلال الموت الراقد في النعش، ليتحول النعش إلى فصل من فصول سردية شيرين المناضلة بنفسها، إذ يأبى الله إلا أن يتم نور شيرين ومقاومتها وسرديتها من لحظة أن عانقت ثرى فلسطين في جنين وحتى مثواها الأخير في روضتها الصغيرة في المقبرة التي ترقد فيها بسلام وأمان واطمئنان. وهكذا بكل هذه البلاغة البعيدة عن الإنشاء الفارغ من

المعنى تصنع شيرين أبو عاقلة سرديتها الخاصة لتصفع بها وجوه المحتلين ووجوه العالم الحرّ الذي يدعي احترام القيم الإنسانية، فسردية شيرين هي الفاضحة لكل ما هو مزيّف في العالم أجمع.

رحم الله شيرين أبو عاقلة التي لن تموت، وإنما رحلت إلى حياة أخرى، لكنها ستظل معنا، لتقول كان معكم من فلسطين شيرين أبو عاقلة، بل لتظل تقول: أنا شيرين أبو عاقلة، ها أنا معكم من القدس، وسأبقى في القدس، وبالفعل لقد بقيت في القدس بسرديتها المشرفة والعالية التي تجعل الاحتلال مجرد هامش غريب وبسيط، سيزول يوما طال الزمان أم قصر. "ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً".

في أربعينية شيرين أبو عاقلة:

كيف لامرأة أن تتمرد على كل هذا الموت لتحيا من جديد كل يومٍ كأنها لم تمت، بل إنها لم تمت، كل يوم نراها صباحا ومساء تشغل تفاصيل حياتنا، تفاصيل معبأة بالحياة، حياة العزة والشموخ، والتمرد على تلك العنجهية التي قوبلت بها هذه المرأة الوردة.

كيف لامرأة أن تظل ضاحكة وباسمة لا تعرف العبوس والخوف، تشعل في أنفسنا وأفكارنا وحواسنا الجمال العصي على برودة الموت وسكون القبور وعتمة المكان الوحيد، أينما توجهنا وجدنا بسمتها الخفيفة الهادئة تعيد لنا المشاهد كلها كأنها لم تغادرنا. بل إنها حتما لم تغادرنا، إنها هذه هي المرأة الأيقونة.

كيف لامرأة أن تصبح لغة الحقيقة الساهرة، والعين الفاضحة لعدو لا يرحم، لغة لا استعارة فيها ولا مجاز ولا تورية إلا أنها هي البلاغة التي لا بلاغة بعدها، إنها متن الكتاب وفكرته وسر سر معناه الذي لا ينتهي. امرأة من لغة تقاوم بؤس اللغة المعلبة في قصائد الشعر الخائبة التي تظل تطاول نجمها

فتقصر عن بلاغتها، إنها المرأة الفكرة التي لا تموت، وهل يمكن للأفكار أن تموت؟

كيف لامرأة أن تبادلنا التحايا والشغف الفلسطيني الذي يزداد ألقا، أي موت هذا الذي وهبها الحياة حياة بعد الحياة؟

إنها شيرين، الشاهدة الشهيدة الشامة، اليمامة اليافعة اليعربية، الربيع الرائعة الرحيمة، اليراع اليانعة الياسمينة، النور النوار النجم المنير، فكيف لكل هذه المعاني أن يغيبها الموت؟

رحم الله شيرين أبو عاقلة، ولترقد بسلام، تلك العين التي لم تنطفئ وستظل بلاغتها أوضح من رداءة الموت الذي لن يزحزحها عن عرش القلوب، قلوب كل الفلسطينيات والفلسطينيين اللواتي والذين هن وهم على العهد عهد الشهداء الأبرار، فلا حياةَ أكمل من هذه الحياة التي غدت فيها المناضلة شيرين أبو عاقلة أيقونة للنضال وقمرا لا يغيب، لتظل قاهرة لعتمة الظروف القاهرة.

من بعض الحوادث

هو خبر أنقله كما ورد في صحيفة الأخبار الأسبوعية الصادرة في فلسطين المحتلة (1948)، ونشر في عددها الصادر يوم الجمعة 25-4-2014، فما هو التعليق المناسب على حادثة كهذه تهز الضمير العالمي، وتستدعي الحديث حول الكثير الكثيرِ من الأفكار والقناعات؟

ومن هو المسؤول عما حدث لتلك الصحفية التي يأمر فيها نائب رئيس البرلمان الروسي- آنذاك- (فلاديمير جيرينوفسكي 1946- 2022) اثنين من مرافقيه باغتصابها وبعنف خلال مؤتمر صحفي؟ أين ذهبت حرية التعبير التي استهلكت كثيرا من دماء الكتّاب وأهدرت ما لا يحصى من ورق وحبر وكتب؟ لماذا لم تعط هذه الصحفية حصانتها لتسأل (فخامته) ما شاءت؟ أين قداسة مهنة الصحافة (السلطة الرابعة) لماذا لم تنتصر لكرامتها المهدورة؟ أين الديمقراطية؟ أين حقوق الإنسان؟ أين العالم الحر؟ وأسئلة كثيرة مصدرة بكل أدوات الاستفهام التي تحوزها اللغة ولن تجد لها إجابات، فقط لأن ما حدثَ حدث في روسيا دولة حارسة القيم العالمية، وعضو دائم في هيئة الأمم المتحدة، ولكن بلد المافيا أيضا.

كل ذلك يحدث في بلد يحكمها دكتاتوريون ومجرمون، لم نسمع أحد تباكى على تلك الصحفية الضحية، على الرغم من أن من قام بها هو سياسي كبير في روسيا، ويأمر بهذا الفعل علانية أمام عين الكاميرا التي لم تكن مطفأة لينفذ الأمر اثنان من أعوانه، ويشدد على أن يكون "بعنف"؟ كيف يصمت الإعلام هذا الصمت المطبق الرهيب، لعل العالم ما زال يخشى ويرتعب من مجازر إيفان الرهيب.

تخيلوا لو أن ما حدثَ حدث في سوريا، أو فلسطين؛ في غزة أو رام الله، أو في العراق، أو حدث في بلد مسلم؛ في باكستان أو أفغانستان، سيكون المتهم الأول الإرهابيين والمسلمين، ومن ثم ستجد مقالات الهجاء القارس للإسلام حضارة وثقافة ومسلمين، وسيصبح النبي محمد (ﷺ) هو المسؤول الأول عن

هذا الجرم، ولنادى آخرون بمحاكمة القرآن الكريم علانية دون رادع من ضمير أو دين أو إنسانية.

سيصبح الحدث مادة إعلامية في الفيس بوك وتوتير وعلى الفضائيات والصحف، وستطول قائمة المستضافين للحديث عن بشاعة الجرم الذي تمّ، ليحمل المثقفون وأنصاف المثقفين جرم ما حدث لثقافة تضيق ذرعا بالآخر، ولتكون مرتعا وسخا وخما قذرا لمؤسسات حقوقية كثيرة لتناضل من أجل إنسانية تلك الصحفية التي نيل منها من سياسي أو ربما من رجل عادي أو زعيم حزب أو فرد من فصيل مسلح هنا وهناك.

لقد بتّ على قناعة تامة أن السور الواطئ سيقفز عنه كل من هبّ ودبّ، وكل هدف ضعيف سيكون مرمى النبال صباحا ومساء، ولذلك يحق لي أن أقول: من رضي بالضعف والهوان فليزدد ذلا على ذل، ولن يرحم الله عبدا لم يرحم نفسه، فنحن من رضينا بالذل، فلنعش في كنفه، فلا يحق لنا العويل.

هي حادثة بسيطة وتتكرر ويتكرر غيرها شبيها بها ومغايرا، ولن ينتهي العجب في كل مرة، وسيتناول فيه الإعلام مثل هذه الحوادث، كل على طريقته وخدمة لأهداف من يقدم وجبات الطعام الفاخر في المطاعم والفنادق، ولكن عتبي على من بقي يفهم في هذا العالم، يبدو أن العدد في تناقص مستمر، وفي تراجع مقيت.

قرآنهم للموتى فقط
السبت: 2012/6/16

سبحان مغيّر الأحوال، ولا ينسى من فضله أحدا، سبحان من بدّل عري الفضائيات الأمبيسية إلى قرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار، لعلّ الميت يرضى، سبحان من جعل الإعلاميين يذكرون الله بكرة وأصيلا على أنغام الجنائز التي ذهلوا من هول أخبارها، لتقول إن فلانا مات، فالتحق بربه، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

هذا ما حدث؛ بدّلت قنوات الـ (M.B.C) برامجها المعتادة من أغان ورقص وموسيقى ماجنة، ومسلسلات ودراما مضللة، وبرامج وإحداثيات إخبارية مملة، ليحل محلها قرآن يتلى على أرواح الموتى، يختارون أجمل التلاوات القرآنية لعلها تريح تلك الأرواح الشريرة التي يسكنها الجنون والمجون.

هكذا انقطع البث، وتبدل فجأة، فعرفنا نحن المشاهدين البسطاء أن الحادث جلل بالتأكيد، ولكن لا تتوقعوا أنه موت عالم أو شاعر أو مفكر، بل صرنا نعرف بالتجربة أن الميت هو أحد القابعين في غرف صنع القرار أو أحد المتلبسين بأطراف العرش السامي، وهكذا لنكتشف الحقيقة أن هذا القرآن الذي أخذ بالانتشار في أروقة أثير الـ (M.B.C) ويزاحم ألحانا ومطربين، هو لترتاح روح ذلك الميت الذي وافته المنية، وهو بالتأكيد يخدم وطنه عبر مكوثه فوق رؤوس المساكين المغلوب على أمرهم كالمطرقة لمدة تزيد عن 40 سنة عجافا، يستعبدهم، ويتعبّدون له، ويستخدمهم ليكونوا له أتباعاً يضلهم في كل طرفة عين.

فعلاً، إن هؤلاء يحتاجون للقرآن ليتلى في جنازاتهم عسى الله أن يخفف عنهم فظائع ارتكبوها في حق أنفسهم وأمتهم، ومهما قدموا من جميل العطايا والهبات الفردية هنا وهناك، فإنها لا تساوي مثقال ذرة من تقوى أمام الجرائم الكبرى التي أسدوها وسددوها لقلب الأمة فأماتوه، متحالفين مع

الأعداء علينا، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً غير ما وضعوه من قوانين الهوى التي تجعلهم "أصناماً مقدّسة" فوق البشر.

يا سبحان الله، لقد أعاد التاريخ نفسه، على الرغم من أنني لا أومن بالحتمية التاريخية، ولا بدورة التاريخ والتفافه على نفسه، إلا أنني مضطر لأقتنع مؤقتا أن بعض أحداثه متشابهة؛ ففي مكة قديما كانت قريش وسادتها يتبجحون بأنهم قائمون على خدمة الحجاج يطعمونهم ويسقونهم، فجاء القرآن مخبرهم أن هذا لا يساوي في ميزان الحق شيئا "أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين، الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون". إنهم ليسوا من الفائزين، فكيف يفوزون وهم أحفاد أبي رغال وأبي لهبٍ وأبي جهل.

هل سيفيد كل العمل الصالح المبتور عن النظرية المتكاملة في عمارة الكون، ليستحق هؤلاء كل ذلك التمجيد، ويكفي للتدليل على ذلك أن قرآنهم الذي يتلونه هو للموتى فقط، وليس لعمارة الكون حسب ما أراد الله سبحانه، ولا للحث على القتال والجهاد في سبيل الله لنصرة المظلومين في وجه الاستكبار العالمي والصلف الأمريكي والتبجح الصهيوني، فسبحان الله العظيم حتى القرآن الكريم أفلحوا في تغيير مهمته ووظيفته، إنهم صناع الزيف في زمن يصبّ فيه الدم أنهاره في الأرض، وتملأ جثث القتلى الساحات، وانطفأت كل عين باصرة، وعميت كل بصيرة، وتحجرت كل القلوب.

فافرحوا لحياتهم واتلوا القرآن لموتهم، ولتعودوا بعد فترة لتتابعوا قنوات الـ (M.B.C) بكل فنون اللهو والطرب، انتظارا لموت قادم يخطف أحدهم، أما موت عشرات آلاف الضحايا في غزة وتدمير بلد كامل لا يواجه في إعلامهم إلا بالمزيد من الدراما وفقرات اللياقة البدنية وفقرات إعداد الوجبات الباذخة التي تعبئ كروش الميتين في قصور العهر والظلام.

المساحة الرابعة: المستقبل المفتوح على القبر

بمناسبة الحديث عن يوم الطفولة العالمي

جوجل والطفولة أين أطفال غزة أيها العالم الحر؟

(2012/11/20)

زينت شركة جوجل صفحتها الرئيسية لهذا اليوم بصورة معبرة عن احتفالها بيوم الطفولة العالمي الذي يصادف يوم العشرين من شهر تشرين الثاني من كل عام، وهي عادة تنتهجها شركة جوجل في إحياء المناسبات العالمية وتحيي ذكرى المشاهير في الفن والأدب والرياضة وغيرها.

ومن حقنا أن نسأل- ليس شركة جوجل بطبيعة الحال- ولكن نسأل العالم الحر الذي يدعي حرصه على أطفال العالم وتنص الاتفاقيات الدولية بهذا الخصوص على حماية الأطفال وتجريم كل من يتعرض لهم، فأين أطفال غزة أيها المفكرون؟ أم أن أطفالنا لم يرتقوا في عرفكم لمرتبة الطفولة التي تتباكون على انتهاكها في بلاد ليست كبلادنا؟

تحل هذه المناسبة وزهور غزة تقطف يوميا، وتحرق أجسادهم بأفتك الأسلحة، والعالم الحر وضميره في غيبوبة، فلم يرتفع ولو صوتا خجولا واحداً يذكر بأطفال غزة ومآسي أطفال غزة؟

متى سنظل نصدق اتفاقياتهم وعهودهم ومواثيقهم؟ متى سنظل نكتب عن الفكر التقدمي ونمدح أبطاله الأشاوس؟ متى نأخذ زمام المبادرة ونحدد نحن أحداثنا المهمة وعهودنا ومواثيقنا؟ إلى متى سنظل نرزح تحت نير الوهم والوهن لنحتفل متى يحتفلون ونهلل متى يهللون ونصلي ونسجد متى وأين يصلون ويسجدون؟ يا لخراب الأرواح، ويا لعفن الأفكار، ويا لهذا الهذيان!

لا تنتظروا أحدا يا أطفال غزة، لا تنتظروا الأمم المتحدة، ولا تقرؤوا في أسفار حملتْها الحمير، ولهثت بها الكلاب المسعورة الضالة، فلن تكونوا إلا المتن الساطع بالفجر الآتي إن رفضتم هراءهم وضحكهم على ذقوننا.

لا تصدقوا إلا دماءكم، وأنين مواجعكم. لا تصدقوا إلا هدير الطائرات التي تغتال فرحكم وتمنعكم عن ملاعبكم ومدارسكم، ولا تصدقوا إلا الموت الذي يحملكم على أجنحته بعيدا عن أمهاتكم وآبائكم وإخوتكم، لا تصدقوا إلا سطرا مكتوبا على جبين الشهداء الذين سقطوا في ميادين العزة والشرف، ولتحيَ طفولتهم في أودية الرخاء المهووس، ولتتحولوا أنتم أيقونات خالدة في آيات المصاحف المرتلة.

هنيئا لكم شهادتكم واقفين زنابق يفوح منها عبق السنا والحب، ويكفيكم فخرا أنكم من أقلقتم منام قادة الأعداء، وجعلتم غدهم أسود، فالقادم أشد، إنهم يحاولون اغتيال مستقبلنا بقتلكم ولكن هيهات أن يموت الزيتون في بلاد الزيتون.

الطفولة الغائبة في عيدها
(2013/11/20)

احتفى موقع غوغل، كعادته هذا العام أيضاً باليوم العالمي للطفولة. كانت الأمم المتحدة قد أقرت يوما للاحتفال بالطفل عام 1954، فغدا يوما عالميا لتقدير موقع الطفل في الحياة الإنسانية، فالأطفال هم زينة الحياة وسرها وبهجتها، وهم المستقبل والغد الآتي، وانبثق عن ذلك فيما بعد الإعلان العالمي لحقوق الطفل عام 1959، واتفاقية حقوق الطفل عام 1989، وأنشئت للغرض نفسه منظمة اليونيسيف التي تعنى أساسا بالرعاية الصحية للأطفال.

فهل ستتذكر الأمم المتحدة والعالم وشركة غوغل ملايين الأطفال على امتداد البقعة الجغرافية ممن يعانون من ويلات الحروب والقتل اليومي والتشريد؟ وهل سيتذكر العالم ملايين الأطفال ممن لم يعيشوا طفولتهم نتيجة ظروف أهلهم الاقتصادية والاجتماعية المزرية؟

وهل ستتذكر الدول الصديقة الغنية أن هناك أطفالا يقتاتون على ما يلقى في حاويات الزبالة من بقايا طعام المترفين؟ وهل ستتذكر الدول الوطنية وصانعو السياسات أن هناك جيلا قادما عليهم رعايته وتوفير الحقوق الأساسية له من مأكل وملبس وأمن وتعليم وترفيه؟

هل سيتذكر العالم جيل المستقبل أم أنهم قد انشغلوا بما يسد الأفق والتفكير، فلا خطط ولا استراتيجيات ولا أفق مفتوحا لهؤلاء الذين ليسوا أبناءنا فقط، بل هم صانعو حياتنا؟

وهل سيلتفت المفكرون ممن غاصوا في شؤون عامة وخاصة إلى ضرورة العمل على هذه الفئة التي هي ضعيفة بحكم المرحلة والتركيبة البيولوجية والنفسية؟

لعل هذا الموضوع من الأهمية بمكان لأن يتحدث فيه كل ذي فكر، وأن يوليه كل صاحب مسؤولية الاهتمام المرجو، فكل ما في هذه الحياة يدور في فلك الطفولة، ليس من أجل الطفولة في حد ذاتها، بل لأنها تمثل تلك المرحلة التي يجب أن تكون في بؤرة كل دولة وصانع قرار، فإذا ما أردنا حياة حرة وكريمة وخالية من العطب فلا بد من الاهتمام بالأم والأب وكل العناصر البشرية الأخرى المشكلة للحياة الإنسانية، لتهيئة المناخ الفكري والنفسي للطفل ليعيش حياته مستقرا بعيدا عن أية خلافات أو منغصات، و"حماية الطفل من أي إيذاء أو سوء معاملة في جميع أنحاء العالم".

إن مما يؤسف له حقا، تخلي بعض الحكومات عن واجبها الأخلاقي والإنساني في رعاية الطفولة، لتترك الأمر بأيدي الجمعيات والمراكز غير الوطنية، ظنا منها أنها تساهم معها في تحمل أعباء البناء والتوجيه، ونسيَت تلك الحكومات أو تناست ما تجره تلك المؤسسات المدعومة بالدولار الأميركي أنها توجه البلاد بكاملها إلى الوجهة غير الصحيحة، فماذا على تلك الحكومات لو اقتطعت من نثريات الوزراء المتكاثرين في حكوماتها القليل من تلك المخصصات لتصب في برامج رعاية الطفولة بفكر يرعاه المخلصون والواعون في هذه الدولة أو تلك؟

علينا أن نتذكر جميعا ما جاء في تقرير الجمعية العامة للأمم المتحدة للدورة الاستثنائية السابعة والعشرين المعنية بالطفولة التي عقدت عام 2001، "لقد كنا جميعا أطفالا في يوم ما. ونحن نتقاسم جميعا الرغبة في تحقيق رفاه أطفالنا، ذلك الرفاه الذي لم ينفك أبدا، وسيظل يشكل الطموح الذي تتعلق به البشرية قاطبة أكثر من أي طموح آخر".

نحن وجوجل والأطفال

2019/11/20

على غرار العامين المشار إليهما أعلاه، تحتفل جوجل بيوم الطفل العالمي، وبهذه المناسبة أقول: كل سنة وشهر ويوم وأطفال العالم بخير ولكن:

هل حمت الأمم المتحدة الأطفال من الحروب والتنمر والأمية؟ وهل وفّرت لهم من خلال حكومات بلادهم بيئات عيش مناسبة؟ ماذا عن الأطفال المشردين حول العالم؟ وماذا عن الأطفال المتسربين من المدارس؟ وماذا عن الأطفال الذين يعانون من التفكك الأسري؟ وماذا عن الأطفال غير الشرعيين الذين يتخلى آباؤهم وأمهاتهم عنهم ليكونوا في حاويات النفايات أو على أبواب البيوت أو المساجد أو الكنائس؟ وماذا عن الأطفال الذين يتعرضون للاستغلال في السينما وفي الإعلانات وفي الأعمال الفنية عموما؟ وماذا عن الأطفال الذين يعانون من التحرش الجنسي من الكبار ذكورا وإناثا متحرشين ومتحرَش بهم؟ وماذا عن عمالة الأطفال؟

ماذا عن أطفال فلسطين الجرحى والمعتقلين لدى الاحتلال، والأطفال الشهداء الذين قتلوا ويقتلون يوميا، ويتعرضون لإرهاب جيش الاحتلال في بيوتهم وحاراتهم ومدنهم وقراهم ومخيماتهم، ويعاملون معاملة غير لائقة في المعتقلات، وبأحكام عالية؟ وماذا فعلت لهم السلطة الفلسطينية بوصفها دولة تحت احتلال لقضيتهم تحديدا؟ وماذا عن الأطفال القتلى والجرحى واللاجئين بفعل حروب العبث في سوريا واليمن؟

قضايا كثيرة يعاني منها الأطفال، نستذكرها كل عام في يوم الطفل العالمي، ولكن يمر اليوم كأنه لم يكن، ويظل الأطفال يعانون مما يعانون منه من مشاكل، وهي في ازدياد مضطرد نتيجة تكاثر الحروب في المنطقة العربية المنكوبة بأنظمة قمعية مجرمة وأحزاب سياسية لا برامج تنموية لها، ومفكرين ومثقفين مشغولين بالتوافه من الأفكار وصنع العلاقات البائسة.

من لأطفال العالم لينقذهم من هذا المصير الأسود الذي ينتظرهم ويهدد وجودهم في مستقبل لا يبشر بخير؟ مستقبل مليء بالتشيؤ والعزلة، حيث يترك الأطفال نهبا لأجهزة الهواتف الخلوية الذكية، وما تبثه في وعيهم من أفكار وسلوكيات التي تشجعهم على العنف والتهوين من القيم العامة الإنسانية. فأين حقوقهم في العيش بأمان أولا مع متطلبات العيش الآمن من مأكل صحي ومشرب صحي ومسكن صحي وحمايتهم من الأمراض؟

أين حقوقهم في التعليم والمساواة في هذا الحق في توفير البيئة المدرسية الآمنة وتوفير مناهج تعليمية توفر للأطفال فرصة التطور العقلي وتراعي مواهبهم وتأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات الثقافية على شتى تنوعها، وتربي فيهم الذوق السليم، والنفسية السويّة، وتراعي أيضا ذوي الاحتياجات الخاصة للمعاقين الذين يحرمون في المدارس من حقوق إنسانية كثيرة؟ وأين العدالة في توفير معلمين أكفاء لكل الطلاب في المدارس، وعدم التمييز بين الأطفال في منحهم فرصا أفضل في جودة التعليم بناء على البيئة أو الحزب أو الطائفة أو المنطقة؟ وأين حقوق الأطفال في اللعب والترفيه، وتوفير الأندية الخاصة بهم، سواء في ذلك الألعاب العقلية أو الجسمية؟

أسئلة وراء أسئلة لن تنتهي والمسؤول عن ذلك ليس الحكومات فقط، بل الأم مسؤولة، والأب مسؤول، والمعلم مسؤول، وإمام المسجد مسؤول، والكاهن والقسيس مسؤولان، والبابا والكاردينال كذلك، فكلنا مسؤولون عن أطفالنا مسؤولية قانونية وأخلاقية ومجتمعية واجتماعية واقتصادية وتربوية وسياسية ودينية وثقافية، مسؤولية مباشرة وحقيقية حماية للمستقبل من أجيال مرتدة عن مسؤوليتها في التنمية المجتمعية والمدنية والعلمية. فالأطفال هم المستقبل، ومن يريد أن يوجّه المستقبل عليه أن يعمل على الأطفال ومعهم ولهم ليكونوا هم المستقبل المنشود، فإذا لم نخطّط للمستقبل القادم بالاهتمام بحاضر الأطفال، سيولد مستقبل مشوه بكل تأكيد، ولن يكون إلا أشد سوادا وقتامة مما هو عليه الحاضر الآن. فمن

البيت الذي ولد فيه الطفل يولد المستقبل، فنحن من يصنع هذا المستقبل فلنعمل على أن يكون كما نحب ونرغب، ولنتذكر قول الشاعر:

لـــيس اليتـــيم مـــن انـــتهى أبـــواه
مـــن هـــمّ الحيـــاة وخلّيـــاه ذلـــيلا
إن اليتـــيم هـــو الـــذي تلـــقى لـــه
أمّـــاً تخلّـــت أو أبـــاً مشـــغولا

شهداء لا يُنْسَوْن: محمد الدرة، فارس عودة، إيمان حجّو

لكل واحد من هؤلاء الثلاثة قصة مختلفة، إلا أن ما يجمعهم أشياء كثيرة، فهم من قطاع غزة المحاصر، أطفال، شهداء، استشهدوا خلال انتفاضة الأقصى، في أقل من عام، وشكل استشهادهم انتباهة قوية للعالم على هذا الاحتلال الشرس، قاتل الأطفال. انتباهة توثيق، لا انتباهة محاسبة للقتلة والمجرمين.

لا شك في أنّ الاحتلال يعي أنهم أطفال، وصغار، ويعلم ما تقوله الاتفاقيات التي تصمت وتتجمد عندما تمس الشعب الفلسطيني وأطفال الشعب. ولعلكم تعلمون السبب، فهو أوضح مما يقال، ويعاد سرده.

استشهد محمد الدرة في 2000/9/30 بعد يومين من اندلاع الانتفاضة الثانية، وصار علَماً على هذه الانتفاضة. لم يكن حدثا عادياً، قُتل بإصرار عجيب أمام الكاميرات، لم ترحمه البندقية البلهاء وهو يحتمي خلف جسد والده جمال. لم يكن ليشكل الدرة ولا أبوه خطرا من أي نوع إلا أن يكون الدرة الطفل، إشارة للمستقبل، فبقتله يقتلون المستقبل ويغتالونه.

الدرة أصبح أيقونة شعرية وأدبية أيضا، ودخل إلى بطون الكتب، ليكتب عنه عشرات الكتاب، وجمع بعض ما كتب فيه من شعر في مجلدين حملا عنوان "ديوان الشهيد محمد الدرة" تجاوز عدد صفحاته الألف صفحة، كما تناوله الشاعر محمود درويش في واحدة من افتتاحيات مجلة الكرمل بقصيدة بعنوان "القربان"، وتحدثت عنه روائيا الروائية المصرية رضوى عاشور في روايتها "قطعة من أوروبا". وآخرون كثيرون تحدثوا عن الدرة في المقالات والاستعادات السنوية، عدا قصائد الذكرى والحنين التي أبدعها الشعراء.

وبعد (38) يوما تقريباً، وبتاريخ: 2000/11/8، استشهد الطفل فارس عودة، هذا الطفل الذي غدا علامة على الشجاعة، في مواجهته دبابة الميركافا بحجر. من حق هذا الطفل ألا يظل على قيد الحياة. هذا هو منطق البندقية

الحمقاء التي اغتالته. يجب أن يموت هذا الفتى، لأنه تجرأ على أقوى قوة في المنطقة وواجهها بحجر، يا للمفارقة الكبيرة، دبابة وحجر. لقد كان منهم "الفولاذ والنار، ومنا لحمنا، ومنهم دبابة أخرى، ومنا حجر".

هذا الفتى الغزيّ الذي خاطب ظله، حضر في الأغاني والشعر والرواية، وظلّ علامة أخرى مختلفة عن الدرة، في كونه مواجها، مرعبا في مواجهته، صارخا متحديا، لا يعرف بناء المعادلات المنطقية، ليقول كيف لي أن أدافع عن الأرض والجسد والروح بحجر أمام الميركافا التي لا تدمرها إلا الأسلحة الفتاكة. حطّم المعادلات المنطقية، ليبني من موته مستحيل الفتى الذي لا يهزم وإن ارتقى شهيداً، فكانت له منطقيته التي لا يفهمها إلا القليل من الساعين إلى الحياة بشرف وعزة وكبرياء روح.

لا أبالغ، وليس من قبيل الكلام الإنشائي الرومانسي الحالم، أن فارس عودة يمثّل روح الشعب الفلسطيني التي لم تهزم، وإن كان يقف وحيدا أعزلَ في مواجهة أعتى الأسلحة، يجابه بجسده العاري وبصلابته الروحية. هذا هو فارس عودة، وهذا هو الشعب نفسه، والعمليات البطولية للمقاومين بعد هذا الفارس وقبله تقول هذه الرسالة الساطعة في دلالتها الوطنية والمنطقية.

شهيدان، شكل كل واحد منهما اعتباريته الخاصة، على نحو خاص، في ظرف خاص، لكن لم تنته المسألة على هذا النحو، تحضر الطفلة إيمان حجو لتكون العلامة الثالثة. إيمان لم تقاوم بحجر، ولم تختبئ من الجنود وراء أمها أو أبيها. إيمان يأتيها الموت وهي في أكثر الأماكن أمانا على وجه الكرة الأرضية، يأتيها الموت وهي في حضن أمها، بتاريخ: 2001/5/7.

استشهد الدرة وفارس عودة بالرصاص، لكنّ إيمان ترتقي بالقذيفة، رضيعة ذات أربعة أشهر، لا يصلح لها أن تقتل برصاصة، لا بد لهذه الطفلة أن تموت بالقذيفة، لتصنع المفارقة الكبرى صيغتها الأخرى الأدل على هذه الحالة من

طرفي المفارقة، الطفل الرضيع يقتل بالقذيفة. بشاعة إنسانية صارخة، لا يمكن لهذه الميتة أن تقول إلا البشاعة.

وماذا- إذاً- وراء هذه البشاعة؟ بعيدا عن لعلّ وربما. إن هذه الحالة من القتل تقول: إنه لا أمان من الاحتلال، فمن يقتل وهو في حضن أمه هائنا مطمئنا فليس هناك أمان لأي أحد بعد ذلك، فأين الملجأ؟ وإلى أين نذهب؟ إنها رسالة تهديد مباشرة وعنيفة، يدعو فيها الاحتلال الشعب إلى الاستكانة والرضا بالاحتلال والعبودية، لكنني أظن أن الاحتلال لا يعلم أن الشعبَ، كل الشعب، يمتلك روح فارس عودة وصلابته، لن ترهبه آلات الدمار والعتاد والسلاح، وموج الخوذات المحشوة بالوحشية التي لا تعرف إلا الموت والنار والدم، تبذلها لغيرها، فلن يتلقاها غيرها إلا بمثل ما دفعت، والنار بالنار تفلح. هذه رسالة لا يريد الاحتلال الاعتراف بها، ولذلك سيواصل الغرق في بحر الوحشية والدم.

حضرت إيمان حجو- كما حضر الدرة وفارس عودة في الشعر والأغاني- إبراهيم نصر الله كتب سيرتها شعراً في ديوان "مرايا الملائكة"، ومما جاء في هذا الديوان قوله في (حديث الوحدة): "يعبر الموت من تحت شبّاكها كل ليلٍ ويصمتُ/ للعشب يكبر في غرفة النوم/ لا غرفة غيرها/ يسمع الكركراتِ/ المناغاةَ/ رقّة راحتها وهي تمسك كفّ أبيها". يكتب "سيرة الجسد الطريّ" وإن لم يعد العالم يفهم لغة الشعر والأدب. إننا بحاجة لشيء آخر مع لغة الشعر هذه وتلك، شيء يشفي "صدور قوم مؤمنين" ويخلصهم من أوجاع الموت.

هؤلاء الشهداء الثلاثة لن ينسَوْا أبداً، لأن كل واحد منهم شكّل حالة تدل علينا نحن القابعين تحت رحمة البندقية والقذيفة والدبابة، نواجه الموت صغاراً وكباراً، كما واجهه هؤلاء الأطفال الشهداء. فكل واحد منا- نحن الواقفين على الدور- ننتظر رصاصة أو قذيفة أو دبابة لنكون اسما بجانب هؤلاء الشهداء.

هؤلاء الشهداء لن ينسوا، ليس لأنهم خالدون في الشعر والروايات وأغاني المنشدين، بل لأنهم يذكّروننا بالعجز الأممي القانوني، والعجز الإنساني، والعجز القومي، فكل الأطفال الذين لحقوا بركبهم، ذاقوا ما ذاقه الثلاثة من عذاب اختراق الرصاص، وانسلال الروح من البدن، ذاق أهلهم ما ذاق أهل هؤلاء الأطفال من قهر، وفقدان، وحسرة، وحقد، ورغبة في الانتقام. نعم الرغبة في الانتقام، لا الرغبة في التمجيد والتصوير وتعليق النياشين، ولا الرغبة في إنشاد الشعر، ولا حتى الرغبة في نيل الشهادة! تلك التي تأتيهم وهم لاهون، في وقت هم لا يريدونها فيه.

هؤلاء الشهداء لن ينسوا، لأنهم علامة على كل شهيد طفل، ارتقى بعدهم، ويرتقي كل يوم، تاركين الحياة رغما عنهم، تاركين مقاعد الدراسة، والزملاء، ومشاكسة المعلمين والمعلمات، والمزاحمة في الطابور على المقصف المدرسي ليشتري أحدهم شطيرةً، معدة على عجل من عامل يصارع الحياة أيضا لكي يعيش بكرامة. إنهم حالات خالدة رغماً عن الموت ذاته الذي لا يكفّ يذكّرنا بهم يوميّاً.

هؤلاء الشهداء لا يمكن أن ينسوا بسهولة، لأنهم يفضحون العقل الباطن للاحتلال المجرم، الساعي إلى اغتيال المستقبل، فكل طفل يقتله الاحتلال، فإنه يقتل مربعا كاملا من الحياة والحيوية والمقاومة. فأسهل الطرق للسيطرة على الغرسة قلعها قبل أن يشتدّ عودها، هذا هو الإجرام الصهيوني الذي تجده في أعداد الشهداء والأسرى من الأطفال الذين يزدادون يومياً، مع أنهم يحبون القتل أكثر.

هؤلاء الثلاثة لم ينسوا، ولن ينسوا لأنهم ثلاثة، كأي ثلاثة اجتمعوا ليشكلوا الحالة، ثلاثة قبلهم "تسابقوا على الموت: محمد جمجوم، وفؤاد حجازي، وعطا الزير"، وكالثلاثة الذين اجتمعوا ليشكلوا العلامة في الرواية الفلسطينية (كنفاني وجبرا وحبيبي) وقبلهم الثلاثة المذكورون في القرآن الكريم الذين

رضي الله عنهم، وغفر لهم، وجعل فيهم قرآناً يتلى، كما سخّر لهؤلاء الشهداء الثلاثة شعراء كبار ينشد القراء أشعارهم آناء الليل وأطراف النهار أيضاً.

وأخيراً: لم تقف المسألة عند الثلاثة والعشرين عاماً هذه الممتدة من مقتل الدرة وحتى اليوم، بل إن المسألة عمرها ممتد منذ أكثر من خمسة وسبعين عاماً، وستظل موجودة وتصنع حالاتها وتتوالد ما دام من يوجّه الآلة عقل محشو بالموت، وحشيّ، يرى أنه كلما قتل فلسطينيا فإنه سيفسح مجالا لمستوطن ليكون البديل في الأرض وفي المستقبل، لكن هيهات، فالأرض ولّادة، والأمّ ولّادة، والسواعد دائما على أهبة الاستعداد، ولتطحن الحَبَّ الرحى، ونحن والأعداء والزمن طويل، فهذه الأرض لم تهزمْ أصحابَها يوماً، ولن تهزمهم أبدا.

عادات محمد منذ استشهاده

عن محمد الدرّة وآلاف الأطفال الطلاب الذين اغتالهم الاحتلال

يأتي محمد كل يوم، يدخل غرفة الصف، يتفقد مقعده الصغير، يضع صورته في مكانها، ويكتب اسمه على الجانب الأيمن من السبورة بحروف لا تكاد تكون مفهومة، ويخرج، ولا يحس به أحد.

يدخل التلاميذ، ويقرؤون ما كتبه محمد، فيسمعون صوته وهو يتحدث معهم من وراء حجاب، ويحييهم، ويقرأ عليهم مأساته وهو في حضن والده، يبكي التلاميذ، ويغيب صوت محمد.

هذا هو محمد، وهذه عادته منذ أن غاب عن المدرسة، لا يجد من يسمعه، أو يتحدث معه، لذا فقد قرر أن يغيب عن مدرسته وعن صفه، وعن زملائه ولا يرجع إلا من أجل أن يطمئن على سلامة روحه وذكراه.

* * *

لقد حدّث بعضهم أن محمداً يأتي إلى كل المدارس صباحاً، ويسلم على الأطفال طفلاً طفلا، يحدثهم عن مغامراته، وهو يصارع الموت الشقي، يتحلق حوله التلاميذ، ينصتون بدهشة، يمدون أيديهم ليصافحوا محمداً ويعانقوه، فإذا به قد غاب.

وصار كل يوم يأتي يحدثهم نفس الحديث، ويصعد يلقي كلمته التي يظن أنها الأخيرة، وإذا بها تكون الأولى دائماً، يلقي النشيد الصباحي، ويشجع الطلاب، ويعدهم أنه سيقرأ معهم، ويكتب اسمه على دفتره الذي ما زال جديداً، ويعبّر في حصة اللغة العربية عن واقعة شهيد، مات بشهية حقد أسود.

* * *

لكن محمدا يغيب، ليظهر مرة أخرى في المستشفى، يزور الجرحى، يقدم لهم ما يلزم من مساعدة، يتحسس أعينهم التي فقأها الرصاص، وأيديهم التي عطلها الضرب المبرح، ويتفقد صدورهم التي اخترقتها الطلقات النارية، ورؤوسهم التي ما برحت تنزف جراء ما حدث.

ويشارك محمد في تشييع الشهداء، يصلي عليهم صلاة الجنازة، ويهتف بمواصلة دربه معهم، وسينتقم من الذين حجزوه عن هذا العالم، فيمد الشهداء أيديهم ليعانقوا محمداً، فيعانقهم ويغيب...

وذات صباح يزور محمدٌ والده في المستشفى، ويهديه قبلة الصباح المعتادة، ولكنها بلا قهوة هذه المرة، ويذكره بذلك اليوم، فيبكي والده، فيهدّئ محمد من روعه، ويسأله عن جراحه، وعن متراس جسمه الذي حماه يوم ذاك، ويسأله عن إخوانه وأصدقائه، فيطمئن محمد، ويغيب.

* * *

ويظل هذا ديدن محمد، يغيب ويظهر، ويعود ويختفي، ولا أحد يستطيع أن يعانق محمداً أو يقبله إلا الشهداء الذين هم أهله وعشيرته، هم من سيعيدونه إلى مدرسته ومقعده وكتبه ودفتره الجديد ليكتب أسماءه بخط واضح وجميل بكل الخطوط والألوان وباللغات التي تعلمها في غيابه.

هم وحدهم من سيعيدونه إلى والده، فيعود ولا يختفي، ويظهر ولا يغيب، ولكن متى؟ عليكم بهذا السؤال فاسألوه محمداً، أعتقد أنه يعرف الجواب؛ لأنه أجاب عنه بين يدي والده عندما أخذ يصارع وحش الموت وغاب.

رسالة من غزة

جاءتني هذه الرسالة على مدونتي الشخصية من طفلة في غزة تسرد معاناتها جراء الحصار الظالم على قطاع غزة.

الجمعة: 2013/5/24

أنا بنت صغيرة من سكان غزة، غزة المحاصرة من سنين، قبل ما يصير الحصار سافرت أمي وستي على مصر، لأنه ستي احتاجت لعملية كبيرة وعدتني أمي إنها ما راح تغيب إلا كام يوم، ووصتني إني أدير بالي على اخواتي لأني أكبرهم. وفعلا ضلينا مع بابا لحالنا، وسافرت أمي وستي وصار الحصار، وبدل ما نعد الايام على غيبة ماما ما لقينا حالنا إلا بنعد الشهور بس صبرنا أنا وبابا وإخواتى وقلنا أكيد رح تفرج وهترجعلنا ماما بس فى أوقات مرت علينا ما بننساها.

أنا كنت بخاف من العتمة كتير، فوصاني بابا وحكا لي انه الكهربة رح تنقطع كتير، فلازم ما تخافي علشان اخواتك الصغار ما يخافوا بدي اياكي تكوني قوية، فلما كانت تنقطع الكهربا كان قلبي يرجف من الخوف ولساني يقول لاخواتي ما تخافوا، شوفوا شوفوا ما أحلى الشموع، تعالوا نضويها، تعالوا نلتم حوليها، وصبرنا واتحملنا قطع الكهربا.

ولما كانوا اخواتي يبكوا من الجوع وأنا مثلهم كلهم، بس أضل أغنيلهم، واقول لهم يلا نستنى بابا، هلا بيجي جايب الأكل، أيام كان بيرجع مو معه الا شوية خبز، فنكون أسعد ناس بالعالم، ولما كان يرجع ايديه فاضية يأعد البابا يغنيلهم ويحكيلهم قصص لحد ما يناموا، وصبرنا واتحملنا الجوع.

ولّا الطيارة، الطيارة الزنانة، بس كنا نسمع صوتها، نتخبى تحت التخت أو حتى بالخزانة لأنه، ما بنعرف هيا هالمرة، رح تقصف بيتنا ولا بيت جيرانا، ويا ترى هتحت كام شهيد هالمرة وصبرت صبرت وأنا بودع اخواتي، وهما رايحين عالمدرسة، وأنا خايفة انهم ما يرجعوا مرة تانية. صبرت، وأنا بودعهم وأنا مو

رايحة معهم، لانى ما بقدر أترك أختي الصغيرة لانو ماما طبعا ماما علقانة عالمعبر.

وصبرنا صبرنا، واحنا بنشوف جارتنا عم تموت أمامنا لانو ما فى أدوية، أدوية تعالجها بسب الحصار، لحد ما اجى اليوم اللي وقفنا فيه مع الناس المتظاهرين عند معبر رفح وانهدم الجدار، ودخلت مصر مع الناس اللي دخلوا وارتميت بحضن أمي وستي بتبكي، وتقول يا رب ما أموت إلا ببيتي بين أولادي وأحفادي.

هي هيا حكايتى حكاية شعب انحرم من حريته، وهو بأرضه حكاية شعب انحرم من انو يتمتع بوطنه، وحتى انحرم من حضن أمه، هي هيا حريتنا حرية بس داخل سجن، لهيك بدي اياكو تضموا صوتكم لصوتنا حتى نسمع العالم ونقول: لا للحصار، لا للاحتلال، لا لسلب الضحك من وجوه الصغار.

أين رجولتكم أيها الذكور؟

السبت: 2012/5/5

هذا هو الطفل التونسي محمد حميدة، بل قل الرجل الشهم الأبي الذي رفض الدخول في نهائيات لعبة الشطرنج مع منافسه من كيان الاحتلال. عقدت النهائيات في مدينة اياشي برومانيا. معتبرا هذا الطفل ذلك العمل من التطبيع مع هذا العدو المجرم الذي لم يسلم من شره وسُمّه العرب والمسلمون قاطبة، بل العالم أجمع، ويكفي للدلالة على بشاعة هذا العدو ما كتبه يوما الكاتب المسرحي الإنجليزي وليم شكسبير عن شخصية "شيلوخ" في "تاجر البندقية".

إن هذا الطفل البالغ من العمر عشر سنوات فقط، هو في عرف القانون طفل، لم يتجاوز سن الرشد ولم يبلغه بعد، ولكن الطفولة والرجولة لم تكن يوما بالعمر أو بالجنس حتى، فالرجولة موقف يتخذه العظماء سواء أكانوا حديثي سن أم لا، كما وقد تتلبس المرأة بصفة الرجولة؛ لأنها تعبر عن موقف شجاع بطولي، فالرجولة شيء والذكورة شيء آخر مختلف، فالرجولة صفة معنوية معبرة عن موقف، فهي ليست حكرا على أحد ألبتة ذكرا أو أنثى، صغيرا وكبيرا، وأما الذكورة والأنوثة فهما صفتان بيولوجيتان في الخلقة والطبيعة، ولذا وجب التمييز بين مواقف الرجال والبطولة التي يصطنعها الناس ويتخذونها.

لقد أعطانا محمد حميدة درسا قاسيا في الرجولة التي عزت مواقفها عند الحكام وسدنتهم وأعوانهم ولفائف عمائم علمائهم، لقد أدرك بالحس قبل الفكر أنه من العار ألا تكون رجلا في زمن تلفع بالذل والهوان، فلماذا سبقتَ الذكور ببدلاتهم الأنيقة وأحذيتهم الملمعة وسياراتهم الفارهة؟ لماذا أحرجت القيادات كل القيادات ثورية وغير ثورية؟ لمَ جعلت كل مطبع في شرق الأرض وغربها يخجل من نفسه؟ لماذا أيها الكريم جعلت النفس تحزن على كل كلمة سمعتها من تلك القيادات في الاجتماعات والمهرجانات؟ لماذا كل هذا؟

أتدري لماذا، لأنك أوعى منهم جميعا، وأسدّ منطقا، وأعظم منهم موقفا، تصرفت كما يجب أنْ يتصرف الرجال، وهم خنعوا كما يجب أن يتصرف العبيد الأذلاء، فلا نلومهم، لأنهم تربوا على الهوان والذل، ولكننا نُكبر فيك هذه المواقف أيها الرجلُ الرجل، وقد صدق فيك قوله الشاعر:

وَإِذا كانَــــتِ النُفـــــوسُ كِبــــاراً
تَعِبَــــت في مُرادِهــــا الأَجســــامُ

كما صدق فيهم قوله أيضاً:

مَـــن يَهُـــن يَســـهُلِ الهَـــوانُ عَلَيـــهِ
مـــا لِجُـــــرحٍ بِمَيِّــــتٍ إيــــلامُ

غزة مقبرة للزهور

أطفال غزة- الشهداء والناجون 2023:

في هذه الحرب برز الأطفال أكثر من أية حرب أخرى، هذه الحرب كانت مسعورة لالتهام لحم الأطفال الطريّ، إحصائيات اليوم الثالث والأربعين تقول إن هناك "أكثر من 5 آلاف طفل" شهيد في هذه الحرب، عدا الجرحى والمفقودين والمشردين. في الحرب السابقة (2021) كانوا (67) طفلا، استشهدوا في أحد عشر يوماً. الآن العدد هائل. أكثر القصص إيلاما هي قصص هؤلاء الصغار واليافعين. كل أطفال غزة تضرروا من الحرب، لأنهم كلهم محصورون في بقعة جغرافية صغيرة، وكلهم- من لم يمت- فإنه عايش الموت، ورآه، ومرّ من جنبه. كل طفل في غزة أصبح له قصة شخصية عن الموت، ستساهم في تشكيل وعيه، وتَسِمُهُم بميسمها، لقد قتلت أحلامهم ودمرت مستقبلهم. إن هؤلاء الأطفال "كانوا يريدون أن يصبحوا أطباء وفنانين وقادة"، واليوم هم أرقام تتوارد على الفضائيات، وفي الصور، ونادرا ما يكون لهم قصص تُروى.

في أحد تلك الفيديوهات الراصدة لأحلام أطفال غزة التي يريدون تحقيقها عندما يكبرون. قال أحد هؤلاء الأطفال: احنا بفلسطين ما بنكبرش، احنا بأي لحظة ممكن ننطخ، ممكن نموت واحنا ماشيين، نلاقي حالنا مطخوخين. هيك احنا بفلسطين".

طفل آخر من هؤلاء بعمر الحادية عشرة يتحدث عن صاروخ، أخذ معه أمه وأباه وإخوته، شهد هذا الهول ليبقى مع خالاته وستّه (جدته). طفل آخر يصرخ ويبكي معاً، ويتوعد الاحتلال بأنه سينتقم ممن قتل والده. نعم سينتقم، فالمحتلون يخططون لمستقبل أكثر شراسة مما هو عليه الحاضر، سيولد جيل منا سيأكل الجنود أكلاً بأسنانه، أؤكد وهذا التعبير حقيقي وليس مجازيا، كيف سيخرج هؤلاء الأطفال وهم فقدوا أحبابهم أمام أعينهم.

تؤكد هذه الحرب أن الاحتلال غبيّ جدا، ويؤسس لمأساته الأشد عنفا، مأساة قادمة، إن خرج الاحتلال من هذا المأزق سالماً، سيعيش على قلق، لأن دماء الأطفال تحرك الريح من تحتهم، وسيعودون أقوى وأشدّ.

هذا المحتل غبيّ جداً، وهو يسير أعمى، يقوم على رجلين من خشب، واحدة تسمى الغرور والغطرسة والثانية تسمى جنون الأسلحة الفتاكة، ستأكل النار هذا الخشب المتآكل سنة بعد أخرى، وعلى أيدي هؤلاء الناجين وأولادهم. هذه حرب لن تُنسى أبدا، إنها "هولوكوست" الفلسطيني على أيدي الناجين من (هولوكوست) الألمان.

لكن غباء المحتل أنه ينتقم من الألمان بنا نحن، وليس ممن قتل أجدادهم. إنهم يظنون أننا فرائس سهلة، لقد أكلوا من لحمنا حتى أتخموا وتبشّموا. جاء وقت الحساب أو كاد، أو سيأتي في المستقبل، عشر سنوات على الأكثر وهؤلاء الناجون من القصف سيصنعون ملحمة انتقام جديدة، وعلى نفسها "ستجني براقش"، سيشكلون كتيبة كاملة، كل فرد فيها كان "ناجياً وحيدا" عام 2023، تقول إحداهن عن الطفل "أحمد أبو الروس" الناجي الوحيد من بين عائلته كلها: "احفظوا وجهه جيدا، فهو عائدٌ لكم من تحت الأرض ومن الأنفاق، أو طائرا بالمناطيد أو ضفدعا بشريا، سيعود... سيوقد النار شاملةً، ويطلب الثأرَ، ويستولد الحقَّ من أَضْلُع المستحيل". فليتخيل المحتلّ الغبيّ كتيبة مكوّنة من هؤلاء كيف سيواجه ما زرعه فيهم من حقد وانتقام ورغبة مؤكدة للثأر.

أطفال غزة في الأغاني وفي الرسومات:

تصنع الحرب في كل مرة أيقوناتها العفوية، هذه الحرب هي حرب الأطفال بامتياز، الأطفال ليسوا ضحايا فقط، بل أيقونات فنية وشعرية وفي الأغاني، وهم قصص إنسانية، ومشاريع مستقبلية. أطفال لا يشبهون تماماً حنظلة ناجي العلي وإن لم يتخلصوا من ملامحه نهائيّاً، أطفال بتركيبة أخرى، تدير

ظهرها لمن أسلمها للمدافع التي تشوي جلدها الرخو، لكنها تغذّ السير نحو المقاومة بكل جبروت وإرادة.

من تلك اللحظة الفاتنة في شعريتها ومقاومتها، وفي لحظة التعالي والتسامي القوي جدا، تتحول كلمة عفوية خرجت من قلب أبٍ إلى لحن وأغنية، هكذا أصبحت "معلش" مراسل الجزيرة وائل الدحدوح عملا فنيا مفعما بالصدق والحب والجمال، معجونا بالتحدي والتصدي والتجذر في الأرض، لتعلن أنه لا رحيل، "ينتقمون منا بالأولاد... معلش!"، هم ينتقمون من الأولاد أنفسهم لأنهم يشكلون المستقبل الذي يهدد وجودهم، وأمنهم وسلامهم القائم على الغطرسة والتكبر والمحو والإزالة.

هذا الجيل القادر على اقتناص اللحظة ليحولها إلى أغنية تكتسح منصات التواصل الاجتماعي لهو جيل عبقريّ عصيّ على الانكسار أو الانحدار أو التململ. إن هذا ليس كلاما إنشائيا رومانسيا نعزّي فيه أنفسنا عن مرارة الفقد في غزة، بل إنها حقيقة معيشة كل يوم نراها تولد أمامنا على الشاشات، إنها لحظات يؤطرها القدر لتكون علامة فنية وشعرية وإنسانية، وعلامة وجودية وسط موج متلاطم من الموت العشوائي.

إنه جيل لا يعرف الشكوى. فقط هو يعرف أن عدوه لا حول له ولا قوة إلا بمزيد من قتل الأطفال، لأجل هذا قرر ألا يشكو، فقط يتألم ويحزن، ويمسح دموعه ويواصل نضاله وعيشه. جيل أصبح يعرف أن العدو غاشم، قاتل، يفسد عليه خططه، بمنحه المزيد من القتل، أما أن يرحل فلا، حتى يوفر على الأمم المتحدة فرصة ولادة لاجئي اللاجئين. إنه يقاوم بشراسة ولادة مصطلح سياسي جديد، فبعد أن أصبح ضحية للضحايا الأغبياء، لن يكون لاجئاً بعد لجوء. هذا يزيد من سُعار آلة الحرب الهمجية لتلجّ في عنادها أكثر وأكثر، لتتوغل في اللحم الحيّ بعد أن عجزت عن التوغل في الجغرافيا، وعجزت عن التوغل في الروح لتصبح هزيمتنا أمرا مستحيلاً، مهما أهالوا

علينا من أطنان القنابل المتقنة الصنع الدقيقة الهدف، الرحيمة في إنجاز المهمة.

الأطفال والمدارس:

لم تعد الحياة الطبيعية المدنية ممكنة في غزة بعد هذه الحرب. الأوضاع كارثية بكل معنى الكلمة، لا بيوت، لا مدارس، لا مستشفيات، لا أسواق. دمر الاحتلال كل ما له علاقة بإمكانية عودة الحياة الطبيعية في غزة. في اليوم الثاني للحرب يتساءل المحللون ماذا سيجري، يتكهنون بشأن المقاومة والقطاع ومن يحكمه، ويرسمون السيناريوهات، لم يفكر المحللون السياسيون العباقرة كيف سيعود الناس إلى حياتهم الطبيعية في اليوم الثاني عندما تتوقف الحرب، النساء والأطفال والبيوت المدمرة، والبنية التحتية المهدّمة.

المدارس تضررت بشكل كبير ومهول، كثير منها خرج عن الخدمة، هل سيعودون... إلى أين سيعودون؛ لا مدارس، لا معلمين، لا مديرين، لا كتب، لا مكتبات، لا طباشير ولا سبورات، ولا حتى تلاميذ، أكلتهم الحرب في شهوتها المجنونة.

أنا أفكر في المدارس، أطفالي ما زالوا على مقاعد الدراسة، يذهبون يوميا تقريبا إلى المدارس، إنهم يتعلمون تحت القهر. يلتزمون بالجدول اليومي للحصص المقررة، ويؤدون الامتحانات، أطفالي يقاومون بصعوبة رغبتهم في التعليم، لأنهم أيضا يعيشون مع الحرب يوما بيوم، ولحظة بلحظة، وأنا كذلك أرى الوجوم قد علا الوجوه كلها، تواجهني علامات الاستفهام المرسومة على ملامح المعلمين والطلاب، إلى أين نحن ذاهبون من دون أن تكون معنا غزة، وأطفال غزة. كيف تتم هذه المعادلة نحن نتعلم، ونمارس حياتنا الطبيعة أما تلاميذ غزة فلا يدرسون، بل إن جلهم "عند ربهم يرزقون"، سؤال كبير لم ينجح أحد في طرحه، فكيف بالإجابة عليه.

سيرتجلون إجابة ما عندما تكفّ الحرب أيديها عنا، ولكن ستظل الإجابات كلها غير مقنعة وغير منطقية.

الكارثة عندما يعود طلاب غزة إلى مدارسهم ليكتشف الناجون أنهم هم الوحيدون والباقي غائبون، متى سيأتون؟ لن يأتوا بالتأكيد فقد لبسوا أجنحة الملائكة وطاروا في السماء. هم الآن ينظرون إلى أقرانهم وإلى مدارسهم من علٍ، ويتفقدون الناجين ومقاعدهم الشاغرة. سيملؤها بلا شك جيل قادم مليء بالعزم والتحدي، أما هؤلاء المعتلون فوق السحاب فلا مجال لتحقيق ما حلموا به يوما إن تجرؤوا يوما وسمحت لهم الآلة العسكرية الهمجية أن يحلموا.

أسئلة كثيرة خلقتها الحرب لن يجد أحد عليها أجوبة، لكن أصعبها وأشد بؤسا وإشكالية هي أسئلة الأطفال. من يستطيع أن يقنع طفلا في غزة رأى الموت يسير على قدمين من لهب أنّ الحياة طبيعية هناك، أو أنها ستصبح يوما طبيعية؟ إنهم لن يفكروا بالمدرسة كما نفكر نحن على الطرف المنهوش من هذا الوطن المنتهك. فقط يبحثون عن مصدر الخطر القادم لاجتثاثه من جذوره ليحق لهم أن يفكروا بحياة طبيعية هناك في غزة، ويعودون إلى المدرسة والنشيد الصباحي وحل الواجبات البيتية دون خوف من صاروخ يقتحم عليهم سقف غرفة المعيشة أو صالون البيت.

أطفالنا لا يلعبون الببجي فقط

لماذا يفكّر أطفالنا بتنفيذ عمليات بطولية؟ هذا سؤال مخيف، لكنه جيد في المحصلة، لأن الجيل الجديد من هم في عمر أبنائي (10- 23) سنة، يفكرون بكيفية القضاء على هذا المحتل. أبنائي كلهم يتوقون لتنفيذ عمليات مزلزلة ضد المحتلين. أدرك تماما من أين تأتي هذه الأفكار، على الرغم من أننا وأقصد هنا الآباء والأمهات، لا نلقن أبناءنا هذه الفكرة، ليس لأننا نحب الاحتلال، لكننا ندرك أن القضاء على كيان الاحتلال وإنهاءه كليا من أرض فلسطين التاريخية (27 ألف كم مربع) هي مهمة أكبر من أبنائي وأقرانهم، إن مثل هذا العمل يلزمه جيش جرار يدكّ المدن دكا وينهي أيقونات الكيان كله، فيدمر ما يعرف بالكنيست، ووكر الوحشية والخوف ما يسمى بوزارة الدفاع، وتدمير مبنى الحكومة كليا، وجمع كل القيادات ولفهم في حزمة واحدة وتسفيرهم إلى مواطنهم الأصلي حيث ولد أجدادهم. أما بقية ما يعرف بالشعب، فليرحل في سفن وطائرات، وعلى العموم لن يستغرق تنظيف فلسطين من كل هؤلاء بهذه الطريقة سوى شهر على أكثر تقدير، وتعود فلسطين عربية.

بهذه الكيفية شرحت لأبنائي زوال الكيان المحتل، فقتل جندي أو ثلاثة وحتى ألف لن يزيل هذا الكيان، وضربت لهم مثلا أن يحيى عياش رحمه الله هو أكثر "مجاهد" فلسطيني أوقع في الاحتلال قتلا، لكن الجنود وكيانهم بقوا، هذا النوع من الاحتلال يلزمه قوة كاسحة لا تبقي ولا تذر، وتدمر كيانات القوة وأصولها وليس قتل الجنود. فعمليا لا أحد يستطيع قتل جنود بهذا الحجم عددا وعدة وعتاداً.

الأمر الأهم بالنسبة لي، ليس التفكير بزوال هذا الكيان، فهو زائل لا محالة، طال الزمان أم قصر، وسواء آستبدّ الجنود وتوحّشوا- كما هم دائما- أم أظهروا بعض اللين؟ المهم بالنسبة لي من أين تأتي هذه الأفكار إلى أبنائي وأقرانهم، وكيف أتت إليّ وأنا في عمرهم؟

كنت كثيرا ما أحدّث نفسي بالعمل العسكري لأكيد الجنود الغاصبين وأغيظهم، وكم تمنيت لو ارتقيت شهيدا في عملية عسكرية كأحد أصدقائي الشهداء، عليه رحمة الله، وكم كنت أتمنى لو أنني أستطيع حمل السلاح والتدرب عليه، لكنت فعلت ما أود فعله وحققت أمنيتي. احتلتني هذه الأفكار زمنا، ثم لم أر لها جدوى، علينا أن نبحث عن طريقة أكثر نفعا، فأنا وأبناء جيلي وأبناؤنا لسنا فراشات تحترق على ضوء المصابيح الغازية. إننا أعظم من أن نموت برصاصة لا يساوي ثمنها شيقلا واحدا.

أدرك تماما الآن أننا أمام مفترق طرق، الاحتلال يتوحش كثيرا، كل يوم يقتل، وينكل، ويعتقل، يرى أطفالي هذه البشاعات، رأى ابني مثلا الشهيد الأخير الذي نفذ عملية القدس فادي أبو شخيدم، إن ابني يشعر بالفخر تجاه هذا المعلم، يريد أن يفعل مثله.

عمليا وواقعيا وبكل معنى الكلمة، الاحتلال يدفعنا لننفجر، فأطفالي وأطفال العالم يرون كل يوم فيديوهات تنقل فظاعات الاحتلال وإجرامه صوتا وصورة، إنهم يخزنون كل تلك الصور الواقعية التي تشعرهم بالحزن، ومعها تنمو مشاعر الرغبة العارمة في الانتقام.

لا بد من أن يثور هذا الجيل يوما ثورة صادمة ومدهشة ومدمرة، فالأطفال لا يلعبون "الببجي" فقط، أنا متأكد من ذلك، فهم يصنعون وعيهم بعيدا عن الكل، يبنونه بمفردهم، ولا أحد يستطيع تغيير قناعاتهم.

سينفجر هذا الجيل في وجوهنا أولا ووجه السلطة التي لم تحمه ولم تحم أقرانه الشهداء والجرحى والمعتقلين، وصولا إلى الثورة الكبرى الطاغية في وجه الاحتلال، إن هذا الجيل لا يعرف الخوف. أبشركم أنه جريء وقوي وصلب ولا يكفّ عن التفكير بالحرية والعزة والكرامة، لم تفلح المدرسة والنظام بتدجين عقله، ولا ترويض نفسيته لقبول العبودية، فعلى يديه سيكون ما لا نتوقعه جميعا.

الاحتلال وحده هو المسؤول عن ذلك باستهتاره واستخفافه وصلفه وممارساته اليومية الوحشية، يظن هذا الكيان أن السحاب الهاطل مطرا، لن يخترق سقف البيت، بل إنه سيخترق البيت؛ سقفه وجدرانه ويتسرب إلى الأساسات ليزيلها. هذا هو الجيل القادم، فاحذروا.

المساحة الخامسة: الرقص في الحلبة الملتهبة

إلى امرأة لا تحسن القراءة
2014/7/30:

امرأة تغتالني بسطر عفوي، تدّعي حبّ غزة، ومناصرة أهل غزة، تستكثر عليّ أن أعيش طبيعيا في ظل الحرب، لا يرضيها أن أعبّر بطريقتي عن تحسّن حالتي النفسية نتيجة معركة المجد في غزة المجد، فلولا غزة لما احتفلت هذا اليوم بهذه الصورة، فقد كان يوم ميلادي يوما كئيبا إلا اليوم، كيف لي أن أتشاءم وأنا أرى سطور تاريخ جديد تكتب بحروف يضيئها دم البطولات الغزية؟

إن هاتيك المرأة القابعة على حدود حزن مصطنع، في (مملكتها الزرقاء الافتراضية الخاوية)، ومعها مثلها كثيرون وكثيرات، لا تعلم، ولا تريد أن تعلم أن الرجال في غزة لا يموتون، إنهم يصنعون لنا حياة جديدة، ومن حقهم علينا ألا نحزن، بل علينا أن نفرح لانتصاراتهم الكبيرة غير المتوقعة، وأما من مات في الحرب من أطفال ونساء وشيوخ فهو قدرهم لا محالة (لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون)، وما هدمته الحرب والهمجية الصهيونية لهو شاهد حيّ على حضور عنفوان غزة. كل ذلك لم يكن غريبا عن نفسية الشهداء والشعراء ومعنوياتهم العالية، ألم يقل شاعرنا الشهيد عبد الرحيم محمود:

فإما حياة تسرّ الصديق وإما ممات يغيظ العدا

لعمر الحق إن موت الضحايا في غزة يغيظ أعداء غزة الكثيرين، ولا يريدون أن يروا المسرة في عيوننا، يريدون لنا أن نغرق في أوحال هزيمتهم وضعفهم، ونتخبط في دياجير عهرهم السياسي.

إنها الشهادة التي تسرنا وتسر أصدقاءنا، مقدمة للحياة التي نريدها، ألسنا نحب الحياة ما استطعنا إليها سبيلا؟

من قال إن الحرب دون ثمن أو أن النصر سهل؟ فالحرب لا بد لها من ثمن، ولكنّ أفظع ما يمكن أن يناله منا العدو هو أن نحزن ونلطم، فالبشر يتوالدون، والشجر سينبت من جديد، والمباني ستعود أصلب، ولكن إن خسرنا أنفسنا وإحساسنا بقيمة فرحتنا الوجودية بالانتصار، سنكون قد أضعنا ما لا يمكن أن يعوض.

علينا أن نمارس حياتنا الطبيعية كما يجب، لم يكن حالنا أفضل قبل الحرب، إنها الآن أفضل مليون مرة، فالقتل لا يعني الهزيمة، القتل يعني الشهادة وقرابين لحياة نتشوق أن نعيشها. أستحضر ما قاله أحمد شوقي في نكبة دمشق عن المستعمرين الفرنسيين ويصدق على أحفادهم الصهاينة:

دَمُ الثُـــــوّارِ تَعرِفُـــــهُ فَرَنســـــا   وَتَعلَـــمُ أَنَّـــهُ نـــورٌ وَحَـــقُّ
جَـــرى في أَرضِـــها فيـــهِ حَيـــاةٌ   كَمُنهَـــلِّ السَـــماءِ وَفيـــهِ رِزقُ
بِـــلادٌ مـــاتَ فِتيَتُهـــا لِتَحيـــا   وَزالـــوا دونَ قَـــومِهِمُ لِيَبقـــوا
وَحُـــرِّرَتِ الشُـــعوبُ عَـــلى قَناهـــا   فَكَيـــفَ عَـــلى قَناهـــا تُســـتَرَقُّ؟

وأما بالنسبة لضياء الصواريخ فهي أنارت دروب أمة كاملة وليس حفلة عيد ميلادي فقط، و(الترتة) المقترحة في حي العزة والفداء- حي الشجاعية- ستكون ممتزجة برائحة مسك الشهداء لهي أجمل ترتة، فشكرا لاقتراحك.

هل كنت تريدين نصرا دون تضحية ودم؟ فأنت وأمثالك تشيعون في النفوس خورا وحزنا، نحن وفلسطين لا نستحقه، ودماء الشهداء أكرم من أن نحزن عليها يا امرأة لا تحسن القراءة، فكيف لها أن تدرك معنى أن تقهر الأعداء بحب الحياة؟ على الله تكون الرسالة قد وصلت... على الله.

غزة ومحظور البكاء المرّ

تغرق غزة بالدم، ولكنها لن توقع أحبابها في مصيدة البكاء المر، فمن يعرف غزة حق المعرفة لن يبكيَ عليها ولا على نفسه ولا على القتلى (الأحياء عند ربهم) وليس عندنا؛ لأننا حتما سنضيّع دماءهم كما ضيعنا دماء إخوانهم في حربين سابقتين، ودماء كل المناضلين والمجاهدين في فلسطين ليس فقط في التاريخ الفلسطيني المعاصر (1917) واطلع، بل منذ عهد أعمق في التاريخ.

لا أحد يبكي على غزة لا جرحا ذاتيا ولا جماعيا، فغزة تجلى بدمائها لأنها أصبحت فائرة الغضب، وهي تدفع ما زاد عن احتقانها في ظل صمت عالميّ ليس مخزيا بالمرة، لأنه طبيعي.

لا بد من أن تكشف غزة عن عزتها لتبدو أقوى وتسقي جذورها بالدماء لأنها ستصبح جذورا ممتدة في العمق وأغصانها في أعلى عليين... ليس كلام إنشاء مزوقاً، ولا تعزية إنها الحقيقة (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ).

غزة ليست قصيدة عابرة في كلام العابرين، ولا لطمية اللاطمين، ولا مطية اللاهثين وراء زعامة تجرّ أذيال خيبتها العربية، إنها أكبر من سفر خلود في أرض الخلود، إنها العصية المستعصية القاتلة بنزفها الطهور كلَّ رجس متخاذل مهووس بالخروج الإعلاميّ المقيت.

غزة ما زالت كما كانت مذ فجّرها الوقتُ غزةَ، لا تغير أمرها، ولا يتحولُ ناسها عن فطرتهم التي كانوا عليها، أشداء على المحتلين، رحماء بينهم، تراهم قابضين على الجمر، حِراصا على خوض المعارك، حرص الآخرين على النوم في سعار الفنادق، بيوتهم خنادقهم، وليلهم نهارهم، لا يضيئهم سوى الإصرار والحق المبين.

غزة الحياة، ومقبرة الغزاة، غزة البحر، الممتدة الأفق الذي لن ينكسر له خاطر ما دامت تسقي التراب نجيع الشرايين، فمن هذا المتصابي الغبيّ الذي

يجرؤ على البكاء على غزة؟ إنها المدينة الوحيدة التي لا تفرّخ المخنثين النسوانيين، وحدها الجامعة زهور الأطفال في سلال الورد لتقدمها قرابين للبحر والأغنيات.

من قال إن غزة تبحث عن نائحات لتبكي في جنائزها؟ إن غزة تخوض المخاض الأحمر الدموي كل حين ليولد المارد من جديد، ولتتزين عروسا بأبهى حلتها بعد أن تخرج من طقوس التعميد الطهورة فتصير أجمل وأنقى وأبهى.

أيها الجاهلونَ حقيقة المدن الأساطير، تدبروا جيدا لتعرفوا غزة. إنكم بعد لم تعرفوا أسماءها.

لماذا تسرق الحرب شعر الحب؟

ما الذي يشغل المحرر الثقافيّ عن الانشغال بالحب ونشر قصائد الغزل المشبع بالشهوة العارمة؟ إنها الحرب الطازجة القوية. هكذا قال لي معتذراً؛ فشهوة الحرب نشوة لا تقاوم أو تضاهى.

أوكرانيا دولة سيئة، وكذلك روسيا، لماذا أهتم بالحرب بينهما؟ عندنا ما يتخمنا من مرض الحرب والاحتلال، الجنود المدججون بالحقد لم يتركوا لي مساحة إضافية للحديث عن الحرب.

جرّبت اللغات فينا كل شيء، ولدتنا الحروب، ومنحتنا الموت والتشريد وجيشا كبيرا من الأسرى، وهدم المنازل والاستيلاء عليها، وقلع الأشجار، وإغلاق المدارس، واصطيادنا كالعصافير على فوهات البنادق.

لم تضف الحرب إلى قاموسنا أي لفظ جديد، هذه الحرب- كأية حرب- عقيمة بلا شك، في السرد لا شيء فيها مدهش أو ضروري، المشاهد كلها نعرفها منذ سبعين سنة أو أكثر قليلاً؛ اللاجئون والأطفال، ومراكز الإيواء، والإعانات، وحواجز الجنود، والتدقيق الدقيق في الأوراق، والوقت المسروق على الطرقات، كلها نعرفها أكثر من أوكرانيا.

هذه الحرب خدعة، لعبة النظام العالمي، صراع وثني بين آلهة تعبر التاريخ على جثث الأنبياء وتريد احتلال الأولمب لتكون زيوس العالم النووي. لا شيء لديّ هنا في فلسطين ما يدعوني لأقلق أو أهتمّ بالأخبار. إذا اتفق الفريقان وعاد اللاجئون إلى ديارهم والدول الكبرى أعادت بناء أوكرانيا وتبادلوا الأسرى سيظل وطني تحت الاحتلال وأسرى الجنون الصهيوني لن تغادر منفاها في صحراء النقب، وغزة محاصرة ومهدّمة، والعصابات القاتلة ستظل تستولي على عمري، لتنهيه في أية لحظة في أبسط سبب يدعو الجنود الحاقدين للدفاع عن أنفسهم خوفا من فراشة عبرت دون إذن جنودهم المسيطرين على الهواء. وأشد من ذلك ستبقى روسيا تدعم

الاحتلال في القدس وفي دمشق وتتقاسم مع أمريكا نفط العالم. وسيظل النظام الأوكراني منحازا إلى قاتلينا بكل وقاحة.

لا شيء يربطني إذاً بأخبار الحرب، اعتدت أن أنفيها من لغتي، ومن كتبي، لا أريدها أن تشاركني تاريخي الشخصي في الكتب أكثر مما كتبتُ، أقاومها بالحديث عن الحب؛ عن شهوتي لامرأة تركتني عن عمدٍ وأخرى أجبرتها الظروف على فعل ذلك، وأن أكتب عن امرأة تنصب أشراكها حولي وترنو إليّ لتنام معي، لا لتنسى الحرب بل لتُشبع مني شهوتها المحتدمة، هذه بالفعل قضيتي لأنسى الحرب وأهزمها لكي لا تدمر ما تبقى من خيالي المخصّب بالخيال، لأجل ذلك كله كان من الأولى لشاعر يعمل محررا أن يهتم بالحب، وبشعر الحب، لعله يساهم بزحزحة الحرب قليلا عن مشهد القراء في موقعه الإلكتروني الضخم ويسوّق للحب كي لا تصغر فينا شهوة الحياة القادمة. الحب أولى من الحرب في كل شيء حتى في اللغة.

آذار 2022

أسئلة من القرّاء

هل كتابة الشعر الرومانسي في ظل الحرب عيشٌ في كوكبٍ وحدي؟

جاء عتاب بعض القراء مستهجنا؛ إذ كيف يمكنني أن أكتب الشعر الرومانسيّ في ظل هذه الظروف: "من أين أتيت بهذه الرومانسية صباحا وغزه تنزف وجراحنا مفتوحة، يبدو أنك تعيش في كوكب وحدك". ودار بيننا حوار لم يكن طويلا لم أدافع فيه عن وجهة نظري، لأنني أرى أن مقاومة الاحتلال تتمثل في أن تقهره وتعيش طبيعيا، وتريه أنه لم يهزمك ولن يهزمك ولن يفلح في تحويلك إلى مجرد بَكّاءٍ على (حيطان) الفيس بوك.

تذكرت ما قاله الشافعي رحمه الله:

ولا تُـــرِ للأعــــادي قـــط ذلّاً فــإن شــماتة الأعــدا بــلاء

إن التعبير عن الروح المعنوية العالية في ظل هذه الظروف هو المطلوب، ولنؤجل البكاء ونَصْب المناحات وإحصاء زهور الشهداء بعد أن تهدأ الأمور، أما الآن فيجب أن نقول: إنها حربنا جميعا، نتابع ونهلل لتلك الصواريخ التي تأتي حسب توقيتها في وقتها، لتلقن الأعداء دروسا مرة، لم يكونوا يتوقعونها في مناهج الحروب التي أتقنت صناعتها سياستُهم في صفوف المعسكرات العربية الخائبة.

أعدكم ألا أرثي الشهداء بالقصائد الخائرة القوام، ضعيفة البنيان، لأنهم أقوى من كل قصيدة، وأوضح من كل صاروخ أكل أجسادهم القوية، وفتتها الصمت العالمي الرهيب. أعدكم أن أظل أكتب وكأنّ شيئا لم يكنْ، أكتب ما أكتبه لسيدة الروح لأننا معا (فلسطيني وفلسطينية، عربيان مسلمان، مقاومان)، لا نعرف الخور ولا يتسلل الضعف إلى أرواحنا، إنها أشد حنينا وحبا لفلسطين مني، ولذلك فهي أحق بالغزل في هذه الظروف فهي التي تحمي جبهتي الداخلية القلبية والفكرية من الانهيار، فهي مانعة صواعق روحي، تحيطني روحها بالأمان لئلا أحترق بنار الجنون.

أعدكم أن أظلّ أكتب عن الحرب في يومياتها وكأنها ليست سوى قدر إيجابي يكشف عن رجولتنا ويستدعي- إنسانيا- رومانسيتنا المتفتحة عبيرا، ويعبر عن أسطوريتنا التي فاقت كل التوقعات، أعدكم أن أظل كما أنا لن أبدّل أو أغيّر، وكيف لي أن أبدل أو أغيّر، وأنا لا أرى إلا فلسطين منارة مجد تتلألأ في سماء غزة الضاحكة بسخرية مُرّة من التهديدات المجنونة القبيحة لكيان قبيح، كان يسمى غاصباً، وسيظل يسمّى غاصباً.

أعدكم ألّا أرى كلّ ما نراه من خراب ودمار إلا عربدة غير قانونية تحكمها شريعة الغاب في زمان لا أخلاقي، وسأرى الدماء والأشلاء والأطلال وعداً من ربها بحياة جديدة، لتعود تنبت في السماء شجر حور يستظل بظلها ملائكة الرحمن وحملة العرش.

أعدكم أن أظل محدثا بشؤون قلبي، ولن يفتّ الظالمون من عضدي، لأنني أحب أن أعيش سيدا أليق بسيدة الروح، وسيدة القصيدة وسيدة الصباح، هما معا، فلسطين وابنة فلسطين وأنا ثالثهما سأكون كما يرجوان مني أن أكون لن أخذل لهما توقعا، ولن أضيع أمانة ولن أخون شرف الانتماء للطهارة المقدسة والحب الذي شربت صفوه من راحتيهما الشريفتين الطاهرتين طهارة دماء الشهداء، العابقتين عبق الزهور النابتة في ضفاف الروح العاشقة.

من رسائل الكتّاب

وصلتني ثلاث رسائل حول ما كتبته من حلقات "مساحة شخصية". اثنتان منها لكاتبة، تشرح فيه الوضع المأساوي الذي يعيشه الناس بالقدس. تضييق على الناس لأبعد مدى ممكن، فقد رأى العالم كيف منع الاحتلال بالقوة استقبال ذوي الأسرى والأسيرات المحررات في صفقات الهدنة السبعة، وطرد الإعلاميين من بيوت المقدسيين، ولم يسمح بأن يتحدث أحد من هؤلاء الأسرى والأسيرات، وكان قد طلب منهم عدم الحديث وإلا سيعرضون أنفسهم للاعتقال مرة أخرى. لكن تحدث بعضهم رغماً عن كل هذه الإجراءات.

لم تسمح سلطات الاحتلال بأي حركة أو جملة تشي أن صاحبها يعارض الحرب على غزة، ولم يسمح إلا بتظاهر أهالي الرهائن/ الأسرى المحتجزين لدى المقاومة، فقد اعتقلوا كثيرين بسبب منشورات لهم على الفيسبوك، موجها لهم تهما من قبيل دعم الإرهاب. أخبرني أحد الأصدقاء أنهم يعيشون وضعا أشبه بالوضع الذي كان في السنوات الأولى لقيام الكيان الغاصب، فقد عادت أيام الحكم العسكري، ومراقبة كل شيء.

بل وصل الحال إلى ما هو أسوأ؛ فقد منع الاحتلال الأطفال المفرج عنهم من العودة إلى مدارسهم في مدينة القدس، فقد ذكرت صحيفة العربي الجديد في خبر نشرته بتاريخ: 2023/12/5 في موقعها الإلكتروني أن "نحو 50 طفلاً محرراً بصفقة التبادل بين الاحتلال الإسرائيلي والمقاومة الفلسطينية، عممت إدارة سجون الاحتلال الإسرائيلي على إدارات المدارس التابعة لما تسمى بوزارة المعارف الإسرائيلية وبلدية الاحتلال في القدس، لضمان عدم عودتهم إلى الدراسة حتى إشعار آخر".

والآن أعود إلى تلك الرسائل، عارضا أولا رسالتي الكاتبة المقدسية دون ذكر لاسمها، مخافة أن يلحقها أذى جرّاء هذا النشر.

الرسالة الأولى: 2023/11/25

تحية وبعد، مقالات جميلة ومؤثرة، تحاكي هموم الوطن وأوجاعه، أبكتنا مشاهد القتل... أوجعتنا، أدمت قلوبنا، لا حياة تحت الأنقاض، ولا حياة للمكلومين، أنا أقرأ كل ما تكتب، ولكن لا أستطيع النشر، لساني مقطوع، ويدي مبتورة، مع أن الكتابة أضعف الإيمان، نحن بالقدس خاصة مهددون بالفصل من أعمالنا، وبالسجن وبدفع الغرامات إن علقنا على مجزرة اقترفها الاحتلال، أو أيدنا المقاومة أو... أو... وفرحنا بنصرهم وتحديهم الحصار.

الرسالة الثانية: 2023/12/5

السلام عليكم... بالنسبة للكتّاب، وخاصة كتّاب القدس وعرب فلسطين [1948] لم يتوغلوا في كتابة النصوص المعادية أو نشر الأحداث أو الصور، وكلنا مقصرون في النشر الفيس بوكي، لأننا مهددون بالفصل من أعمالنا، ودفع غرامات عالية، والاعتقال، أتعلم أن الجنود بالقدس يوقفون الناس ويجبرونهم على فتح هواتفهم للبحث عن منشورات أو صور للمقاومين أو.... وأتحدث عن نفسي هنا أنني ازددت اختناقا وكآبة وحزنا فوق حزني على ما آلت إليه غزة العزة، حتى الحسابات قيدت، كتبتُ الكثير ونشرت القليل للأسباب المذكورة، لعلمك أنني كتبت رواية حول الحرب في غزة من 2021-2023، وهي الآن في المطبعة.

الرسالة الثالثة من الكاتبة عبير قريب: 2023/12/6

حقيقة؛ قد وضع النقاط على الحروف حين وصف المقاومين... نعم هم كذلك، فأبناء العقيدة منهجهم القرآن... في الحرب، وغيرها من أمور الحياة... العدالة والمساواة والمعاملة الحسنة والأخلاق التي أمرنا أن نكون عليها الإسلام... وهذا ما يجب أن يكون.

لكن عندي ملاحظة ربما لم أستوعب بالنسبة لانتقاده للكاتب عزمي بشارة، في أثناء محاضراته التي تكلم فيها بهذا الأمر... هل خالف نظريته أم أنه نسب شيئاً لم يكن.... [لم أفهم هذه الملاحظة].

المقاومة بنيت على أسس اتبعتها في الحرب، وفي أدق تفاصيلها لهذا هي انتصرت... الله ساق لنا هذه البشر ليس فقط لتحرير غزة، بل لرفع شأن الإسلام عاليا. إننا حين نطالب بحقوقنا فإننا لا نضر إلا من يستحق ذلك... وهؤلاء الصهاينة لا يعرفون إلا لغة القوة...

كل الاحترام للكاتب فهذا المنهج الذي يكتب به... واضح كالشمس بريقه وصل لحد أنني استمتعت جدا بقراءته ليس لكوني فلسطينية فحسب، بل لأني مسلمة وأفتخر.

المساحة السادسة: العيش المقدّس في اللغة المركّبة

الثقافة في المواجهة

انضمت مجلة الليبي التي تصدر عن مؤسسة الخدمات الإعلامية بمجلس النواب الليبي إلى مجموعة من المطبوعات الدورية والفعاليات الثقافية العربية والعالمية التي انتبهت إلى ما يحدث في فلسطين من حرب همجية، انهارت فيها كل القواعد والقيم الدولية والإنسانية، فصدر العدد (59- نوفمبر 2023) من المجلة ملتفتاً وبقوة إلى فلسطين، بدءا بالغلاف، حيث لوحة للفنان الفلسطيني سليمان منصور، ومعرّفاً به تعريفا مختصراً، وعنوان العدد "طائر الفينيق الفلسطيني".

خصص رئيس التحرير الدكتور الصديق بودوارة المغربي كلمة العدد للحديث عن فلسطين والحرب التي يشنها الاحتلال على غزة، بدأ الافتتاحية بتلك المفارقة العجيبة؛ فمن يهتمون من الغربيين بالقطط والصحة النفسية والبيولوجية للقطط، يتجاهلون أطفال غزة وأهل غزة، فكأننا لم نصل بعد إلى مرتبة قطة غربية يسعى الغربيون إلى رفاهيتها، فهم لم يروا أطفال غزة وإن كانوا رؤوا القطط والتفتوا إلى دلالها والحرص عليها.

وفي هذا السياق من المسألة اليهودية، يستعرض د. المغربي مجموعة من الأعمال التي تناقش صورة اليهود في الأدب، ويبدأ من كتاب ممدوح عدوان "تهويد المعرفة" ثم يعرج على كتب إبداعية أخرى ليرصد صورة اليهود في الأدب الغربي، وصولا إلى تغيير الصورة من السلبية جدا إلى الإيجابية جداً منذ القرن التاسع عشر والتحول في النظرة الغربية المسيحية تجاه اليهود في أوروبا عند السياسيين وعند الكتاب، وضرب لذلك مثالين، الأول نابليون الذي يمكن أن يعدّ صاحب أول وعد لليهود بحق امتلاك فلسطين والعيش فيها بأمان، والثاني الشاعر الإنجليزي جورج بايرون الذي كتب مجموعة "قصائد عبرية".

كما ينشر العدد لوحتين فنيتين واحدة للفنان الفلسطيني رائد القطناني، والأخرى للفنانة الليبية نسرين الحمر، وتجسد اللوحتان البعد الفلسطيني؛

فالمرأة في لوحة القطناني ترتدي الزي الفلسطيني التقليدي (المطرز) والشال الأبيض (اليانس)، وبين يديها مشغولة يدوية (صنية قش) تضع فيها القدس، وتنظر نحو اليمين بملامح فيها الكثير من الترقب والتوجس. أما لوحة الحمر فتستوحي مأساة الأطفال في غزة، حيث يبدو مجموعة من الأطفال والطفلات يتناثرون في فضاء اللوحة بفعل ما تتعرض له غزة من حرب إبادة جماعية، اخترق فيها الكيان الغاصب كل الأعراف والمواثيق الدولية على مستويين؛ العسكري الممنهج المتخذ من اعلى قمة في الهرم السياسي الصهيوني، والتصرف الفردي الذي انتهجه الأفراد الداخلون إلى بيوت الغزيين بهيئأة جنود، وسأذكر بعض الأمثلة في نهاية هذه الكتابة.

كما شمل العدد وقفة مع كتاب الفيلسوفة الألمانية حنة أرندنت "أيخمان في القدس- تفاهة الشر" حيث يستنتج الكاتب الأردني معاذ بني عامر ثلاثة ملامح لتفاهة الشر في هذه القضية، يلخصها في ثلاث نقاط، وهي: تفاهة أيخمان نفسه بوصفه ممثلا لنظام عبثي، وتفاهة إسرائيل نفسها بصفتها "ضد إنسانية" في أمرين؛ في اختراقها القانون الدولي عندما اختطفت أيخمان من الأرجنتين، والأمر الثاني تفاهة النظام القضائي الذي حاكم إيخمان وإدانه بما أدين فيه، وتم إعدامه. وأما التفاهة الثالثة فكانت "تمثل الشر كقيمة أخيرة تحتكم إليها إسرائيل" وتركز في المحاكمة على أن أيخمان ارتكب جرائم ضد اليهود وتجاهل الإشارة إلى جرائمه ضد غير اليهود. وفي نهاية وقفته يشير إلى أنه قد تم "رجم حنة أرندنت كما لو كانت شيطاناً. فقد اقتبست- دون قراءة كاملة للمحتوى- فقرات من كتابها" الذي لم يترجم كاملا إلا مؤخراً.

وللتوضيح: وقعت حادثة أدولف أيخمان الموصوف بأنه "مرتكب الهولوكوست الرئيسي"- كما هي مكتوبة في الويكيبيديا- عام 1960. اختُطف أيخمان من الأرجنتين ونُقل إلى الكيان الغاصب لمحاكمته، بدأت المحاكمة في 1961/4/11، وبُثت عبر التلفزيون بهدف التثقيف حول الجرائم

المرتكبة ضد اليهود، اتهم أيخمان بخمسة عشر تهمة بانتهاك القانون. وترأس المحكمة ثلاثة قضاة: موشيه لاندو وبنيامين هاليفي ويتسحاك رافيه. أُدين أيخمان في جميع التهم وحُكم عليه بالإعدام. أُعدم شنقاً في 1962/5/31 في سجن الرملة، ويعد هذا حكم الإعدام القضائي الوحيد الذي نفذه الصهاينة إلى الآن. ولعلهم يحضرون أنفسهم لإعادته مرة أخرى، إذ طالبت بعض الأصوات المتطرفة الصهيونية بسنّ قانون يتيح إعدام "المخربين" الفلسطينيين، كما يصفون المقاومين والأسرى.

كما تنشر مجلة الليبي في هذا العدد بحثا للكاتب الفلسطيني محمد الحزماوي يتناول فيه "النقود العثمانية" في مدينة القدس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1850-1900)، والحلقة الثانية من "مساحة شخصية" للكاتب فراس حج محمد، وتدور حول "الأدب في ظل الحرب"، ومقالة للكاتب الليبي أحمد ناصر اقرين بعنوان "هيا نواسي الصهاينة"، مقالة ذات ملامح ساخرة، وتذكر بتاريخ نشأة الكيان الغاصب على أرض فلسطين منذ 75 عاماً.

ويؤشر دخول المجلات الأدبية والفعاليات الثقافية إلى خط المواجهة مع الاحتلال إلى دور الثقافة الفاعل في الحرب، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تدخل المجلات إلى هذه الساحة من التوثيق والمقاومة بالفكر والأدب، فعلى سبيل المثال لا الحصر، خصصت عام 1973 مجلة الآداب البيروتية لحرب السادس من أكتوبر المجيد عددا مزدوجا (11 و12) نشر في ديسمبر (كانون أول) بعد أن توقفت المجلة عن الصدور في أكتوبر بسبب الحرب، وضم العدد مواد متعددة لنخبة من كتاب ذلك العصر من مصر ولبنان والعراق وسوريا وفلسطين والجزائر والسعودية وتونس واليمن الديمقراطية والكويت والسودان والمغرب وليبيا، وجاء العدد تحت عنوان "أدباؤنا في المعركة".

لقد كان الشاعر العربي- بوصفه المنبر الثقافي الأقوى- قديما أحد أركان الحروب، فقد صارت اليوم المنابر الثقافية جزءا من هذه الحروب، لا سيّما والعالم يعيش حرباً غير عادية، أرجعت غزة إلى ما قبل الغاز والكهرباء والمواصلات الحديثة، حيث غزة اليوم تعاني من كارثة إنسانية بكل معنى الكلمة، بعد أن طالت الأعمال العسكرية الهمجية للاحتلال كل الوجود الفلسطيني، من البشر والحجر والشجر، والتراث الثقافي الفلسطيني، فاستهدف الاحتلال الأماكن الأثرية في غزة، فدمّر مبنى الأرشيف المركزي بمدينة غزة، وأعدم آلاف الوثائق التاريخية، وقصف المسجد العمري، أقدم مسجد في قطاع غزة، فضلا عن استهدافه النخب الثقافية من علماء وشعراء وفنانين ورؤساء جامعات.

إنها حرب مفتوحة على الكيانية الفلسطينية بكل ألوانها واتجاهاتها لتدميرها ومحوها بالكامل، مع ما يتفق ومفهوم "الإبادة الجماعية"، لتوفر القصد والنية لإنهاء هذا الوجود الفلسطيني الحضاري والعرقي على أرض فلسطين التاريخية، وما يصاحب ذلك من تحريض الاحتلال على القتل والعنف والتخلص الكامل من الفلسطينيين في الأوساط السياسية والثقافية والإعلامية، ليبدو أمرا ممنهجاً فكريا راسخا وليس أمرا عرضياً مؤقتاً.

ولم يكن الصهاينة وحدهم في هذه الحرب، بل أمريكا والغرب بقضه وقضيضه معها، يحاربون الشعب الفلسطيني سياسيا وعسكريا وثقافياً، ويعيدون معنا التجربة ذاتها في حربهم على روسيا، فلم يكتفوا بالحرب العسكرية والسياسية، والدعم المطلق لأكروانيا، بل توجهوا إلى تدمير الثقافة الروسية ومحاصرتها ومنع تداولها، وها هم اليوم يفعلون الشيء ذاته، إذ يحاصرون الثقافة الفلسطينية ويعملون على محاصرتها ومحوها وإزالتها، والأمثلة كثيرة، فلم تكن الكاتبة عدنية شبلي نموذجا وحيدا ولا حالة فردية عابرة، إنها منهج مدروس ومتقن من أجل أن نهزم هزيمة نكراء، سياسية وعسكرية وثقافية.

لهذه السياسة القابعة في عقل الاحتلال الصهيوني والمؤيّدة دولياً على أعلى مستوى، تجليات واضحة في هذه الحرب بدت في السلوك الثقافي للأفراد أيضاً، فقد رأيناها في مشاهد التشفي الانتقامي الهمجي من أفراد الاحتلال الداخلين إلى غزة، حيث يذكرون العالم بهمجية التتار والصليبيين، فما قام به هؤلاء لا يفعله أفراد الجيش المنظمين التي تحكمهم القواعد والأعراف، فكيف يمكن تفسير إهداء أحد هؤلاء ابنته في عيد ميلادها هدية؛ تفجير منزل في غزة، أو سرقة أحدهم حلية فلسطينية ليهديها لصديقته على الهواء مباشرة، هذا غير سرقة الأموال والمتاع؛ فالكل شاهد أحد هؤلاء المجانين العبثيين الهمجيين وهو يعزف على جيتار سرقه من أحد البيوت، وتشاء الصدف أن يتعرف عليه صاحبه الشاب حمادة نصر الله الذي قال: "إنه الآلة الموسيقية الوحيدة الباقية له من ذكرى أبيه". هذا الشاب الذي أجبر على الفرار من منزله في شمال غزة إلى جنوبها.

وهذه مجرّد أمثلة، لم أقف عند تحليلها بالكامل وما تدل عليه في سياقها الثقافي الأشمل، لكنها من المؤكد رجع لحرب شاملة، تحكمها الأيديولوجيا، وتنفذها أدق أسلحة التكنولوجيا، واتفق فيها العالم على شعب أعزل، لا شيء يدافع به عن وجوده إلا بلحمه وبثقافته، فهل سيجديانه نفعاً أمام عبقرية الموت السريع في غزة؟

مملكة الزّيتون والرّماد

حرّر الرّوائيّ الأمريكيّ مايكل شايون وزوجته إيليت والدمان كتاب "مملكة الزّيتون والرّماد"، ومن المتوقع له أن يصدر باثنتي عشرة لغة، وأمّا الطّبعة العربيّة فقد صدرت في مدينة حيفا، وقام بترجمتها ربى سمعان، ونبيل أرملي، وساندرا أشهب.

ساهم في كتابة نصوص هذا الكتاب أكثر من عشرين كاتبا من جنسيّات متعدّدة، يرصدون من خلال زيارات ميدانيّة في الأراضي الفلسطينيّة صورا لمعاناة المواطنين الفلسطينيّين تحت الاحتلال الإسرائيليّ، والتّمييز الّذي يتعرضون له، وسوء المعاملة الّتي تميز سلوك المحتلّ مع المواطنين، وتعرض صورا للمحاكمات الجائرة في المحاكم الإسرائيليّة.

تأتي أهمية الكتاب بفكرته الرّائدة في أنّه يفضح السياسات الإسرائيليّة بأقلام نخبة من كبار الكتّاب الذين يتمتّعون بمكانة أدبيّة رفيعة عالميّا، وفي أنّ منهم أمريكان وإسرائيليين وعربا، اتّفقت آراؤهم جميعا في إدانة الاحتلال، ولذلك فهو يندرج في باب كسر الطّوق المحاط بالرّواية الفلسطينيّة، ويؤيِّد روايته الّتي يؤكّدها الواقع المعيش بكلّ تفاصيل الحياة اليوميّة الحافلة بالموت والخراب والإلغاء والإقصاء، من أجل مجموعة عرقيّة أو دينية أخرى تمارس على أصحاب الأرض الشّرعيّين أعتى عمليّة إلغاء تاريخيّ وإحلال جغرافيّ ممنهج، لمحتلّ لا يحفل بأيّ أعراف إنسانيّة أو قوانين دولية تدين هذا الاحتلال وتجرّمه في العديد من القرارات الدوليّة الّتي ضربت بها دولة الاحتلال عُرض الحائط.

على النخب الثقافية الغربية الواقفة مع الاحتلال في حربها الهمجية هذه على الشعب الفلسطيني أن تقرأ هذا الكتاب/ الوثيقة التي تقول بأقلام وأفكار النخب الثقافية الغربية ما عجزت أن تبوح به تلك النخب المضللة التي أخذت تروج ما تروج من أكاذيب ضد الشعب الفلسطيني وأبنائه ومناضليه. فالمسألة الفلسطينية لم تبدأ في السابع من أكتوبر، ولم تولد المشكلة فجأة

هكذا دون سابق إنذار فقبل هذه الحرب الشرسة، كان هناك عشرات الحروب على فلسطين منذ عام 1917، على العالم أن يفتح عينيه ليرى ذلك التاريخ الدموي وغير الإنساني للاحتلال مع البشر والشجر والحجر.

وليس حباً بالركض وراء السجع والكلمات المتشابهة عندما أعيد وأكرر البشر والشجر والحجر، بل إنها لحقيقة ماثلة يرى كل من يقرأ كتاب "مملكة الزيتون والرماد"، ففيه صور المعاناة التي طالت الناس وأشجارهم وأحجارهم؛ مبانيهم ومنشآتهم، فالكاميرا الغربية الإعلامية ترى القتل، وترى قلع الشجر، وترى هدم البيوت، في فلسطين. فكيف تغضّ الطرف إذاً عن تلك الجرائم وتسكت عما يجري في غزة اليوم من تدمير شعب كامل؛ إنسانا وحجرا وشجرا وتاريخاً وحضارة. إنه نوع من التواطؤ المجرّم المرفوض الذي يجعل كل صاحب ضمير يسأل نفسه: لماذا هذا الصمت المريب المريع على كل هذه الجرائم؟

هموم شخصيّة ذات طابع ثقافي

1

في الحرب، كما هو حادث الآن (ما بعد 2023/10/7)، أحاول أن أجد كل يوم مساحة شخصية، أبعد فيها- ولو من باب الوهم- عن الأحداث التي تدور فيّ، ومن حولي، وعلى شاشات الإضاءة كلها الصغيرة والكبيرة.

أتربع في سريري وحيداً، لا أنظّم شيئا، أترك الوقت يمرّ هكذا دون هدف أو غاية أو نية لقتله أو تعبئته بأي شيء مفيد، ألوذ إلى تلك "الفيديوهات" القصيرة، أستمع لكثير من النكت، من الحكم، من الموسيقى، من الأغاني، أراسل النساء أحياناً، فأرسل لإحداهنّ مقطعا أذكرها بعلاقة ما أو موقف ما. لا تبادلني تلك النساء الرسائل. مشغولات مثلي بشيء ما، هربا من الحرب أو غوصا بها. أو ربما يغصن مثلي في مساحاتهنّ الشخصية البيضاء. هل تترك الحرب لأحد مساحة بيضاء؟

في الحرب- كما هو حادث الآن- يقلّ الأصدقاء كثيرا، لا أحبّ أن أتحدث إلى الآخرين، أحب ألا أستمع إلى الأخبار، فقط أستلقي على ظهري، أحدق في سقف غرفتي، لا أرى شيئا سوى ما يضجّ في أفكاري، ويصطرع في داخلي. تعود رغما عني مشاهد الحرب، الأشلاء، الدمار، سحب الدخان، تهاوي الأبنية، صراخ الأطفال، صور من استشهدوا في العدوان.

2

في هذه الفترة اليومية الروتينية من مساحتي الشخصية، أتذكر كثيرا من أصدقائي في قلب العاصفة، في قلب غزة، أتابع من صار شهيدا من الكتّاب والشعراء والفنانين والمثقفين، كثيرون صاروا شهداء. تخطفتهم يد الموت الطويلة. لا أستطيع أن أتصل بهؤلاء الأصدقاء الباقين على قيد الحياة المؤجلة، أو حتى مراسلتهم، أخشى من شيء ما. فقط بصمتٍ، أتفقد صفحاتهم الفيسبوكية الشخصية، أطمئنّ أنهم ما زالوا هنا، لم ينعهم أحدٌ

بعد، لكنهم صامتون لم يكتبوا شيئا. كيف يكتبون وهم بلا كهرباء أو اتصال أو إنترنت؟ بل كيف يعيشون وهم تحت القصف، بلا ماء، ولا غذاء؟ شهداء مع وقف التنفيذ. هذه الحقيقة المرة التي نعيشها جميعا.

في الفترة الأخيرة، في ظل الحرب طبعاً، قبل أيام فقط، كدتُ أكون في عداد القتلى، خطأ في التقدير وفي المعلومات، لو خطت بنا السيارة لفة عجل واحدة إضافية لانفتحت علينا الرشاشات. كنت برفقة ولديّ، أحدهما هو من يقود السيارة، والآخر طفل جالس في المقعد الخلفي، التقطناه عن طريق عودته من المدرسة ليكون رفيقنا في رحلتنا، هو وحقيبته المدرسية. بين كل ثانية وأخرى كاد الموت ينفلت من فوهات البنادق المصوبة تجاهنا. رحمة الله الواسعة أجلتنا إلى حين.

3

في غزة، لا تؤجل الحرب أحدا. أتابع في هذا الوقت ما لم تقله الفضائيات، الحكايات الشخصية، القصص التي تفتح مسارب الدمع غصبا عن كل هذا التجلُّد الذي نتصنّعه ونحن نتحدث عن الشجاعة والقوة والصمود في وجه التنين النازي. أحب أن أتحدث عن هذا الجانب كثيراً. أنفق وقتا طويلا مع ضيوف الحرب الذين يزورونني. نبدع في التحليل والتصوير وإعادة رسم المشاهد والسيناريوهات. لكن ثمة ما هو ضائع في استوديوهات التحليل الإخبارية؛ الناس والقصص.

كل يوم في الحرب تأتيك قصة أبلغ من سابقتها، قصة يوسف الأبيضاني الحلو اللي شعره كيرلي. هذه قصة مبكية، ليس لأن يوسف أبيضاني وحلو وشعره كيرلي فقط، بل لأن كثيرين مثل يوسف أبيضانيون و"حلوين" وشعرهم كيرلي، وربما كانوا سمرا وشعرهم ليس "كيرلي" لكنهم "حلوين" بالتأكيد. كل الشهداء جميلون، "كأنّ أجملهم بالموت قد فتنوا"، فقد تخير الموت أجمل "الحلوين"، فيا لله كيف "اختار واسطة العقدِ"؟ كل شهيد

واسطة عقد أبيه وأمه وأسرته. يا للحسرة وقد ذهب العقد كله، بواسطته وحباته، وحبله. هذه الحرب فعلت فعلها.

ثمة صدفة غير جميلة، الحلو الأبيضاني اللي شعره كيرلي، اسمه يوسف. يوسف الفلسطيني الغزاوي الذي مات وحيداً، تخلى عنه إخوته، يريدونه أن يموت لكي يمدحوه. وها هم يمدحونه في كل جغرافيا العرب. لكنهم لم ينقذوه. يوسف غير محظوظ باسمه، ضحية اسمه وموقعه وجماله. ذهب يوسف وبقيت قصته وجملة أبيه وأمه. أخشى أن يأتي زمان ويقال: كان هنا شعب جبار قاوم التنين، كان شعبا "حلو وأسمر وزنده قوي" قتله المحيطون فيه. لم يقتل بسبب العدوان التوراتي عليه وحسب. بل قتله إخوته يا يوسف، يا أبيضاني ويا حلو، ويا "بو شعر كيرلي".

4

في هذه المساحة الشخصية كنت أحاول أن أنسى. أفكر بالكتابة، ماذا سأقول؟ فلا شيء جديد. في حرب سابقة (2014/ 2015) كتبت ديوان شعر، استمرت تلك الحرب (51) يوماً، وأخذت أكتب باستمرار، فصارت الكتابة ديوانا كاملا "مزاج غزة العاصف". في هذه الحرب كتبت فقط قصيدة قصيرة أسميتها "تعويذتان للزمن الفلسطيني". القراءة حظها معدوم، لا رغبة لي في شيء، أريد أن أسمع، أزجي الوقت، أقتله ليمضي، وتتتابع أيامه، لأصحو وقد توقفت الحرب.

عدتُ إلى بعض مشاريع الكتابة النائمة المجمّدة. أخشى أن تقتنصني الفوهات العمياء قبل أن أنجز شيئا، فقد نجوت من براثنها قبل أيام. إذاً، لا بد من أن أنجز شيئا، وإن كان تافهاً لأواجه الموت به. كثيرون مثلي أجّلهم الموت لظرف آخر، عليهم أن يعملوا قبل أن يموتوا.

ديوان مؤجل، بعنوان "في أعالي المعركة" أعود للعمل عليه. ديوان لكل القصائد التي كتبتها في فلسطين والشهداء والحرب. المعركة طويلة ولدت

قبل أن يولد أبي رحمه الله، وأخشى أن أموتَ أنا قبل أن تموت هذه المعركة المشتعلة منذ خمسة وسبعين عاماً. ما الحلّ غير الصواريخ ومجابهة الموت بالموت؟ أيصلح أن يكون الشعر حلاً؟ أحيانا أراني- ومعي كل من يرى ذلك- كم نحن ساذجون وأميون وتافهون. شعر يقابله الموت! أي تفاهة في هذا المنطق؟

في الحرب صدر ديواني "في أعالي المعركة" وكتاب "تصدّع الجدران- عن دور الأدب في العتمة"، وعلى مشارف الحرب، قبل أن تبدأ بأيام صدر كتابي "في رحاب اللغة العربية"، لا وقت لغير الحرب والشهداء، نُشر تقرير عن الكتاب، على نطاق ضيق. ثمة مادة حول الكتاب طلبت مني محررة صحيفة "الحدث الفلسطيني" الشاعرة رولا سرحان تأجيل نشرها. بالفعل كنت خجلا مترددا عندما أرسلتها للنشر، لم تنشر بعد، لأن الحرب ببساطة لم تغيّر أمزجتها وتموت أو تنتهي أو تخمد إلى حين.

"ليس الوقت وقت هذه الموضوعات" على الأقل عندنا في فلسطين، وفي صحفنا ومنابرنا الخاصة. فإذا تأجل كثير من الفعاليات العربية أو ألغيت بسبب الحرب، فكيف لنا نحن الفلسطينيين أن نفكر خارجها؟ أخجل من الحديث خارج الحرب.

ثمة كتاب آخر لي صدر ولم أعلن عنه، خجلا من الحرب. كتاب "سر الجملة الاسمية". الخجل يلفني وأنا ألتفت لخصوصياتي، فماذا ستساوي هذه الكتب أمام معركة المصير المفتوحة في غزة. أفكر في السؤال القديم الجديد لماذا نكتب نحن الشهداء مع وقف التنفيذ؟

5

أعدّل في نظريتي كثيرا أقلبها رأسا على عقب. أرى الموت مهزوما بالفن والشعر والموسيقى والأدب. ألتفت بفعل الحرب إلى "جمهرة الشعراء الفلسطينيين الشهداء"، منذ عبد الرحيم محمود شهيد معركة الشجرة، إلى

علي فودة- شاعر الرصيف- شهيد معارك المقاومة في لبنان، إلى الشاعرة الشهيدة الغزاوية هبة أبو ندى.

هبة شاعرة شابة، جميلة الجملة، ذات إصدار واحد- هذا ما تقوله صفحتها على الفيسبوك- رواية "الأكسجين ليس للموتى". لا إصدار آخر لهبة. لكنها كانت تشارك بأنشطة الثقافة الغزاوية والافتراضية.

في هذه المساحة الشخصية تأخذني الشهيدة إلى صفحتها. صديقة افتراضية عندي، لم أنتبه لوجودها، ككثيرين غيرها، مثلها ومثلهنّ. أقرأ كثيرا في صفحتها الشخصية، ثمة ما يوجع القلب هناك.

هبة تتخذ من الكتابة الهادفة شعاراً: "إن الكتابة كالصيامِ، فلا تكونُ بغير نيّة"، هذا بيت يتيم ليس له ثانٍ، جعلته هبة شعارها في صفحة الفيسبوك. تتابع الحرب، والشهداء، وتكتب عنهم، لم تكتب عن يوسف "الحلو الأبيضاني اللي شعره كيرلي"، لأن الصواريخ لم تمهلها لتكتب عنه، يرحلان معاً في اليوم ذاته، "شهيدة وشهيد".

صورة (بروفايل) هبة، تكاد تكون صورتها الوحيد في صفحتها، وهي المتداولة على نطاق واسع في أخبار النعي لدى الأصدقاء، بالكاد تعثر على صورة أخرى. شاعرة غير استعراضية، تعتمد النص والكتابة هوية.

مع واحدة من صورها القليلة التي بالكاد تعثر عليها؛ وهي واقفة مشغولة بإلقاء نص في أمسية شعرية، كتبت ندى بمرافقة الصورة: "لماذا نكتُب الأشعارَ؟ فتجيب:

"للحزنِ المعشعشِ في تفاصيل الحمائم.

لحقٍ في الأغاني ليسَ يسقطُ بالتقادم!

وللأحلام!

حيثُ الكلُّ في وطني برغمِ الموتِ حالم!"

هكذا تكتب هبة عن الموت والكتابة معا في 25 يناير 2019، ما بين تاريخ الكتابة وتاريخ الشهادة ما يزيد عن أربع سنوات. رأت فيهما هبة الموت، فأجّلها ليومها المشهود هذا. نعت صديقتها مريم التي اختلفت معها في الرأي فتتأسف كثيرا لذلك: "ارتاحت مريم من التعب ارتاحت للأبد، آسفة يا مريم على كل مرة اختلفنا بالرأي أنا وأنت آسفة كتير". نعت مريم، وبعد يوم واحدٍ ينعاها أصدقاؤها، "شهيد يودع شهيدا"، وهكذا هي غزة. بل هكذا هي فلسطين.

في هذه المساحة الشخصية لهبة أبو ندى أيضا كتبت آخر ما كتبته مفعمة بالأمل الذي تريد أن "ترفع القبعة" له: "نحنُ في غزة عند الله بين شهيد وشاهد على التحرير، وكلنا ننتظر أين سنكون". لقد اختار لها الحقّ أن تكون شهيدةً، لا شاهدة على التحرير، لكنّ ما كتبته سيكون شاهدا مؤكدا على التحرير.

6

اليوم (2023/10/21)؛ أبدأ فيه الكتابة عن الحرب، والحرب تدخل يومها الخامس عشر، اليوم هو يوم السبت، تزداد المساحات الشخصية الممحية من عوالم غزة، لتزداد مساحتنا نحن القابعين في الجهة المقابلة لهذا العالم المشويّ باللهيب الأمريكي. نحزن ولا نموت، ونكتب ونهرب، ونشتم الموت، ونلعن أمريكا والغرب. كم سيموت من الأصدقاء في قابل الأيام؟

إن توقفت الحرب، فمن نجا، فقد نجا بأعجوبة، فعليه أن يكتب تاريخ ميلاده من جديد، ليحتفل! هل فعلا سيحتفل؟ هل الحياة نعمة في ظل هذا الخراب؟ أي نعمة منتظرة والناس ستصحو لتعد القتلى، وتتفقد الجيران والأصحاب والأقارب؟

لا شك في أن الحياة أكبر من الموت. والعنقاء ستنهض من ركام الموت مرة أخرى، كما نهضت سابقاً، وسيولد ألف يوسف جديد أبيضاني وحلو وشعره كيرلي، وستنبغ ألف شاعرة على وقع الشاعرة الشهيدة هبة أبو ندى، وسيكثر الرسامون والفنانون، وستعود الحياة لتواصل مسيرتها، وستظل غزة شاهدة شهيدة، لكن سيظل الفلسطينيّ وحيدا، ليس له غير نفسه، ف "ما حكّ جلدك مثل ظفرك، فتولّ أنت جميع أمرك". وليس لأحد الحق في القرار سوى هذا الفلسطيني المعبأ بالحرب والشظايا، يقاوم كل حين بالمتاح من الحياة، كما يقاوم بالمتاح من السلاح، كما أنه أيضا يقاوم بالمتاح من الكتابة والشعر والفن والموسيقى.

لماذا علينا أن نقاوم بالأدب أيضاً؟

منذ عام 1917 ونحن نعيش المفارقة ذاتها، كلما ضاع جزء من الوطن لجأنا إلى الكتابة، كلما نزفنا دما خلطنا تلك الدماء بأعصاب اللغة، في الأسر نضيء العتمة باللغة، في مقابر الشهداء نعلق اللغة مصابيح على النعوش الراحلة، لقد أثقلنا اللغة بما فيه الكفاية. ما الحلّ غير اللغة؟ لست أدري، بالفعل، هل نعيد مقولة المتنبي "فليسعد القول إن لم يسعد الحال" على ما يحمل هذا القول من مفارقة أخرى، فالقول لن يسعدنا بالتأكيد؛ لأن الحال لن يسعدنا، فالواقع يزداد سوءا يوما بعد يوم.

هذه الحالة التي نعيشها بكافة فئاتنا، وعلى امتداد أكثر من مئة عام، حالة سياسية فريدة ومتفردة في غرابتها، خلفت الكثير من النصوص، وكأنها تبني وطنا بديلا في اللغة، إنها حالة من المفارقة المؤلمة التعيسة. يكفي لانتهائها أن نقول أرجعوا لنا فلسطين، وخذوا اللغة وما أنتجته، لا نريد شعرا ولا قصة ولا لوحة ولا لحنا، نريد الأرض لنعيش عليها بسطاء كما كنا، نزرعها وننام على أرضها تحت زيتونة من زيتوناتها. لقد صارت اللغة متراسا لنا نحن الضعفاء.

ولكن من قال إن اللغة سلاح الضعفاء فقط، أليست سلاحا للحضارة والتعبير عنها؟ وبالتالي فهي سلاح للقوة، سلاح للمقاومة وليس للندب، سلاح للتوثيق وبناء ذاكرة حيّة للشعوب، فلا شعب حيّ دون ذاكرة حية، وعليه فكل النشاط الفكري والفلسفي والإنتاج الأدبي والفني بأشكاله كافة له هذه الدلالة العظيمة على الشعوب الحية.

ويتخذ الأدب الموقع الأهم، نظرا لديناميته المستمرة، وارتفاعه بالواقع إلى التجريد الذهني ليصبح كليات وقواعد وحكماً، وما كل تلك الأحداث إلا تجليات لكل تلك الفلسفات المتولدة عنها، لا سيّما إن كان الصراع الموضوع به شعب ما صراع متعدد الوجوه، فليس هو صراعا سياسيا فقط، وليس هو صراعا دينيا فقط، وليس هو صراعا على التاريخ وروايته فقط، وليس هو

صراعا على احتلال الأرض وحسب. إنه كل هذا وأكثر. هكذا باختصار هو صراعنا مع الاحتلال الصهيوني الإسرائيلي الباطش فينا أرضا وفكرا وإنسانا وحجرا وشجرا، برا وبحرا. إنه نوع من الصراع الشامل الأيديولوجي المفتوح الذي يتطور نحو التعقيد كلما طال أجل هذا الصراع الذي تحوّل إلى أن يصبح صراعا على الوجود نفسه، "نكون أو لا نكون".

من هنا اكتسبت المدونة الأدبية الفلسطينية أهميتها في توثيق الأحداث التي تعصف بالفلسطيني، سواء أعصفت على أرضه أم في الشتات، فالذات الفلسطينية الفردية والجماعية والحضارية الكيانية هي المستهدفة، فمن الطبيعي إذاً أن تكون المجازر التي حدثت في فلسطين وفي الشتات إحدى العبقريات الصهيونية للتخفيف من كثافة الوجود الفلسطيني على أرضه أولا، وثانيا في مخيمات الشتات، وثالثا استهداف القادة والعظماء أينما وجدوا.

إن القتل الجماعي والفردي بوصفه تجليا استعماريا تقليد مستقر في ذهنية المستعمرين، كل المستعمرين على اختلاف الزمان والمكان. ويصرّ الاستعمار عليه في حالة كونه استيطانيا إحلالياً، فلا بد إذاً من عمليات تطهير عرقي ممنهجة تتم على فترات ليسهل ترسيخ واقع جديد بمنظومات سياسية عالمية وإقليمية داعمة.

هذه العقلية الإحلالية الوحشية البشعة هي التي كانت العقل المدبر الذي بسبب فاعليتها في عقل السياسي الصهيوني حدثت العديد من المجازر قبل إعلان ولادة الكيان الغاصب وبعده، وتم تدمير حضارة كاملة، كان قد بناها الفلسطيني بفعاليته العبقرية المتجذرة في التاريخ، بناها في الثقافة وفي السياسة وفي التربية والتعليم وفي الموسيقى والمسرح وفي التجارة وفي المعاهد العلمية وفي العمران وفي الزراعة، وفي النشاط الرياضي وفي الأنشطة المجتمعية الأخرى، فقد كانت فلسطين محط أنظار التجار والفنانين والشعراء وطلاب العلم. ولم تكن بالتأكيد أرضا بلا شعب، ليستوطنها شعب

بلا أرض. ويا للمفارقة التي تحدثها المجازر، حيث يتأكد مع كل فعل إجرامي يهندس مجزرة جديدة كذب ذلك الشعار المعبأ بالدم والكراهية. فالمجزرة ذات هدف واحد ووحيد هو "التطهير العرقي"، وتفريغ الأرض من سكانها، إن المجازر تكذّب الدعوى وتؤكد الحقائق التاريخية.

ماذا حدث لفلسطين إذاً مع حلول عام 1948، إنه تدمير فلسطين الثقافة والتاريخ والفاعليّة الحضارية ليحل محل الفلسطيني قادمون من شتات العالم، شذاذ أفاق، جمعتهم الدعاية الصهيونية المؤسسة على الفكر الديني التضليلي، ليدخل بعدها الكل الفلسطيني في ضياع، إنما ضياع على مراحل وضمن خطط مبرمجة.

هذه العقلية بهذه الرؤى الإجرامية أنتجت مجزرة دير ياسين والطنطورة والدوايمة، ومجزرة كفر قاسم، وكذلك أنتجت مجزرة صبرا وشاتيلا ومجزرة تل الزعتر، ومجازر غزة المتتابعة في كل الحروب التي شنها الكيان على القطاع المحاصر. يخيل إليّ أن ما بين هذه المجازر مجازر أخرى موزعة على التاريخ الفلسطيني الحديث، حتى شكلت معجما لافتا لتاريخ حافل بالموت والضحايا، وتصلح أن تكون مادة ثرية لكتاب توثيقي.

ماذا يفعل الأدب في هذه الحالة؟ لا بد من أن يقوم بدوره، وهو دور تقليدي، لم تخترعه الحالة الفلسطينية، بل وجدت في التراث العربي القديم، ووجدت عند الشعوب المضطهدة كافة قديما وحديثا، فلا بد من أن يناضل الأدب ليكون سلاحا في المعركة، وذا أثر بالغ، فالأدب لا يعمل على العاطفة فقط، إنما يعجن تلك العاطفة بالشعور بضرورة أن يقاوم الشعب لينتصر، وليس لمجرد أن يقاوم، بل إن الشعوب تقاوم من أجل أن تنتصر، ولا يصح أن تتحول أي ثورة إلى ثورة أبدية أو ذات أمد طويل. إن حدث مثل هذا فمن الأولى أن نعيد قراءة المشاهد كلها، فثمة خطأ أو أخطاء لا بد من دراستها لتصحيحها.

ربما ما عجزت الثورة الفلسطينية عن تحقيقه حتى الآن نجح فيه الأدب، في أنه جعل الذاكرة حية، لاغيا أهم أساس من أسس الصهيونية الإحلالية: "أن الكبار يموتون والصغار سينسون"، فما الذي حدث بعد موت الكبار؟ إنهم أورثونا الحكاية بكل التفاصيل كأننا نحن أبناء النكبة، وليس أجدادنا فقط. فولد جيل من الأدباء أشد تمسكا بفلسطين وأكثر إقبالا عليها واستعادتها ليس باللغة فقط، شعرا ونثرا، وليس باللحن فقط موسيقى وأغانيَ، بل يصرّ على تثبيت الحق التاريخي للفلسطيني بأرضه، فنحن نشهد جيلا أشد إيمانا بحقه، ربما أكثر من الجيل السابق، لأن كل ورقة تستّر بها العالم ليخدع الفلسطيني سقطت، وبانت الحقيقة عارية متحدية سافرة؛ سقطت شعارات حقوق الإنسان، وسقط القانون الدولي الإنساني، وسقطت اتفاقية حقوق الأطفال، وسقطت اتفاقية حرية الصحافة وحرية التعبير، لقد أسقطت القضية الفلسطينية هيأة الأمم المتحدة، بعد أن تبيّن أنها هيأة استعمارية صرفة، تحمي القويّ من الضعيف، بل وتمعن في استعباده وقهره بالقانون الدولي.

لقد بلينا بمحتل لا يشبع من الأرض، ولا يرتوي من الدماء، ساديّ لأبعد حدّ، يفرحه أن يعذبنا، بل إنه يصرّ على أن يغتال أبسط الأشياء التي تفرحنا، ألم يعتقلوا بنطال أحد الأسرى لأنهم علموا أن الأسير يشم فيه رائحة أمه؟ إنهم أكثر إجراما مما يظنّ متعقّل موهوم. ألم يرَ العالم ما يجري من مجازر في غزة، يهندسها الإجرام العالمي أمام العالم، وينقلها البث المباشر دونما رادع من ضمير أو قانون أو إنسانية، لم تكن غزة فقط بل كانت من قبلُ انتهاكات الاحتلال الغاشم في القدس؛ في حي الشيخ جراح وسلوان، وفي جنين ومخيمها، وفي جبل صبيح والأغوار، وفي الخليل، وفي كل بقعة على الأرض الفلسطينية؟

يؤكد الأدب حضوره وأهميته في تثبيت المجزرة وبشاعتها وهولها، كما في مجموعة من القصائد التي قالها الشعراء في مجزرة تل الزعتر، وجمع قسم

منها في كتاب "لا تعجب... زعترنا أخضر"، بالإضافة إلى أهمية تلك القصائد الإبداعية الجمالية، وغير هذه وتلك، فإن لهذه القصائد أهمية قومية بارزة، ففلسطين ليست قضية الفلسطينيين وحدهم، إنها قضية قومية وأممية أيضا، فهي امتحان للضمير العربي وامتحان للضمير الإنساني الذي يمر بأحلك ظروفه عند الساسة والمتحكمين لا عند الشعوب، فهذه القصائد في توزع جغرافية شعرائها تقول الكثير عن البعد القومي للأدب العربي والأدب الفلسطيني بل والبعد الإنساني الأممي، مؤكدة ما كان بحثه باستفاضة الكاتب الشهيد غسان كنفاني في كتابيه عن أدب المقاومة؛ ملامحه ومضامينه.

في هذه القصائد أصبح الشاعر العربي شاعرا فلسطينيا بامتياز، ليكتب من عمق المأساة ويدخل في صلب المعركة. إن في هذه القصائد قدرا كبيرا من الحب بقدر ما فيها من اللظى واللهب والحرب. فهي تشكل مواقف ثابتة تساند الضحية التي وقفت الإمبريالية العالمية بكل جبروتها ضدها دون خوف من محاسبة التاريخ والضمير، كأنهم مطمئنون أنهم بلا ضمير أو أن ذلك الضمير لن يصحو يوما، ليظل الجلاد ينعم بالصلف والقوة والتجبر والضعيف محروما مقتولا أسيرا، ومشردا عن وطنه.

أي عدالة هذه أيها العالم الحرّ؟ فما بين مجزرة تل الزعتر وحروب غزة عقود، وما زالت العقلية الصهيونية كما هي، وما زال التصرف الأممي هو نفسه، ما يؤكد أن ما نعيشه اليوم من حرب على غزة ومدن الضفة هو منهج راسخ في التعامل مع قضيتنا، وليس مجرد موقف عابر تفرضه طبيعة الحرب على غزة وعملية طوفان الأقصى.

أبو عبيدة ظاهرة لغوية أيضاً

الناطق الرسمي باسم كتائب القسام أبو عبيدة صنع رمزيته الخاصة، فمنذ ظهوره الأول وهو على هذه الشاكلة؛ رجل مقنّع بالكوفية الحمراء، يزين جبينه شعار كتائب عز الدين القسام، هذه الصورة التي حازت على كثير من التحليل من وجهة نظر إعلامية، كون الناطق الإعلامي الرسمي لأية جهة لا بد من أن تتوافر فيه كثير من السمات في شكله، وحركة جسمه، وملامح وجهه، ولغته، ومصطلحاته. كل هذه التقاليد المتعارف عليها، تجاوزها أبو عبيدة، ولا يريد للمحللين السياسيين أن ينشغلوا بغير الفكرة الخارجة بلغة واضحة، قوية ومتحدية، معجونة بالثبات، وبالنصوص الدينية، وترتكز كثيرا على لغة الخطاب، وليس على لغة الخبر والمعلومات. هذه الكيفية من الخطاب الإعلامي لها الأثر الكبير فينا؛ نحن المتلهفون على سماعه، من أبناء الشعب الفلسطيني، أو ممن يؤيدون المقاومة من العرب والعالم، عدا أثره النفسي العظيم جدا في نفوس الأعداء الذين وضعوه على قائمة الاستهداف والاغتيال وانشغلوا به لتحديد هويته، ولفّقوا لذلك الكثير من الصور والأخبار، وأشاعوا عنه أنه قُتل أو أصيب.

أضف إلى هذين البعدين بعداً ثالثاً، وهو أن وعد أبي عبيدة ووعيده كانا صادقين، يفرغهما بلغة عربية فصيحة، لا تكاد تجد فيها أية أخطاء، ولا تحتاج إلى تأويل، فلم يتعمد إثارة الخلافات حول ما يريد قوله، وكان يصيب المستمعين إليه بالفرح والرغبة من جانبنا نحن المتربصون أمام الشاشات، وكان يصيب الآخرين بالدهشة والخوف والذهول.

بدت مرئيات أبي عبيدة وتسجيلاته الصوتية ذات سمت لغوي واحد، وقد شكّلت مصدرا مهما للتحليل اللغوي، وليس فقط للتحليل العسكري والسياسي، وباعتقادي أن هذه المصادر تكمن أهميتها اللغوية في كونها تعبّر عن خطاب الحرب، بكل ما يعني ذلك من بعد نفسيّ، ضروريّ جدا وجوده في لغة المتحدّث الرسمي باسم الحرب.

لقد لفتت لغة أبي عبيدة العربية الرسمية جدا، والصحيحة جدا، إلا فيما ندر، نظر المشاهدين، وأشار إليها كثيرون في منشورات قصيرة غير تحليلية على الفيسبوك، وعزوا ذلك إلى أنه حافظ للقرآن للكريم، وتوصلوا إلى نتيجة أن من يحفظ القرآن الكريم ستكون لغته قوية، وصحيحة، ولا يقع متحدثها بمطبات الأخطاء اللغوية، حتى في أدق مسائل اللغة التي تحتاج إلى تركيز المتحدث ليخرج الكلام صحيحاً، كان أبو عبيدة ماهراً ومتقناً لتلك اللغة، ولا بد للمرء في مثل موقعه من أن يتقن اللغة، فهي معيار فكري أيضاً، وليست مجرد قشور تحمل معلومات وأخباراً، عدا أن اللغة العربية في حربنا مع المحتل جزء من صراع الهوية، ليس في فلسطين وحدها، بل في كل منطقة احتلّ فيها غاصب شبر من أرض العرب والمسلمين، فكانت اللغة العربية دائما مهددة بحروب شتى، كما هي مهددة بمزاحمة اللغة الدخيلة في فلسطين من خلال الكثير من الإجراءات التعسفية التي طالت اللغة العربية، ليس هذا محل بيانها.

أعتقد أن لغة أبي عبيدة بمواصفاتها المشار إليها أعلاه كانت تتسق اتساقا تاما مع ما كان يقوله من معلومات وأخبار وما يتوعد به الأعداء، فكأن هذه الصحة اللغوية كان لها قائمتان أخريان من صحة الخبر، وصحة الوعد وصدق الوعيد، وعليه، فإنه بلا أدنى شك قد شكل ظاهرة خطابية ولغوية، لا تقوم على الصراخ ورفع الصوت والانفعال، بل تقوم على الرصانة في الطرح، والهدوء في الإلقاء، والعقلانية الدينية العسكرية السياسية في الخطاب، وبالمحصلة فقد شكلت نوعاً خاصا يعرف لدى الأوساط الإعلامية بالثبات الانفعالي، ولذلك لم يكن "ظاهرة صوتية" كما كان غيره من الناطقين الرسميين العرب فيما سبق من حروب في غير غزة، لم تجلب لنا إلا العار والغرق في وحول من الوهم والزيف، وكأننا كنا نقاتل طواحين الهواء. وأما أبو عبيدة فكان ظاهرة حقيقية، لا زيف فيها ولا تزييف، ولذلك استحقّ هذا الحضور البلاغي الحقيقي الكامل في تجلياته كلها التي سأتحدث عن شيء منها أدناه.

وزاد من ترسيخ هذه الصورة واستقرارها أن أبا عبيدة لم يكن يلقي خطاباته مباشرة أمام جمهور من الصحفيين، كما يفعل غيره من الناطقين الرسميين، وإن كان هذا الأمر يندرج ضمن الاحتياطات الأمنية الضرورية، إلا أنه منح أبا عبيدة قوة أكبر، وثباتا أشد، فلم يكن معرّضا لأي سؤال قد يحرجه، أو يبدو في الإجابة عليه مرتبكاً، إنما كانت تقوم إستراتيجيته في عمله هذا على أن هذا ما يجب أن أقوله، وعليكم أن تتعاملوا معه كما هو، ولا شيء غيره في هذه المرحلة، ولو وجد شيء يستحق الذكر لقلته. كأن أبا عبيدة أتى بتقاليد جديدة للناطق الرسمي العسكري غير الخاضع لشروط البث المباشر والتعامل مع الراهن المتحول الذي هو بطبيعته مربك؛ فلا يكون بمواجهة صحفيين مختلفي التوجهات ومتعددي الآراء، ويحملون وجهات نظر مغايرة لما يحمل، ولا يريد لأي شيء أن يشوّه تلك الأفكار التي يريد أن يلقيها بلغةٍ بليغةٍ واضحة، ثمّ ليذهب ويذهبوا؛ كلّ إلى شأنه، وهذا كل ما في الأمر.

لكل ذلك صار أبو عبيدة، الظاهرة التي اكتسحت بحضورها الشاشات كلها، عند المحبّ والكاره على حد سواء، من المحيط إلى الخليج، وأزاحت ما عداها لتحتل صورته الشاشات الصغيرة الفردية للمواطن العربي في فلسطين وفي العالم أجمع، ولذلك فقد حازت نسبة مشاهدة عالية منذ الدقائق الأولى لبث ذلك الخطاب، وتحول إلى نجم وأيقونة، وله الأولوية عند الصغار قبل الكبار، بل يتصدر البث المباشر، ويقطع البث المعتاد وسير الندوات ليحتل أبو عبيدة الصدارة. هذه هي الظاهرة المسماة "أبو عبيدة".

توسعت هذه الظاهرة وتمددت، ودخلت إلى شعر الشعراء. وهنا ربما تنبغي الإشارة إلى أن اللغة، أية لغة، تتسع مفرداتها وتُثرى بالأدب، شعره ونثره، فيدخل الكثير من الألفاظ الجديدة إلى اللغة بفعل الأدب، والأمثلة كثيرة، بالإضافة إلى أن ثمة ألفاظاً قديمة بمعان قديمة قد يصبح لها معان جديدة بفعل هذا الأدب، ولأن الأدب مواكب للأحداث ولصناعة الشخصيات، فقد حمل الشعراء شخصية أبي عبيدة إلى عوالم الشعر، وجعلوه شخصية محتفىً

بها شعريا بكثير من القصائد التي رسمت له صورة شعرية تتمحور حول أثر هذه الشخصية وأهميتها في السياق العربي والفلسطيني على السواء، وللتعريف بصورة أبي عبيدة بطلاً أسوق هذا النص للشاعر عمر علوش:

أبـــــا "عبيـــــدةَ" لا تحـــــزن إذا انصـــــرفت
عنـــكَ العروبـــةُ قاصـــيها ودانيهـــا
عشــــرونَ جَيْشًــــا كَــــأَفٍّ مــــنْ مَهَــــانَتِهمْ
وأنــــتَ وحْــــدَكَ جــــيشٌ قــــائِمٌ فيهــــا
بـــاعُوا القَضِـــيَّةَ مـــا عـــادت لهـــم صـــلةٌ
بأهلهـــا واسْـــتراحوا مـــن مآســـيها
واسْـــتَطْعَمُوا الخـــوفَ حـــتى صـــار أشـــجعُهم
يكفيـــه أنْ يخـــتفي إنْ قـــام داعيهـــا
فـــاشْرَحْ لهُـــمْ سِرَّ مَـــا يُبْقِيـــكَ مُنْتَصِـــباً
والأرضُ حولـــك قـــد مـــادت رواســـيها
لَعَـــلَّ فِـــيهمْ بقايـــا مِـــنْ كـــرامتهم
تحيـــا بشـــرحك تقريعـــاً وتنبيهـــا
يـــا أيهـــا العـــربيُّ القـــحُّ يـــا جـــبلاً
مـــا مـــدَّ هامتَـــه إلا لباريهـــا

هذه صورة بطل مقدام، له صفة الجيش، عربي، قحّ، جبل، منتصب، ثابت، إن مادت من حوله الأرض لا يتزعزع، ولا يمد هامته إلا لله وحده.

وفي قصيدة أخرى للشاعر علوش نفسه، يوضح معالم أخرى لأثر أبي عبيدة:

لأبي "عبيـــــدةَ" في القلـــــوب محبـــــةٌ
تتغـــــيَّرُ الـــــدنيا ولا تتغـــــيَّرُ
أحيـــا بهـــا روحَ الشـــهامة بعـــدما
كـــادت عـــلى وقـــع الهـــزائم تُقـــبر

وطــــوى بنـــا الأزمـــانَ حـــتى أصـــبحت

للنـــــصر رائحـــــةٌ تُشـــــمُّ وتُبصـــــر

فكأنمـــــا مـــــا زال فينـــــا خالـــــدٌ

وكأنمـــــا مـــــا زال فينـــــا حيـــــدرُ

لا تحســــــبوا وضْـــــعَ اللثـــــام نقيصـــــةً

تُــــزري بـــــه وهـــــو الهمـــام الأكـــبرُ

هــــو مـــا يــــزال عـــلى عهـــود جـــدودِه

وطباعُــــــه بطبــــــاعهم تَتَـــــأثّر

كــــانوا إذا حـــــمي الـــــوطيسُ تلثمـــــوا

وتعطـــــــروا وتنمَّـــــروا وتبخـــــــتروا

حـــــتى إذا انكشــــف الغبــــار بنصـــــرهم

مثـــلَ البـــدور عـــلى الكريهـــة أســـفروا

تتبدى أهمية هذا النص في الدرجة الأولى أنه يعيد القارئ إلى صورة أبي عبيدة الحقيقية، كونه رجلا ملثماً، وكما هو معهود الشعر العربي فإن الشاعر يستخدم "حسن التعليل" لظاهرة الرجل الملثم، فوضع اللثام ليس نقيصة، ولا هو تغطية للوجه كما النساء، إنما هي عادة عربية قديمة عند فرسان العرب الأقدمين، فهو متأثر بهم، ويسير على دربهم، فقد كانت هذه هي تصرفاتهم إذا حمي الوطيس، إذاً، فاللثام علامة على الفروسية ليس غير، لينبلج وجه الملثم كالبدر بعد انتهاء المعركة، دلالة على الانتصار والفرح بالنصر، وفي هذا استبشار واستشراف لنصر المقاومة بإذن الله.

ومن جميل الشعر في ظاهرة "أبي عبيدة" تصوير الشاعر سعيد يعقوب انتظار سماع خطابات أبي عبيدة في هذه الأبيات:

و"أَبَـــا عُبَيْـــدَةَ" حِـــينَ يَبْـــدُو

هِـــلَالُ العِيـــدِ يَـــبْزُغُ فِي السَّـــماءِ

فَكُـــلُّ النَّـــاسِ نَـــاظِرَةٌ إِلَيْـــهِ
بِأَفْئِـــدَةٍ تَفِـــيضُ مِـــنَ الرَّجَـــاءِ
تُسَـــرُّ بِـــهِ النُّفُـــوسُ كَـــبَرْدِ مَـــاءٍ
عَـــلَى عَطَـــشٍ شَـــفَى غُـــلَّ الظِّمَـــاءِ
لِعَـــذْبِ حُرُوفِـــهِ فِي السَّـــمْعِ وَقْـــعٌ
كَوَقْـــعِ اللَّحْـــنِ فِي عَـــذْبِ الغِنَـــاءِ

وهذا ما أعاده شاعر آخر يدعى براء جبر، فقال:

يصـــيبنا اليـــأس حـــتى يظهـــر الأمـــلُ
حيـــوا الملـــثم فيـــه العـــين تكتحـــل
سَـــبّابَةُ الرُعـــبِ للأعـــداءِ قاطبـــةً
وهي الحيـــاةُ لمـــن ضـــاقَتْ بـــه الحِيَـــلُ
هي الشـــــهادةُ توحيـــــداً لخالقِـــــهِ
هي الوعيـــــدُ لأنـــــذالٍ أن اشْـــــتَعِلوا
هـــذا المُلـــثمُ كـــم نشـــتاقُ طَلعتَـــهُ
خـــيرٌ مـــنَ اللهِ مِثـــلَ الغَيْـــثِ ينهمـــرُ
يـــا طلـــةَ البـــدرِ عـــزَّتْ فيـــكَ أمتُنـــا
يـــا نظـــرةَ النصـــرِ مـــن عينيـــكَ بي أمـــلُ
إني لَأَبْصـــــرُ في عينيـــــكَ مُنتصـــــراً
تصـــيحُ بالنـــاس للأقصـــى غـــداً نَصِـــلُ

وغير هذا كثير، وكثير جدا، مما خلفته ظاهرة أبي عبيدة اللغوية والخطابية، وبلا شك فإن هذه الظاهرة تحتاج إلى الدراسة والمتابعة والاستقصاء ليس لتُدرّس فقط في المعاهد العسكرية والإعلامية، بل لتدرّس في معاهد اللغات والأدب، فلهذه الظاهرة أثرها في اللغة العربية، كما أنها استطاعت أن تخرج من الدائرة الحربية إلى الدائرة الإبداعية لتثري اللغة العربية بقصائد لها

جماليتها وشعريتها الخاصة، ولعلها أهم رسالة لأبناء الضاد عليهم أن يلتفتوا إليها وهم يحتفلون بلغتهم العربية في عيدها الأممي الذي يصادف يوم الثامن عشر من ديسمبر، هي أنه لا بد من أن يكون العربيّ قوياً لتحضر لغته قوية معه، فقد أجبر أبو عبيدة عندما أصرّ على الحديث باللغة العربية أن يسمعه الجميع بلغته هو، فلم ينجرّ لاستخدام لغات أخرى، فهو القويّ، وليسوا هم، عليهم أن يتبعوه ويترجموه هم، لا هو، ودون أن تصاحب مرئياته وتسجيلاته أية ترجمة، فكأنه كان يفرض عليهم أن يتعلموا لغته ليفهموه، وهذه هي الرسالة اللغوية الأبلغ في ظاهرة الملثم أبي عبيدة، حفظه الله، فقد منح اللغة العربية حضورا يوازي حضور المقاومة ذاتها في سياق أكبر من حضور القضية الفلسطينية لتصبح القضية الأولى في العالم. فنعم الرجل أبو عبيدة، ونعمت اللغة العربية لغته، لغة المقاومة، وليست فقط لغة القرآن الكريم والدين والعبادة المحصورة في المساجد والزوايا والحسينيات العربية.

الأدب في ظل الحرب
البحث عن الجدوى والفاعلية:

هل للأدب من فائدة في مواجهة وحش الموت الذي استبدّ بنا بكل شراسة التاريخ المعهودة وغير المعهودة لدى المستعمرين؟ أظنّ أن الحرب لا تفتح شهية أحد على أن يقول شعراً، أو يكتب قصة، أو يستعدّ لكتابة رواية. ثمة انتهازية ما في هذا الأمر. أنت تكتب والناس تصعد للأعالي بالمئات. إنه لأمر مخجل حقاً، مهما كانت هذه الكتابة.

الحرب ظرف مواتٍ للكتابة على ألا تكون بهذه الشراسة التي ينتفي معها التفكير بغير وحشيتها. عندما تتعاظم الحرب كالتي تحدث الآن في غزة، لا أهمية للأدب بشتى أنواعه، لمن يكتب الكتّاب؟ أيكتبون لتمجيد الشهداء؟ لقد رحلوا أليس كذلك؟ من سيقرأ ما نكتب؟ أنكتب لنا نحن لنتذكر أنفسنا بعد حين- إن أبقت الحرب منا أحدا-؟ أنكتب للقراء العرب أو الغربيين المشغولين بعدّ ضحايانا والدعاء لنا. ما فائدة أن يقرؤوا؟ ألم يشاهدوا مجازرنا؟ وأمثلهم طريقة بكى علينا أو دعا لنا؟ أم نكتب لمن حرّموا الدعاء لنا بسقطاتهم الفقهية السلطانية المخزية؟

ما نفع الأدب في ظل الحرب؟ على الرغم من انشغالي بالإجابة، وتختلف إجابتي عن هذا السؤال، فعندما أكون أمام التلفاز، وأشاهد فظائع الحرب التي فاقت فظاعتها مشاهد أكثر الأفلام دراماتيكية وفنتازية. الحرب مدهشة في هذا الذي رأيته وأراه. والأكثر دهشة نحن الذين نحتمل كل هذا الذي نراه ولا نُجَنّ. كيف ظللنا صامدين، نأكل ونشرب ونشاهد التلفاز، ونكتب! أنكتب من أجل أن نرمم بعض أوجاعنا؟ وهل بمقدور الكتابة أن ترمم جرحا مفتوحا بهذا الكم النازف من الدم والموت والظلم والظلام؟

لا معنى للكتابة وأنا أدخل التلفاز وأضع نفسي بين الضحايا، باكيا مرة، وصارخا مرات، وشاتما بأفظع الشتائم قلب هذا العالم المتحجر، لاعناً أمريكا

وشبه أمريكا وأحزاب أمريكا، وأقول كما قال أحد السوريين مرة: تباً لكم جميعا، وقد عدد المعارضين والموالين والدول الكبيرة والصغيرة كلهم أجمعين، ثم قال: "وتبا لي أنا". أتذكره الآن، وأتذكر كيف تعاملت مع موقفه كأنه سخرية، أو فكاهة تدعو إلى الضحك، يا لسفاهتي عندما ضحكت مسرورا كأن ما قاله نكتة. إنني، ومعي ملايين من المشاهدين الآن، قد وصلنا إلى أن يقول أحدنا: "ألا تباً لنا جميعا". عدا المقاومة بطبيعة الحال.

حالة مشبعة من الفراغ، تختلف عما أكون فيه وحدي، وأحاول البحث عن عبرة أو حكمة أو بصيص أمل من بين هذا الركام، ثمة أحبار تردّ فيّ الروح، أبكي مرة أخرى بفرح مكبوت أخاف أن يتبخر. أسترجع تجارب الحروب السابقة على غزة وعلينا وعلى العرب وعلى المسلمين والمذابح التي ارتكبت بحقنا، ونحن ما زلنا أحياء لم نمت. إذاً لن نموت، ولو مات منا ملايين الناس، أطفالا ونساء ومسنين، سيبقى فينا عِرق ينبض.

التاريخ يعلمني بهدوئه الجمّ المحايد أن "الأيام دول"، وعلينا ألا نضعف وألا نتقهقر، مررنا بما هو أصعب، ومرّ غيرنا بما هو أقتل، لكنْ "لا فناء لثائر، أنا كالقيامة ذات يوم آتي". تعود ثقتي بالأدب مرة أخرى، أعود لأسمع الأغاني الحماسية والأناشيد المناضلة، أستعيد توازني وأشد من أزر نفسي، وأكتب، فثمة ما يستدعي أن يُكتب عن هذا الظرف العصيب.

في أعالي المعركة:

من رحم هذا الصراع بين الفكرتين النقيضتين، ولد ديوان: "في أعالي المعركة". أريد أن أؤكد أهمية الأدب في ظل الحرب، لقد اختبرت ذلك فعلا، وإن لم أكن أعي تماماً ما فعلته حينها، عندما كتبت لغزة عام 2014 ديوان "مزاج غزة العاصف"، كتبته بطريقة مختلفة عما فعلته في هذا الديوان. هنا أنا مع الناس، أصرخ بأعلى صوتي، أتحسس الشهداء، وأجسادهم، أخاطبهم، أعيش النكبة من أولها، لكنني لم أغرق في السواد المفضي إلى العبث، بدأتُ

بباب الموت وانتهيت بباب النصر. لا بد من أن ننتصر، ولو بلغ عدد الشهداء ما بلغ. لأنه لا مفرّ لنا إلا أن ننتصر، لا أن نموت. علينا أن ننتصر في غزة، لننتصر في الضفة الغربية، لأنه لو انكسرنا هناك، سنضيع هنا. هذا إحساسي الوجودي في هذه المعركة، لذا فأنا أعتبر أن هذه الحرب هي حربي الشخصية، وأنا جنديّ فيها، متمنيا لو كنت أستطيع القتال، والله لكنت أحد الحاملين السلاح، ولن آلو جهدا في تقديم دمي على مذبح النصر والحرية فداء لنفسي ولأولادي وأحفادي.

عليّ أن أعوّض هذا العجز الماديّ عن القتال إلى القتال على جبهة الأدب. هذه هي الفكرة التي دفعتي لأكتب هذا الديوان "في أعالي المعركة"، أتتبع المأساة من أولها منذ خمسة وسبعين عاما وحتى الآن، وأمرّ بالشهداء وأسلّم على الكثير منهم، وأقيم بينهم أعراسهم وأعراسي، وأعرج على القدس وأفتح بوابتي للسماء، لأدلف للحرب التي ألعن من أجبرنا على أن نكون وقودها، لأستقر في باب النصر. رحلة متعددة من المشاهد والمشاعر.

أسقط في هذا الديوان الاعتبارات النقدية الساذجة، أعود لما قاله يوسف اليوسف في مقدمة كتابه "مقالات في الشعر الجاهلي" حيث التفت إلى طبيعة شعر الشاعر العربي المعاصر وأنه لا بد من أن يكون ابناً لبيئته ويتمثل روح عصره، وأنه ينبغي عليه ألا يكون رمزياً، فالرمزية لها سياقها الاجتماعي أولا، أما نحن فلا بد من أن يلتحم شعرنا بالجماهير، علينا أن نلتحم بقضايا الجماهير، والجماهير الآن من المحيط إلى الخليج تهتف بصوت واحد: "الموت لإسرائيل". لن أخجل فنيا من أن أعود مباشرا، واضحا، متحدياً أقول: "لبيك واجعل من جماجمنا لعزّك سُلما"، وألعن هذا الكيان الغاصب المحتل الهمجي، لأقول: "من يحمِ إسرائيلَ خان".

إن قتل الأطفال بمثل هذه البشاعة وقد أحرقتهم آلة الحرب المتوحشة لا تجعل للرمزية أو الجمالية الأسلوبية أي معنى. فالعدو لا يقتلنا بالرمزية ولا بالسريالية، بل إنه يصهر لحمنا على نار الصواريخ بكل واقعية ومباشرة

وجماهيرية ووقاحة. أيعقل إذاً أن نكون رمزيين جماليين؟ سأكره النقاد الذي سيجدون من تفاهاتهم مجالا للانتقاد من هذه الزاوية. إنهم بالفعل لا يعقلون ولا يفهمون، ولا يدركون معنى أن يكون الأدب في ظل الحرب واضحا ذا رسالة لا يواري ولا يتوارى خلف استعارات بلهاء. هذه الفكرة بالذات "الاستعارة البلهاء" كانت حاضرة في ديوان "في أعالي المعركة".

كتب المجاميع الشعرية (الأنثولوجيات) :

من ذات الفكرة أيضاً تنشط دعوات بعض المؤسسات لإعداد مجاميع شعرية تستلهم الحرب الدائرة على غزة. في الكويت، وفي الأردنّ، وفي الجزائر، وربما غير هؤلاء. في القراءة الأولى لهذه الدعوات ثمة ما هو اعتراف بدور الأدب في ظل الحربّ، فلولا هذا الدور لما وجدت هذه الدعوات للملمة القصائد في مجاميع شعرية، تشترك في التعبير عن فكرة واحدة معركة طوفان الأقصى والحرب على غزة، وكانت لجنة أدبية نقدية قد أنجزت قبل هذا المشروع مشروع شعري عربي بمشاركة أكثر من 40 شاعرا لإنجاز ديوان "رباعيات جنين". إذ كانت جنين ومخيمها وكتيبتها وعرين الأسود هي الظاهرة الأبرز في القتال والمعركة اليومية مع الاحتلال.

هذه الدعوات غير غريبة وغير مستهجنة وتنبع أصلا من تصور نقدي يسعى إلى لمّ النصوص ذات الهدف الواحد أو الموضوع الواحد، تمهيدا لدراستها بشكل موسع في دراسات نقدية منهجية. مثل هذه الدعوة- سابقاً- أنتجت كتاب "ديوان الشهيد" الذي ضم مجموعة قصائد للشعراء المشاركين بمسابقة أفضل قصيدة بذكرى مجزرة كفر قاسم، وديوان "الشهيد محمد الدرة" بجزأين، و"ديوان الفرقان" الذي جمع فيه محرّره الدكتور أسامة الأشقر قصائد عن معركة الفرقان في غزة عام 2009، ومن اللافت للنظر عنوانه الفرعي: "قصائد مقاتلة أطلقتها مدافع الشعراء في ملحمة غزة 2009". لافتا للنظر في مباشرته وتحديه، وتمثيله للفكرة التي أستندُ عليها في هذه الكتابة وتؤكد دور الأدب في ظلّ الحرب.

هذا الديوان لم يكن نتاج مسابقة ما وإنما جهد بحثي من خلال الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية حتى استطاع جمع ديوان كبير الحجم متنوع القصائد وممثلا لأسماء كثير من الشعراء من أجيال متعددة، بهذه الكيفية فعل الباحث أ.د. عادل أبو عمشة (أستاذي في جامعة النجاح الوطنية لمساق الأدب الحديث) عندما جمع مجموعة من قصائد الانتفاضة الأولى في كتاب "شعر الانتفاضة: دراسة واختيار" ليكون للكتاب قيمة تاريخية ونضالية.

لا شك في أن الدعوة محفّزة وجيدة لإعداد ديوان حول هذه الحرب، لكن ارتباطها بفكرة الجائزة- كما أعلنت عنه مؤسسة عبد العزيز البابطين- تجعل الأمر براغماتيا نوعا ما، وتصبح الكتابة ذات هدف مادي. ليس عند الجميع بطبيعة الحال، لكن لا تخلو الدعوة من فتح المجال لمثل هذا التفكير البعيد عن نقاء الهدف وسمو الغاية، وجمالية الحرب ذاتها التي راح ضحيتها آلاف الشهداء، وكأنّ أحدهم لم يكن معنيا بدماء الضحايا إلا بقدر المسابقة على ما تقدمه له تلك الدماء من فرصة الفوز بإحدى الجوائز الثلاثة المعلن عنها.

التأرجح بين الفكرتين ومسؤولية الحرب:

تبيّن لي أن للحرب الطاحنة قدرة على أن تجعل المرء يتأرجح بين فكرتين نقيضتين، تميل لفكرة ما بفعل الحرب، فتدفعك الحرب ذاتها لتتخذ حيالها فكرة مغايرة تماما، هي ذاتها مسألة التأرجح بين اليأس والأمل، علينا ألا نغرق في لجة اليأس الأسود القاتل، ولا أن ننتشي بالأمل إلى حد الإفراط الأعمى فلا نرى الحقيقة الماثلة.

علينا أن نتعلم من التاريخ دروسه الواقعية. علينا أن نظلّ في صلب هذه الحرب مقاتلين، لا نستسلم، ننتصر أو نموت. نعم ننتصر أو نموت، أما الاستسلام ففكرة غبية جداً. ماذا يعني الاستسلام سوى العبودية والذل، وفقدان معنى أن تكون حراً. فالموت هو خيارنا إن خيرنا بينه وبين

الاستسلام، سنظل نقاتل حتى نبيد جميعاً، بكل معنى الكلمة، حرفيا، لا مجازيا، نُباد ولا الاستعباد.

وعلينا أن نتعلم من الحرب قسوتها الرحيمة هذه، إنها تمنحنا شرف الموت ببسالة على أن نرفع الرايات البيضاء. يا إلهي! أي خزي وعار سيلحقنا بعدها في الدنيا؟ سنأكل ونشرب ونتمتع ونأكل كما تأكل الأنعام. أي جحيم هذا الذي سنتقلب فيه، ونحن نرى الأعداء صباحا ومساء يذكروننا بتلك المشهدية المخزية؟ فما زالت فضائياتهم تبث بين الحين والآخر مشهد "اقتحام سجن أريحا" وأخذ المحتجزين فيه وهم في ملابسهم الداخلية، أي حرب ستمسح هذا العار الذي أوقعتنا فيه السلطة، والأعداء معاً؟ بل كم من حرب يلزمنا لنمسح هذا العار الذي دنّس الأرواح، وهشّم الروح المعنوية. كان ذلا وطنيا وقوميا قاسياً جدا جدا جداً، وفضائحيا عالميا، ولن تسامح الأجيال مَن فعلها مِن الطرفين على فعلتهم تلك مهما كان. فبعض الانكسارات لن يجبر بسهولة، بل إنه من المستحيل أن يجبر.

لكل ذلك علينا أن نعيد بكل فخر واعتزاز ونحن في معمعة هذه الحرب الضروس ما قاله إبراهيم طوقان في رائعته الخالدة "موطني":

الشباب لن يكلّا

همه أن يستقلّا

أو يبيدْ

نستقي من الردى

ولن نكون للعدى

كالعبيدْ

هذا ما تعلمه الحرب لنا، فعلينا أن ننتصر إذاً، وإن لم ننتصر- لا سمح الله- علينا أن نمنع شماتة الأعداء فينا. فإنها قاسية ومرة، وتُفقد طيبات العيش معناها وطعمها ولذاذتها، وهذا ما يعلمه لنا الأدب، ذلك المكتوب في ظل الحرب، معبّرا عن أصل الفكرة الإنسانية التي يستشعرها كل بني البشر ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب وقوة الروح المعنوية وحق العيش بحرية وكرامة، رغما عن كل آلات الدمار العالمية والاستعمار الهمجي الذي لا يرانا إلا ونحن أقوياء شامخين نضرب بعنف ونتحدى كل العالم بقوة الحق، وحق امتلاك القوة.

الشعراء أصدقاء حبٍ... رفقاء حرب

أعادتني هذه الحرب بمحض اختياري إلى حدائق الشعراء، فذكرتني بقصائد لشعراء كثيرين، كانوا غائبين عن المشهد اليومي، ذكرتني بالشاعرين، العمرين؛ الفرّا و(أبو ريشة)، وأعادت إلى الواجهة نزار قباني وأدونيس، وغازي القصيبي وأحمد مطر وسميح القاسم وتميم البرغوثي، عدا أن هذه الحرب أخذت في سياقها من شعراء غزة؛ هبة أبو ندى، وسليم النفار، ورفعت العرعير، وهذا الشاعر، لم أكن أعرفه من قبل، كما أنني لم أكن أعرف هبة أبو ندى، ولم ألتق بالنفار يوماً على الرغم من أنه حضر إلى معرض الكتاب في رام الله، وكان صديقا افتراضياً، وله في المقررات الدراسية الفلسطينية قصيدة، واستضافته بعض المدارس ليُجريَ طلاب وطالبات معه حوارا عن بُعد، وحصّلت نسخة من ديوانه "أعماله الناجزة" الذي أصدرته وزارة الثقافة الفلسطينية عام 2016.

في هذه الجولة من الكتابة، أعود إلى قصائد الشاعر السعودي غازي القصيبي، أمضي ليلة كاملة وأنا أتصفح كتبه، وعناوينها وما كتب فيها، فقد نافت مؤلفاته عن المائة وعشرين مؤلفاً، متاح كثير منها للتحميل المجاني بنسخ إلكترونية. شاعر ومترجم وكاتب وسارد وناقد غزير ورصين، كتب كثيرا قصائد سياسية عن فلسطين وأطفال الحجارة وعن القدس، كما كتب ديوانه الممتع "ورود على ضفائر سناء"، وهذه سناء هي سناء محيدلي، ابنة الجنوب اللبناني، الفدائية، الشهيدة "من كوادر الحزب السوري القومي الاجتماعي. كانت أول فتاة فدائية قامت بتفجير نفسها ضد جيش الاحتلال في جنوب لبنان"، ووقعت العملية بتاريخ: 1985/4/9.

كما كتب القصيبي منتقدا الضعف العربي، على الرغم من أنه كان وزيرا وسفيراً؛ ممثلا بمعنى ما للنظام العربي، إلا أنه كان يعبّر بصدق عن قضايا الأمة، واستطاع أن يتعايش مع فكرة الانتماء للنظام العربي والقدرة على انتقاد مخرجاته، صيغة صعبة وشائكة إلا أنها كانت ممكنة، وتحققت في

أشعار غازي القصيبي ومقالاته، كما تحققت في أشعار نزار قباني أيضا الذي كان سفيراً إلا أنه انتقد النظام العربي الرسمي والرئيس جمال عبد الناصر، واستشاط غضبا في قصائد كثيرة، ووقف مع المقاومة الفلسطينية وعارض عملية السلام بين العرب والاحتلال وكتب "المهرولون". يلتقي د. غازي والشاعر نزار عند هذه النقطة.

أعيد قراءة وتأمل قصيدة القصيبي "حدائق الغروب"، وتضمنت مجموعة من الأبيات التي يعرب فيها عن ثباته على مواقفه، دون أن يدّعي البطولة والعنترية، إنما بكل بساطة شاعر وعاشق وإنسان لم تغره المغريات من حوله. هذه القصيدة معجونة من أفكار شتى ذاتية بعد أن وصل إلى عمر الخامسة والستين، لذا تشعر في القصيدة إيقاع الزهد والرجاحة والحكمة، وهذا الإيقاع عموما إيقاع مصاحب لمن يعيش الحرب، إذ تجعلك الحرب أحياناً زاهداً حكيماً، ناضجاً، لا يحلو بعينك شيء من حطام هذه الدنيا.

إنْ ســـــاءلوكِ فقـــــولي: كـــــان يعشـــــقني
بكـــــلِّ مـــــا فيـــــهِ مـــــن عُنـــــفٍ وإصرار
وكـــــان يـــــأوي إلى قلـــــبي ويســـــكنه
وكـــــان يحمـــــل في أضـــــلاعهِ داري
وإنْ مضـــــيتُ فقـــــولي: لـــــم يكـــــنْ بَطَـــــلاً
لكنـــــه لـــــم يقبّـــــل جبهـــــةَ العـــــارِ
إن ســـــاءلوكِ فقـــــولي: لـــــم أبـــــعْ قلـــــمي
ولـــــم أدنّـــــس بســـــوق الزيـــــف أفكـــــاري
وإن مضـــــيتُ فقـــــولي: لـــــم يكـــــن بَطَـــــلاً
وكـــــان طفـــــلي ومحبـــــوبي وقيثـــــاري

في القصيدة شيء من رثاء النفس، استشعاراً بدنو الأجل، بل إن فيها ذلك التوقع لموقف من يخاطبها بعد أن "يمضي" راحلاً، مؤكدا صفاته ومناقبه الحميدة، إضافة إلى صياغة القصيدة بأسلوب الشرط والفعل الماضي، ففي

القصيدة أكثر من ثلاثين فعلا ماضيا، عدا الأفعال المضارعة التي تدل في سياقها على الماضي، تلك المسبوقة بحرف الجزم "لم". كل هذه الأفعال تعطي القارئ شعورا بالتعاسة، والحزن، والتفكر بالحياة وجدواها.

كل ذلك جعلني أفكر بالقصيدة، كيف عبرت ألفاظها عن فكرتها، وأبانت عن نفسية الشاعر، ما يعني أنه شاعر يكتب بالحس والفكر معاً، وله هذه اللمسة الخاصة التي لا تجدها عند غيره من الشعراء، ما يجعله في مصافّ الشعراء الكبار، على الرغم من أنه لم يرد أن يصف نفسه بالشاعر الكبير والعبقري، كما جاء في مقدمة كتابه "سيرة شعرية": "لا أعتبر نفسي شاعراً عظيماً، ولا أتوقع أن أصبح في يوم من الأيام شاعرا عظيماً"، وأعتقد جازما بما قدّمه القصيبي من أشعار، ووجهة نظر نقدية حول الشعر، ومنتخاباته الشعرية، وترجماته لكثير من قصائد الشعراء الأجانب، تؤهلّه بأن يكون شاعراً مميزا عظيماً، وليس شاعراً كبيراً فقط.

ينهي القصيبي القصيدة بالمغفرة. بالنسبة لي، الحرب من أكبر دواعي طلب المغفرة، مع أنني لستُ نادما على ما قدمت من شعر وقصص ومقالات حول أفكار حب مختلفة، فكوني شاعراً متغزلاً بالنساء، فإن هذا لا يعني بالمطلق أنني لا أشارك بالمعارك الفكرية والدينية أو بمعارك الوطن المصيرية التي كان لي فيها مواقف واضحة، كهذه الحرب التي تدور وتدور، وكأنها بلا نهاية، فلكل حادثة حديث، وإن رأيتني أحياناً أقع في فخ "الاستحمار"، لكنني مع كل ذلك، ما زلت أرفض وبقوة أن أتعايش مع أي نوع من أنواع الاستعمار، وأنفر من كل مَن كان له صلة بذلك.

لعلّ أهم نقطة خلاف بيني وبين "أميرة الوجد" هي هذه النقطة، فلم تكن تريد لي أن أكون هناك؛ شاعر غزل مكشوف ألبتة، وإنما عليّ فقط أن أخلّص كتاباتي من كل ما اعتبرتْه شراً لأخلص لما هو أهم. افترقنا ولم تعد تقتنع حتى وهي تراني أناضل بما أستطيعه على هذه الجبهة الملتهبة، لقد فقدَتِ الثقة بي وهذا يحزنني.

القصيدة الثانية للشاعر القصيبي قصيدته التي يجيب فيها على سؤال نزار قباني، السؤال الذي جعله محور قصيدته المشهورة "متى يعلنون وفاة العرب؟". هذا السؤال لم يكن ليخرج من دائرة تفكيري منذ قرأت القصيدة أواسط التسعينيات في جريدة القدس الفلسطينية. ما زلت أحتفظ بالقصيدة التي قصصتها من صفحة الجريدة يومذاك. كنت معنيا بهذا السؤال كثيراً، وعمّق عندي الرؤيا الشعرية ما تفتح وعيي عليه وأنا عضو في أحد الأحزاب الإسلامية، أن الأنظمة العربية مقسمة الولاءات بين دول الاستعمار الحديث والقديم. وكنت أشعر بالتعاسة وأنا أتعرف على تاريخ القضية الفلسطينية، وما فُعل بنا في فلسطين أيام النكبة، وأيام النكسة، وأيلول الأسود، ومعارك لبنان ومجازره، وخذلان الأنظمة لنا في انتفاضتنا الكبرى عام 1987، كما خذلتنا في كل حروبنا مع الكيان الغاصب فيما بعد، وخاصة الحرب الأخيرة (أكتوبر- 2023)، فشعب كامل يباد ويحارب، ونحن منهم وفيهم ولا يحركون ساكناً، فعلا إنهم أموات. كان السؤال واضحاً، وقد طرحه نزار قباني، وهو يعرف أن العرب أموات، ولا يحتاجون إلا لمن يعلن وفاتهم.

الشاعر غازي القصيبي يحرر السؤال من عقدة الحيرة القاتلة، ويفضح المسكوت عنه، ويكتب قصيدته على الطريقة النزارية الواضحة التهكمية المؤلمة، ويعنونها بهذا العنوان "من غازي القصيبي إلى نزار قباني الذي سأل: متى يعلنون وفاة العرب؟". وفيها يقول الشاعر الموجوع:

"نزار أزف إليك الخبر...

لقد أعلنوها وفاة العرب

وقد نشروا النعْيَ فوق السطورِ

وبين السطورِ... وتحت السطورِ

وعبْرَ الصُوَرْ!

وقد صدَرَ النعيُ...

بعد اجتماعٍ يضمُّ القبائلَ

جاءته حِمْيَرُ تحدو مُضَرْ".

ترتفع في القصيدة نبرة الغضب والهجاء والسخرية من أفعال العرب الذين يمارسون الاستحمار على أصوله في كل مناحي الحياة العربية، ومنها هذا المقطع حول أداء الإذاعات والتلفزيونات العربية التي كانت وما زالت في واد وقضايا الشعوب في واد آخر:

"وإيَّاكَ أن تتشرَّب روحُك

بعضَ الكدَرْ

ولكننا لا نموتُ... نظلُّ

غرائبَ من معجزات القَدَرْ

إذاعاتُنا لا تزال تغنّي

ونحن نهيمُ بصوت الوترُ

وتلفازنا مرتع الراقَصاتِ

فكَفْلٌ تَثَنّى... ونهدٌ نَفَرْ".

لقد كانت إذاعتنا المحلية الفلسطينية، وليس فقط الإذاعات العربية، في أحايين كثيرة تبث الأغاني العاطفية، والشعب يقتل هنا وهناك، وكنت أتعجب كيف يطيب لهم أن يبثوا هذه الأغاني والناس في بقعة ما من هذا الوطن تحت القصف والخسف في نابلس وجنين والخليل، عدا حالة غزة

التي لم يتوقف فيها نزيف الدم ولو يوما واحدا. على ما يبدو فإنها سياسة مدروسة حتى لا تتسع المعركة، وكانت طريقة جهنمية خبيثة لتثبيط العزائم، وتبلّد الأحاسيس والشعور مع جزئنا المذبوح.

ولا يفوت الشاعر القصيبي أن يعرج على مؤتمرات القمة الخاوية من المعنى، بل إنها تحمل المعنى السلبي، فهذه المؤتمرات تباهي "بعولمة الذل يفخر بين الشعوب بداء الجرب". هذه الحالة التي يصفها الشاعر هي هيَ لم تتغير، منذ كتب قصيدته عام 2003، ومنذ كتب نزار قصيدته في التسعينيات، فقد جاء وأعادها الفنان التونسي لطفي بشناق بقصيدة مغناة كتبها الشاعر السوري عماد الدين طه (2018):

فـــالعرب بـــأخطر مرحلـــةٍ   وجميـــــع حـــــرفهم علّـــــةْ
أغـــــرتهم كـــــثرتهم لكـــــن   وبـــــرغم جمــــوعهم قلّـــــةْ
وبـــوادي النمـــل إذا عـــبروا   ســتموت مــن الضـحك النملــةْ

والقصيدة أيضا تذكر بأغنية فيروز "أجراس العودة" التي كتب كلماتها الشاعر اللبناني سعيد عقل، لكن الشاعر عماد الدين طه يرى أنّ:

أجـــراس العـــودةِ إنْ قُرِعَـــتْ   أو لـــمْ تُقْـــرَعْ فلِـــمَ العجلـــةْ؟

لقد رأينا هذا التأني غير العاقل عندما تداعى العرب إلى عقد القمة الأخيرة بتاريخ:2023/11/11 بعد أكثر من شهر من العدوان الهمجي على قطاع غزة. هذه هي حال العرب وأنظمتهم القمعية الفاشلة التي لم تعد تساوي أكثر من اقتراح يسقطه الفيتو الأمريكي، فهم لا وزن لهم ولا قيمة، ويرضون بذلك ويستمرئون المهانة والصغار ويكفيهم بعد مزار القتل والصفقات السياسة التي تودي بكل قضايا العرب المصيرية بما فيها القضية الفلسطينية أن أحدهم:

ويعـــــودُ لِيُكمِـــلَ ســـــهرتهُ   في نـــــادي أشراف الدّولـــــةْ

وهكذا، ولأن العرب ميئوس منهم ومن نصرتهم، ترى غازي القصيبي- رحمه الله- يختم قصيدته بقوله:

"نزارُ! أزفُّ اليكُ الخَبَرْ

سئمتُ الحياةَ بعصر الرفات

فهيئْ بقُرْبكَ لي حُفرَةَ!

فعيش الكرامةِ تحتَ الحُفَرْ".

ليس فقط تحت الحفر، وإنما عيش الكرامة في غزة وهي تناضل بكل ما أوتيت من إرادة وصلابة، لعلها تهزم التنين الأمريكي المتوحش الذي أوغل في اللحم والعظم والجغرافيا.

تميم البرغوثي وفكرة الانتصار

ثمة التفاتة أخرى لازمة للشعراء، دفعتني الحرب إلى إعادة قراءتهم أو الاستماع إليهم. من هؤلاء الشعراء تميم البرغوثي الذي برز شاعرا مقاوماً، سواء بأشعاره الجديدة أو تلك التي استعادها من هم على شاكلتي من الاهتمام بالحرب وشعر الحرب، فقد أعاد كثيرون التذكير بمقاطع مرئية للشاعر، بل إنه هو نفسه أعاد نشر قصائد سابقة له، كانت تتناول الحرب أو المقاومة. هذه القصائد تتحدث عن الحالة الراهنة كأن هذه النصوص كتبت من وحي هذه الحرب.

تزخر هذه القصائد بفكرة الانتصار، بل إن هذه الفكرة تشيع في قصائده كلها، فهو يؤمن بقدرة المقاوم الفلسطيني على الانتصار، ففي ديوان "في القدس" تبرز هذه الفكرة بجلاء، فهو من الشعراء الذين لم ينكسروا، ولم يعرف اليأس طريقا إلى قصائدهم وروحهم. بل إن تميماً يسوّق هذه الفكرة في مقابلاته وأفكاره خارج الشعر، ما يدل على أنه مؤمن بحتمية النصر والقدرة على إحراز النصر والتمكين، بل لعله أوّل من صرّح قائلاً: بأن تحرير فلسطين على أيدي أهلها ممكن من نهرها إلى بحرها، وأن تحريرها قد بدأ بالفعل.

يفطن تميم الشاعر والسياسي إلى فكرة "عدم التسليم بالهزيمة"، مبكّراً، لأنه متابع جيّد للحالة الفلسطينية سياسيا وعلى صعيد المقاومة، ففي قصيدته "الموت فينا وفيهم الفزع" التي يهديها "إلى المقاومة في غزة" قبل أكثر من عشر سنوات ونشرت في ديوانه "في القدس" عدم اعتراف باليأس على الرغم من كثرة الشهداء، وعنف الموت في غزة، مع أنه يقرّ بوحشية العنف الصهيوني إلا أنه يعلن مخاطباً الدهر قائلاً:

وكلمـــــا هـــــمّ أن يقـــــول لهـــــم
بـــــأنهم مهزومـــــون مـــــا اقتنعـــــوا

بل إن تميماً في هذه القصيدة يعبّر عن ذلك اليقين الذي تتشبع به روح الإنسان الفلسطيني؛ رجلا كان أو امرأة، ورأيناه على ألسنة الناس في غزة، كقول ذلك الفتى المكلوم في رأسه الخارج من تحت الأنقاض المعفر بالتراب، رأسه وملابسه: "نحن أبطال.. نحن غزة"... فتى يخرج من تحت الركام يفتخر باستشهاد أمه وأخواته ومتوعدا الاحتلال. أو تلك المرأة التي تصرخ في حالة مشابهة: "الله معنا والنصر لنا".

هذه الروح المعنوية العالية لأناس أصابتهم آلة الحرب بجبروتها، إلا أنهم ظلوا شامخين لم ينكسروا، حالة إنسانية فريدة سطرها تميم في هذه الأبيات التي لا ينتهي معناها، وستظل تعاد مع كل معركة وعدوان:

ثـــــم تـــــراهم مـــــن تحتهـــــا انتشـــــروا
كزئبـــــقٍ في الـــــدخان يلتمـــــعُ
يبـــــدون للمـــــوت أنـــــه عبـــــثٌ
حـــــتى لقـــــد كـــــاد المـــــوت ينخـــــدعُ

هذه المفارقة التي تجعل الغزاة المدججين بالسلاح والعتاد، يخافون من هؤلاء الناس العزل المقاومين بلحمهم، فيخاطب تميم هؤلاء الغزاة، فاضحاً حالتهم البائسة بقوله:

ســـــتون عامـــــاً ومـــــا بكـــــم خجـــــلٌ
المـــــوت فينـــــا وفـــــيكم الفـــــزعُ
لـــــم نلـــــقَ مـــــن قـــــبلكم وإن كـــــثروا
قومـــــاً غـــــزاةً إذا غـــــزوا هلعـــــوا

فمن كانت تلك حالتهم لا يمكن لأي استعمار أن يهزمهم، وسيعودون مرارا وتكراراً، وهذا ما يؤكده تميم في قصائد أخرى، ليعيد الغزاة قتل الفلسطيني مرات ومرات، لكنه ما زال حياً، ثابتاً، ويقاوم:

يرجع مرة أخرى لنفس البيت، يقصفه،

ويقنع نفسه، ماتوا، بكل طريقة ماتوا،

ويسأل نفسه، لكن ألم أقتلهمو من قبل،

من ستين عاماً، نفس هذا القتل،

نفس مراحل التنفيذ،

لست أظنهم ماتوا...

لذلك ترى تميما في قصيدته "معين الدمع"، مؤكداً هذه الحالة من الروح العالية التي تتوق للحرية والانعتاق، والصبر على البلاء، وعدم اليأس، فهذا المعين "لن يبقى معينا":

عرفنـــا الـــدهر في حاليـــه حـــتى تعودناهمـــا شـــدا ولينـــا
فمـــا رد الرثـــاء لنـــا قتـــيلا ولا فـــك الرجـــاء لنـــا ســـجينا
ســـنبحث عـــن شـــهيد في قمـــاط نبايعـــه أمـــير المؤمنينـــا
ونحملـــه عـــلى هـــام الرزايـــا لـــدهر نشـــتهيه ويشـــتهينا
فـــإن الحـــق مشـــتاق إلى أن يـــرى بعـــض الجبـــابر ســـاجدينا

فدوى طوقان ومعاناة الانتظار

في هذا العام (2023) تكمل الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان عشرين عاماً من الرحيل (2023/12/12)، تمرّ ذكرى وفاتها وحرب غزة على أشدها، والقتل والدمار مستحرّ ولا يهدأ. أعود إلى أشعار فدوى أيضا لأستجلي صورة ما من صور المعاناة.

بعد عام 1967 كتبت فدوى طوقان شعرا مقاوماً، وشاع شعرها هذا وانتشر فلسطينيا وعربياً، فضلا عن أنها كانت شاعرة معروفة قبل ذلك عربياً، وفلسطينيا بطبيعة الحال، وتنشر قصائدها في كبريات المجلات والصحف العربية، وسببت بعض أشعارها قلقاً للمحتلين، ومنعت من إلقاء الشعر في الجماهير في مدينة نابلس. نظر المحتل إلى قصيدة "آهات أمام شباك التصاريح" من ديوان "الليل والفرسان" على أنها قصيدة متوحشة من شاعرة وصفها بأنها "آكلة لحوم البشر". تخيلوا الصلف الصهيوني كيف يدمر المنطق والقصائد ويشوّه الشعر والشعراء.

في موقف الاحتلال من القصيدة غير ملاحظة، الأولى تلك التي أشرت إليها أعلاه؛ وتومئ إلى تعامله مع الفلسطيني وتفسيره لأقواله، وما في ذلك من انحراف نصيّ، يُظهره فيه أنه "متوحش". وينسى نفسه، بل إن هذه الصورة تفترض أنّ المحتل آدميّ، وابن حلال، والقطة تأكل عشاه، ويظهر أنه مجنيّ عليه ومظلوم من الفلسطيني الذي يحاول دائما إلصاق كل أوصاف التخلف به.

وفي الملاحظة الأخرى يبدو الاحتلال كعهده لا يحسن القراءة، ويصرّ على أن يسيء التفسير، وفي تعامله مع النص يظهر أنه يتعمد الإساءتين معاً؛ التأويل والقراءة؛ مقتطعاً من النص بعضه ليدلل على صحة أوهامه واستقرارها في وعيه، فلا يأخذ النص كاملا، وإنما لا بد له من أن يجتزئ ما يريد، ليعيد تركيب الصورة التي يريدها هو، لا ما هي في الحقيقة.

هذا المنطق ليس خاصا في التعامل مع نصوص الشعراء، وإنما أيضا مع الأحداث، يفربكها، ويعيد تركيب مشاهدها، هكذا حدث في أحداث الحرب الأخيرة الجارية في غزة، يعيد خلق أحداث جديدة يبنيها على تصورات غير صحيحة، وقد أثبتت كثير من الشهادات والتصريحات والتحقيقات الصحفية كذبها، بدءا من صورة المقاومة غير الإنسانية التي تقطع رؤوس الأطفال وتغتصب النساء، وتحرق المدنيين. كل ذلك له قاعدة واحدة من المنطق هو التشويه، ففي الوقت الذي يفبرك به تلك الأخبار يقتل كل شيء في غزة بأعتى الأسلحة المجنونة التي لا تبقي ولا تذر، وما زال يسوّق للإعلام الغربي أنه ضحية، وأنه يدافع عن نفسه، كأن هؤلاء الأطفال الخدّج والرضع وطلاب المدارس هم معتدون، ونسي أنه يحاصر غزة ويقتل أبناءها منذ ما يزيد عن خمسة وسبعين عاماً. كيف استطاع أن يقدم الصورة مبتورة؟ إنه قادر على أية حال ليفعل ذلك، فهو قد اقتطع من قصيدة فدوى طوقان بعض أسطرها ليلفق لها تهمة، ولم يقرأ ما قبلها ولا ما بعدها. وإن قرأ لم يرد أن يربط أجزاء النص؛ بعضها ببعض، يبدو أنه معذور، فهو ليس ناقدا أدبياً، إنما هو ومحتل يحاسب المضطهدين على نواياهم وأحلامهم وتمنياتهم، فما بالكم بكتاباتهم وأشعارهم وكتبهم التي كان يمنع وجودها في مكتبات المدارس، ويحرص على ألا تدخل إلى فلسطين فلا تصل إلى المكتبات والأكشاك التجارية؟

تتحدث القصيدة عن المعاناة التي يلقاها المسافرون من أبناء الضفة الغربية إلى الأردن بعد أن استقرت الأحوال للاحتلال، وأعاد فتح الحدود بين الأردن وفلسطين، ورمم جسر اللنبي، يقف الرقيب عند قول فدوى:

حقدي رهيب، موغلٌ حتى القرارْ

صخرةٌ قلبي وكبريتٌ وفوَّارةُ نارْ

ألف (هند) تحت جلدي

جوع حقدي

فاغرٌ فاه سوى أكبادهم لا

يُشبعُ الجوعَ الذي استوطن جلدي

آه يا حقدي الرهيبَ المستثارْ

هذا ما لفت انتباه الاحتلال، لكنه لم يلتفت إلى معاناة الشاعرة في أكثر من ثلاثين سطرا تتحدث فيها الشاعر عن إذلال الناس وهم أمام شباك التصاريح، وما يعانونه من الانتظار في حرارة الصيف القائظ، ونسي شتائمه للعرب بأنهم: "عرب، فوضى، كلاب، ارجعوا، لا تقربوا الحاجز، عودوا يا كلاب". هل يصح للشاعرة أن تعترض على هذه الحالة المزرية التي وصلت إليها بفعل الاحتلال وإجراءاته؟ يبدو أنه لا يحق لكَ أن تعترض، ولا أن تبدي امتعاضاً ما. وإلا سيكون مصيرك أن توصم بصفات "التوحش" و"أكل لحوم البشر"، كما حدث مع الشاعرة فدوى طوقان. صدق مثلنا الشعبي الفلسطيني "الجمل ما بِعِدّ عَوْجة رقبته" مع اختلاف كبير بطبيعة الحال بين الجمل والاحتلال، لصالح الاحتلال هذه المرة؛ لأن اعوجاجه أشد من اعوجاج رقبة الجمل، هذا الاعوجاج الدالّ على الهمجية والتكبر، لا على اعوجاج الخلقة الربانية الحكيمة، كما هي رقبة الجمل.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تقف فيها الشاعرة هذا الموقف الرهيب؛ إذ تتمركز فكرة العبور نحو الضفة الأخرى في قصيدة ثانية في الديوان ذاته "الليل والفرسان" بعنوان "رسالة إلى طفلين في الضفة الشرقية"، مهداة "إلى كرمة وعمر"، تقول في بدايتها:

يا كرمتي أود لو أطير

على جناح الشوق لو أطير

لكنّ تَوْقي يا صغيرتي مقيد أسير...

يعجزني يا كرمتي العبورْ

فالنهر يقطع الطريق بيننا

وهم هنا يرابطونْ

كلعنة سوداء هم هنا يرابطونْ

قد نسفوا الجسورْ

وحرَموني منك يا صغيرتي

وحرّموا العبورْ

وتعود الشاعرة في ديوان "تموز والشيء الآخر" إلى الموضوع نفسه، وإجراءات الاحتلال التعسفية عند المرور إلى الضفة الشرقية من نهر الأردن عبر الجسر في قصائد أخرى، مثل قصيدة "انتظار على الجسر" حيث تركز عدستها الشعرية هذه المرة على معنى الانتظار نفسه، وما يمثله من حالة نفسية استبطانية جوانية، تقول في واحدة من مقاطع القصيدة:

ليالِيَّ واقفةٌ، ضفة النهر عطشى

ونحن على الجسر- عيني وقلبي وأذني-

على الجسر نحن عطاشٌ عطاشْ

ولكنما الأردن اليوم يلجمه الليل، لا يتدفق-

لكنما الأردن اليوم ليس يغني

منابعه لا تدندن، آه، وعدْتَ تجيءْ

مجيئك دفق المياه وقوتها الدافعة.

وفي الديوان نفسه، تعود إلى الموضوع ذاته في قصيدة بعنوان "حكاية أخرى أمام شباك التصاريح" مذكرة بقصيدتها الأولى. لم يُسمح للشاعرة بالمرور هذه المرة، وعادت من حيث أتت، فقد جاءتها الأوامر صريحة مباشرة محملة بفظاظة عالية المستوى. في هذه القصيدة يظهر صلف الجنديّ والضابط. (مع تحفظي الشديد على استخدام هذين الوصفين النظاميين بحقهما؛ الجندي والضابط، إنهما عنصران في فرقة إجرام منظم). تصف الشاعرة المشهد بقولها:

لم أزل أحتمل الإذلال والقهر وأصبرْ

صاح في حدته القصوى: (افهمي يا هذه ما قلت... هيا وارجعي من حيث أقبلتِ)

وأقصاني وأقصاني بعيداً وتوتَّرْ

فتراجعت بخطو يتعثرْ.

وعادت فدوى، ومنعت من المرور، وبقيت التهمة حاضرة، كما يفعلون اليوم مع تُهَمٍ أخرى؛ من قبيل "معاداة السامية"، وإنكار المحرقة اليهودية، فالمنطق هوَ هو لم يتغير، وهو نفسه موقف الأمريكان والمحتلين عموما الملخّص بجملة مهمة: "كل من هو ليس معنا، فهو ضدنا". هذه هي المعادلة التي يتعامل فيها الصهاينة معنا، ومع العالم، حتى استطاعوا تكميم الأفواه وملاحقة الكتّاب والشعراء وتصفيتهم جسديا من أمثال غسان كنفاني وماجد أبو شرار وكمال ناصر وغيرهم الكثير من الفلسطينيين والعرب، عدا العلماء والقادة الذين تم اغتيالهم أو محاولة اغتيالهم.

هذا المنطق نفسه الذي تعاملوا به مع قصيدة فدوى طوقان، سيطبقونه في تعاملهم مع قصيدة "عابرون في كلام عابر" للشاعر محمود درويش فيسيئون القراءة والتفسير، والنتيجة مجموعة أوصاف مدّعاة يصفونه بها ويعممونها على الفلسطيني، متهمينه بتدمير كيانهم وقتلهم جميعا عن بكرة أبيهم، ونسوا أنهم في حينه، أيام انتفاضة الحجارة فعلوا بنا الأفاعيل، فقتلوا، وهجروا، وهدموا البيوت، وسجنوا آلاف الفلسطينيين، وأغلقوا المدارس، وحاربوا الكتاب والدفتر والأقلام والألوان، وحاربوا الفن والأغنية والنشيد، وحرّموا علينا الاستماع إلى إذاعات معينة، ثم أعادوا الكرة في انتفاضة الأقصى، وها هم يعودون إلى عادتهم التي تربّوا عليها، وكما قال المثل الفلسطيني: عادت حليمة لعادتها القديمة. مع أن هذا الكيان لم يترك عادته ليعود إليها. كأن هذا المثل لا ينطبق عليهم أيضا، فقد دمروا لي منطق الأمثال كما دمروا المنطق العام السليم، ولكن؛ أليس معهم حق؛ فهم محتلون، وسارقو بيوت وأرض وأعمار؟ أفلا يحق لهم تغيير المنطق أو اختراع المنطق الذي يريدونه ويتوقون إلى التلذذ بتسويقه؟

بلى، فمع الاحتلال يحق كل شيء إلا المنطق الحق فهو ممنوع أن يكون قانوناً يحكمهم ويتحكّم بأحكامهم وقراراتهم وإجراءاتهم التعسفية القمعية. ولو خالفوا ذلك لم يكونوا محتلين، ومن كانت هذه عاداته فلا يؤاخذ، ولا يُعاتب، وإنما يهمل، ويُسعى لمحاربته ومحاربة منطقه، وليس إلى حواره وإقناعه، فهذه لغة متطورة حضارية لا يعرفونها، ولا يتقنونها ولا يؤمنون بوجودها.

عبد العزيز سعود البابطين الشاعر المؤسسة

رحل الشاعر عبد العزيز البابطين في اليوم السبعين للحرب (2023/12/15). كانت مؤسسة البابطين أول من انتبه إلى ضرورة توثيق معركة طوفان الأقصى شعراً، فأعلنت عن جائزة بثلاثة فائزين، لأفضل نص حول هذا الحدث الذي استشعر القائمون على المؤسسة عظمته منذ الأيام الأولى للحرب، كما كانت قد التفتت إلى استشهاد محمد الدرة عام 2000 لتخصص أيضا له ديوانا كاملا بأقلام نخبة كبيرة من الشعراء، وسبق أن تحدثت عن ذلك سابقاً في الوقفة الثالثة من هذه المساحة.

إضافة إلى كل هذا، فإن المؤسسة أعدت معجمها عن الشعراء العرب وضم بين دفتيه بمجلداته المتوالدة طبعة بعد طبعة آلاف الشعراء العرب، وهذه خدمة جلى للشعر والشعراء في زمان التكالب على السرد والارتماء في أحضان الرواية، وقد عززت المؤسسة هذا الاهتمام برعايتها تلك الجائزة الضخمة "جائزة عبد العزيز سعود للإبداع الشعري" في مجالات أربعة مرتبطة بالشعر ونقده: الإبداع الشعري لشاعر معين، تكريما لمسيرته الإبداعية، وفازت بها الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان في الدورة الرابعة، عام 1994، وجائزة أفضل ديوان شعر، وأفضل كتاب في نقد الشعر، وجائزة أفضل قصيدة، بالإضافة إلى فرع خاص للإبداع الشبابي؛ أفضل ديوان شعر للشعراء الشباب، وقد فازت بها الشاعرة الغزية آلاء القطراوي عام 2022.

إن مثل هذه الانتباهات الثقافية في سياق الحرب والأوضاع السياسية والعسكرية القلقة لتؤكد تناغم الثقافي مع السياسي في معركة مصيرية واحدة، لهذا فإن المؤسسة لم تتراجع أو تخفت حماستها، وهي ترى الغرب ينقضّ بوحشية على المقاومة في غزة، ينقضّ سياسيا وعسكريا وإنسانيا، وينحاز إلى المحتل الغاصب. لم تأبه هذه المؤسسة التي أسسها الراحل الكبير على قيم الحق والحرية والسلام المبني على الحقوق والعيش بكرامة، لم تأبه لكل الدعوات التي تصف قادة المقاومة بأنهم إرهابيون، لأن ميزانها واضح

وبوصلتها لا تميل ولا تحيد عن الحق، فمن حق الشعب الفلسطيني أن يقاوم محتليه وينتزع حريته من بين مخالب الغول، وهي بذلك متناغمة أيضا مع دعم دولة الكويت للشعب الفلسطيني في معركته المصيرية من خلال المواقف السياسية الرسمية الداعمة لحقوق الشعب الفلسطيني السياسية والإنسانية.

لقد لفت هذا الفعل الثقافي لمؤسسة عبد العزيز البابطين نظر مؤسسات أخرى لتعلن عن مبادرات ثقافية شبيهة. ولم تقف المسألة عند المبادرات الجماعية بل انفجر الشعر في دواوين كثيرة تحمل اسم "ديوان طوفان الأقصى". واستطعتُ الوصول إلى بعضها إلكترونياً، وتعدى بعضها اللغة العربية ليكون ديواناً شعريا ضخما باللغة الإنجليزية.

لم يقتصر أثر الطوفان على الشعر، بل امتد إلى أن يكتب أحد الأساتذة الأفاضل كتاباً جمع فيه الأحاديث الشريفة التي تؤيد الفعل الجهادي في غزة، وسمّاه على غرار كتاب "الأربعون النووية" "الأربعون الحماسية- أربعون حديثاً تتعلق بجهاد حماس عن فلسطين أرض المسلمين"، وكتاب "فتح الهادي في فضل الجهاد- طوفان الأقصى" للدكتور ياسر جابر الرشيدي، عدا الكتب الفكرية والسياسية والأبحاث والمقالات والبرامج والمرئيات، وهي كثيرة، صعبة الحصر والإحصاء. هذه الحركة الثقافية الفكرية المشتعلة أحيت الأمة، لأن طوفان الأقصى كان حدثا عظيماً بالفعل.

أظن أنّ كل هذا الذي يحدث الآن من التفاتات ثقافية كبيرة ستأخذ مكانها على رفوف المكتبات العربية وعلى طاولات البحث للنقاد والدارسين، أشعلت فتيله هذه المؤسسة الكبيرة الفعل والأثر، لما تتمتع به من حضور ومصداقية في الأوساط الثقافية، أفراداً ومؤسسات.

إن رحيل مؤسسها الشاعر عبد العزيز سعود البابطين سيجعل مَن بعده أكثر إصرارا على مواصلة مسيرته في الانحياز للحق الإنساني، وخاصة في فلسطين المكلومة المصابة بهذا الاحتلال الذي لا يعرف للإنسانية معنى.

رحم الله الشاعر عبد العزيز البابطين، رحمة واسعة، ورفع درجته في عليين، ولا شيء أفضل من أن نرثي الشاعر ونعزي أنفسنا والأسرة الثقافية بأبيات من شعره، تؤكد قيمة العطاء، وأنه لا شيء يعدل أن تبذل ما تستطيع من أجل أن تنال عمرا أطول فوق عمرك القصير، ولدلالة هذه الأبيات الخالدة على شاعر بذل حياته كلها من أجل القيم الإنسانية الخالدة فقد نقشت في جامعة أكسفورد:

خلّــــد ســــجلّك فالبقـــــاء قليـــــل

إن الزمــــــان بعمــــــره لطويــــــل

واســـكب عطـــاءك للجميــــع فإنـــه

يـــــبقي العطـــــاء وغــــيره ســـــيزول

واعلـــم بـــأن المـــرء يفقـــد قَـــدْره

إن عـــاش بـــين النـــاس وهـــو بخيـــل

لم يكن- رحمه الله- بخيلاً، فلا جواد كمن أعطى حياته وسخّرها للآخرين، كما فعل الراحل الكبير الشاعر عبد العزيز سعود البابطين، فجزاه الله خيرا عما قدم، وأحسن العزاء لذويه ولمريديه ومحبيه وللكويت حكومة وشعباً ومؤسسات ثقافية، وللعالم أجمع الذي فقده إنساناً، قبل أن يفتقده أيضاً شاعراً إنسانياً كبيراً.

لا أريد أن يتفلسف النقاد

في الحرب يعود كل شيء إلى نقطة الصفر وإلى المربع الأول، الحياة والأدب والفلسفة. فالحرب تعيدنا إلى الفطرة الأولى لنواجه أنفسنا بالحقيقة التي علاها غبار الفلسفة الزائدة عن الحد، في الحرب يواجه المرء نفسه شجاعا لا يخاف من الموت، كما لا يخاف من ثقل الأسئلة المرة التي كان يظن أنه قد أحسن التعبير عنها.

اليوم هو الجمعة (2023/11/3) اليوم التاسع والعشرون للحرب على غزة: الجميع ينتظر خطاب المدعو "حسن نصر الله" وتحليلات يوم الخميس القائمة على "الفيلم الصامت للأمين العام" تغرق المشاهدين والمتابعين فيما سينجلي عنه الوحي النازل عليه، وإذ به "ضغث على إبّالة"، وكل ما عاشته الشاشات ليستمع إلى السورة العصماء الإلهية لسماحة السيد وإذ بها خبر وإعادة خبر لا تسمن ولا تغني من جوع ولهفة وترقب الأرواح التي انتظرت أن يغيثها صاحب العمامة السوداء، وإذ بها بالفعل عمامة سوداء لا أمل فيها ولا خير ولا تقوى.

شخصيا لا أومن بالسيد- ولا بغيره من "السادة النجبِ"، كافر بهم جميعا كفرا مؤبدا حتى ألقى الله وأنا على ذلك- وليس عندي نبيا ولا إلهيا ولا هو بشيء أبدا، إنه جندي يأتمر بأمر ممولیه. لذلك كنت مسبقا أعرف أنه لن يأتي بشيء مطلقا، فلم أعوّل عليه، ولم أنتظر ما قاله في وقته بل بعد هدأة الليل وقد خلوت إلى نفسي.

هكذا، ببساطة شديدة، تشبه بساطة الجدات الواعيات: الموت فاغر فكيه العظيمين في غزة، تسعة وعشرين يوما وسماحته صامت، هذا كان مؤشرا فاضحا على الخذلان لا شك في ذلك. لم أستغرب هذا إطلاقا وتوقعته، ولم أشعر حتى بخيبة أمل، لأنني لا أعوّل عليه بشيء، فمرّ كذبابة طنّت وتلاشى صوتها في فراغ الصوت المعبأ بصراخ أطفال غزة الذين ضحك السيد على أهلهم بطائفة من الآيات التي رآها أعظم هدية لهؤلاء الضحايا. ظننت

للحظة أنه في مقام النبيّ محمد ﷺ، وقد تنزل الوحي عليه وأخذ يبشر الشهداء بالجنة. إنه الاستحمار بعينه يا سيد حسن.

عوضا عن ذلك، لم أحفل بهذه التلاوة غير العطرة لسورة حسن اللاحسنة، وذهبت لأستمع إلى أدونيس في لقائه الموسع مع الإعلامية رابعة الزيات في برنامج حكايتي، في هذا اللقاء الممتد إلى ما يزيد عن ساعتين كان أكثر فائدة من خطاب تضليلي مراوغ. ذكرني خطاب سماحته بقصائد عباس لأحمد مطر، ومنها هذا المقطع الدال على ما نحن فيه بالضبط، وينطبق ليس على سماحته فقط، بل على كل الحكام والأنظمة التي تراقب وتدعو علينا بشغف الكافر المتشبث بأصنامه لننهزم في غزة شر هزيمة، لهؤلاء العبابسة كتب أحمد مطر:

لملم عباس ذخيرته والمتراس

ومضى يصقل سيفه

عبر اللص إليه، وحل ببيته

أصبح ضيفه

قدم عباس له القهوة، ومضى يصقل سيفه؛

صرخت زوجة عباس: أبناؤك قتلى، عباس

ضيفك راودني، عباس

قم أنقذني يا عباس

صرخت زوجته: عباس، الضيف سيسرق نعجتنا

قلب عباس القرطاس، ضرب الأخماس بأسداس

أرسل برقية تهديد

فلمن تصقل سيفك يا عباس؟

لوقت الشدة.

هذا عباس غير عباسنا، لكن نبوءة الشاعر الغيبية جعلت العباسين ثلاثة بعد العباس الثالث سماحة السيد. بل إنهم اثنان وعشرون عباسا ويزيد، كلهم لا خير فيهم سوى أنهم مع العدو علينا.

أعود لأدونيس ومقابلته مع الزيات. سمعته جيدا جدا. كثير مما قاله لا جديد فيه، لكن ما استوقفني وله علاقة بالحرب ودور الأدب في الحرب، رأيه في أشعار أحمد فؤاد نجم السياسية التي لم يعد لها أهمية سوى الأهمية التوثيقية، بمعنى أنه لا قيمة فنية لهذه الأشعار سوى أنها تُقرأ في سياق التاريخ الذي قيلت فيه، وكذلك أشعار محمود درويش في مرحلته الأولى، كما حقّبها أدونيس في حقبتين، وكذلك أشعار نزار قباني السياسية. ثمة وجهة نظر لأدونيس حول الشعر وكيف يكون. لا شأن لنا بها الآن، إننا مشغولون بما هو أهم، الإنسان الذي هو أهم- كما يقول أدونيس- من الدين والفكر وأي شيء آخر.

يعيدني قول أدونيس إلى ضرورة تأكيد أهمية دور الشعر السياسية، صحيح أنني كنت أميل إلى رأي أدونيس كثيرا بل من أنصاره في النظر إلى الشعر السياسي، وبيّنت ذلك في كتاب "بلاغة الصنعة الشعرية"، لكن لا بد من أن يحمل الشعر الحربي السياسي وجهة نظر قائليه، بل أكثر من ذلك، ففي الحروب الوجودية الطاحنة لا بد من أن يتوجه الشعر إلى المعركة ليقول مقولته الصارخة، ويسجل الموقف حادا شجاعا واضحا لا مراوغا أبداً. هذه النقطة بالذات لم يتعرض لها أدونيس، ولم يتحدث عن الشعر في المعمعة، بل يقيّم الشعر السياسي بعد فترة من إنشائه، وحاولت المحاورة رابعة الزيات أن تشرح- بخجل كبير- وجهة نظرها في حضرة الشاعر والناقد والمفكر العربي العالمي أدونيس.

نحن الآن في معركة، ومعركة لا تُبقي ولا تذر، وتهدد وجودنا وكياننا، ومهددون بخطر الإزالة عن الخريطة السياسية المحلية والإقليمية، فكيف سيكون الشاعر في هذا الظرف، وأي كلام سيقوله. ربما عليه أن يصمت خير له من أن يبدو ساذجا وأبلهَ وأهبل، وهو يصطنع شعرا مواريا؛ لا يدعر الحقيقة بمخراز الكلام الحاد. هذا ما يجب علينا أن نفعله. أما أدونيس ورأيه فهو لمن يسعى إلى الشعر الذي ليس له علاقة بهذا الواقع المحترق، شعرٍ قائم على متعة الخيال المحض.

ومن أجل الحق والحقيقة أقول إن هذه المقابلة كانت قبل الحرب الأخيرة، لكنني أنا من يعيدها لتقرأ في سياق الحرب، لأن المنظّر الفكري والنقدي عليه أن يكون أكثر اتساعا في الرؤيا، فلا يرى السياق العربي خالصا من شوائبه ومصائبه ليحاكم الشعر بروح نقدية خالصة كما يُحاكم الشعر الفرنسي على سبيل المثال. بل إنني متأكد لو حدث في باريس ما حدث في غزة لرأيت الشعراء فيها يكتبون الشعر بلغة وإيقاع مختلفين عن ذلك الشعر الذي كتبوه أيام الكسل الفكري، والهدوء السياسي.

من أجل هذا الواقع الذي تزداد فيه الوقائع بلاغة في هيمنتها على الشاشة والرؤيا والرؤى والمصائر كلها لا ينفع أن يتفلسف النقاد علينا نحن أبناء الحرب. وعليه فإنني كشاعر يعيش ظرف الحرب سأكون سياسياً بامتياز، أحمّل الشعر وجهة نظري السياسية ضد السلطة السياسية والأنظمة الحيادية، وأعرب عن موقفي من المقاومة، ومن أشياء كثيرة في الحياة السياسية في فلسطين، فأدب الحرب هو بحد ذاته موقف سياسي، لا يحمل وجهة نظر سياسية فقط. هذا ما يجب أن يلتفت إليه النقاد في ظل هذا الظرف العصيب من حياتنا الشخصية الوجودية قبل الحياة السياسية.

أغنية عن الحرب: كارول سماحة ومحمود درويش

تابعت- كما تابع غيري- الهجمة غير المبررة على الفنانة اللبنانية كارول سماحة، لغنائها كلمات عن الحرب منسوبة للشاعر محمود درويش، وأكثر ما يغيظ في دفاع الكتاب والنقاد عن الشاعر قولهم إن الكلمات ساذجة والمعنى سطحي، والأسلوب ليس هو أسلوب محمود درويش، فهو الشاعر الكبير الذي لا يمكن أن يصدر عنه هذا الكلام. تقول كلمات الأغنية:

ستنتهي الحرب ويتصافح القادة

يقولون في بلادنا يقولون في شجن

عن صاحبي الذي مضى وعاد في كفن

وتبقى تلك العجوز تنتظر ولدها الشهيد

وتلك الفتاة تنتظر زوجها الحبيب

وأولئك الأطفال ينتظرون والدهم البطل

لا أعلم من باع الوطن

ولكنني رأيت من دفع الثمن

حاول البعض أن يبحث عن هذه الكلمات، هل هي فعلا للشاعر أم لا، فلم يجدوا أنها بتمامها له، وإنما وجدوا لها شبيها في المعنى وبعض الألفاظ في قصائد أخرى، وفي المحصلة خرج الحكم بأن كارول سماحة معتدية على سمعة الشاعر، فهي تدمر أسلوبه، وهي تنسب له كلاما رديئا مثل هذا، ليستدعي الأمر بمؤسسة محمود درويش في رام الله لتصدر بيان تستنكر فيه هذا الفعل، وطالبت المسؤولين عن العمل بوقف بثه. وأضافت المؤسسة أن القصيدة "دون المستوى المعروف به شاعرنا الكبير، وأن هناك مقطعا

وحيدا مجتزأ من قصيدة محمود درويش "وعاد في كفن" قد جرى تحريفه واستخدامه في الأغنية". إذاً، هذه هي النتيجة التي أجمع عليها كل من تناول هذا العمل الفني، والبيان جاء متأخرا عما كتبه النقاد، واستعارت المؤسسة منهم هذا الموقف النقدي.

تفترض ردود الفعل النقدية والصحفية والرسمية أن النص رديء بمجرد أن محمود درويش لم يقله، وكأنّ محمود درويش لا يقول شعرا رديئا وكلاما ساذجاً وسطحياً، وهذا بحد ذاته نوع من التأليه والتقديس والحكم النهائي الذي لا يُبتّ فيه، وعلى كثرة من كتب في الموضوع لم يبين هؤلاء "العباقرة" لماذا هذا النص رديء، ولماذا الأسلوب ركيك، وكيف خالف طريقة محمود درويش في الأداء. إنما جاء الحكم تعسفياً فارغاً من الأدلة. فهل فعلا درويش لا يقول شعرا رديئاً أو كلاماً ساذجاً؟

في كثير من المقابلات الصحفية المتأخرة مع الشاعر يودّ لو أنه يستطيع التخلص من كثير من قصائده الأولى التي يعدها رديئة، كما أنه لم يعترف بنصوص كثيرة، ولم تطبع في المجموعة الكاملة، وحذف من قصائد أخرى بعض المقاطع والجمل وغيّر في الكلمات، وسبق للشاعر أن قال في أحد الحوارات معه: "إن كثيرا من القصائد لا أريدها، ولكنها دخلت في وجدان الناس على نحو لا يمكنني معه أن أحاول استردادها". ما يعني أن الشاعر يعترف ضمنا وصراحة أنه كتب نصوصا رديئة بالفعل، كما لم يسلم من هذا كثير من الشعراء الكبار قديما وحديثا، ولا يصحّ ابتداء أن نقول إن درويشاً- أو غيره- لا يصدر عنه شعر رديء أو كلام ساذج، ونسلّم تسليما أعمى؛ أن كل ما كتبه "معجز" ولا يطاله النقد والانتقاد، بل كل الكتاب معرضون لمثل هذه الرداءة الأسلوبية، وهناك ما لا يحصى من الأمثلة من لدن المتنبي حتى أدونيس وما بعد أدونيس. فالكتاب والشعراء لا يكتبون قرآناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وشعرهم ليس تنزيلاً من حكيم حميد.

هذا من حيث صنعة الكتابة ذاتها التي يتفاوت فيها الشاعر نفسه من أول مسيرته الإبداعية حتى آخرها، فلا يقال مثلا إن درويشا كتب شعرا رديئا في بداياته، وأنه قد تخلص من الرداءة بعد ذلك، لأن الشاعر يمكن أن يصاب بالرداءة في أواخر حياته أكثر من أولها، بحكم أنه استُنزف أسلوبا وموضوعا، فصار أكثر عرضة للرداءة، وهذا ما حدث مثلا مع الشاعر خليل حاوي الذي أصدر مجموعة شعرية أخيرة بعد طول صمت، وأنها لم تكن بالمستوى المتوقع منه، فكانت سببا في انتحاره، كما يقول بعض المتابعين له ولشعره.

أما كيف اشتبهت المسألة فصار الشعر لمحمود درويش، فهذه مسألة أخرى، وتدل على أن الكلمات الرائجة بين الناس افتراضياً، تعبر عن ضيقهم بالحرب وويلاتها، وبالفعل أعيدت مرات ومرات واستشهد فيها منذ زمن طويل، ولم ينتبه أحد لهذه "الجريمة" إلا بعد أن غنتها كارول سماحة، وهذا يعني كثيرا في حقيقة الأمر، وأسوأ ما يعني عدم وثوقية النصوص الافتراضية الرائجة، وأنه لا أحد معني بها وتتبعها، فليكتب من شاء ما شاء ولينسبه لمن شاء، فلا أحد يعنيه، ليدقق وليمحص، ولينص "الحديث إلى أهله"، فلم تعد "الأمانة في نصه".

ومن جانب آخر مغاير تماماً، فإن المسألة تعني أن هؤلاء الافتراضيين افترضوا أن الشاعر يعبر عن أوجاعهم فألفوا كلاما ونسبوه إليه، لأن الشاعر بالنسبة إليهم هو ضميرهم الحيّ، فقوّلوه ما يريدون هم أن يقولوه ليمنحوا كلامهم شيئا من الشرعية والانتشار والتأثير، وهذه عادة عند العرب القدماء مستمرة لديهم منذ أيام الجاهلية وحتى الآن، وهذا ما كان يطمح إليه فريق ممّن تقوّل على الرسول الكريم أحاديث في موضوعات كثيرة، إذ يطلبون شيئا من هذه الشرعية وذاك التأثير، وهذا ما حدث مع النص الذي أبدعته غناءً الفنانة كارول سماحة، واستطاع النص أن يلفت نظرها، ويؤثر فيها أولا وقبل أي شخص، وكأن هذا النص حقق فاعليته النصية في أقصى إمكانيات التفاعل النصي، فانتقل من العالم الافتراضي إلى العالم الواقعي، ممارسا سلطة

مزدوجة على النقاد وعلى المستمعين، وبهذا يكون النص قد حقق شعريته الخاصة فيه، هذه الشعرية المتخلّقة في رحم العالم الافتراضي والمولودة بعمل فني في استوديوهات الفن الواقعية، ليعود مرة أخرى ليحقق التفاعل من جديد في العالم الافتراضي.

لقد حدثت هذه المسألة مع غير درويش؛ مع حيدر محمود والقصيدة التي نسبت إليه في مدح صدام حسين، ومع أحمد مطر في قصائد يسخر كاتبوها من الحكام العرب، ومع غيرهم من الشعراء، فألف كثير من المجهولين قصائد ينسبونها إلى شاعر معروف بتقليد أسلوبه، ولم يخلُ منها عصر من عصور الأدب العربي، فقد عرف الشعر القديم هذه القضية تحت باب "الانتحال" ووقف عندها النقاد قديما، واستمر الانتحال بعد ذلك، فانتحلوا على مجنون ليلى شعرا كثيرا، إلى حد قول أحد النقاد لم يجد الرواة شعراً ورد فيه ذكر ليلى إلا ونسبوه للمجنون، وهكذا حتى وصل الانتحال إلى تأليف كثير من الاقتباسات المعاصرة الافتراضية المنسوبة لنيتشه ودوستفسكي مثلاً، فلم يقتصر الأمر على درويش، وكل تلك الاقتباسات المنحولة لم يدقق فيها أحد، ولم يسعَ إليها النقاد والصحفيون والكتاب لردها ومعرفة أصولها كما حدث مع هذا النص، بل إن قصيدة مثل قصيدة "صوت صفير البلبل" رائجة رواجا كبيرا وأنها للأصمعي، والأصمعيّ بريء منها براءة تامة، بل لم يسمع بها، إذ لو استمع إليها لم يتواضع ويروِها كما روى شعر الشعراء المجيدين، فهو لم يكن شاعراً، ناهيك عما في القصيدة من مشاكل لفظية وعروضية ونحوية، تجعل من تلك القصيدة المشؤومة قصيدة رديئة، لم يجرؤ أحد على وصفها بهذا الوصف، وما زالت تعاد وتستعاد على أنها من أجود الشعر وأعظمه، وهي عكس ذلك تماماً.

والمسألة الثالثة المهمة في هذا الجانب، وهي المتعلقة بكيفية الحكم، فأغلب من كتبوا في موضوع الأغنية لم يقرؤوا كل ما كتبه درويش، فدرويش موزع في نصوص كثيرة منشورة في الكتب الشعرية والنثرية وافتتاحيات

الصحف والمجلات التي عمل فيها، وعلى الرغم مما عمله سيد محمود من جمع فترة درويش المصرية في كتابه "المتن المجهول" إلا أن درويشا كتب افتتاحيات لمجلة فلسطين الثورة عندما كان رئيس تحريرها، وكتب افتتاحيات مجلة الكرمل على مدار (89) عدداً، وكتب مقالات كثيرة، جُمع بعضها، وبعضها لم يجمع إلى الآن. ولكن هل يعقل أن يغيب هذا النص عن المثقفين ويعثر عليه رواد مواقع التواصل الاجتماعي على افتراض أن درويشا قد فعلها وكتبه؟

هذا السؤال يفترض مني أن درويشاً يمكن أن يكون قد قاله، فالنص يناقش قضية إنسانية وهي نتائج ما بعد الحرب، وهذه الفكرة بالتحديد شغلت درويشاً كثيرا وعبر عنها بطرق مختلفة، واستعان "محبو درويش" من النقاد والكتاب بمقاطع مشابهة له في المضمون في نصوص أخرى، يبين فيها موقفه من الحروب، ونتائجها الكارثية على الأبناء، والزوجة والأم والأب والأصدقاء. إذاً، فالمعنى ليس ساذجاً بل هو إنساني عظيم، يشغل تفكير الناس، وخاصة الذين يعانون من ويلات الحروب، فكيف يقول النقاد إن الفكرة ساذجة في هذا النص الكاروليّ الملفّق؟

أما نصيّاً فالأسلوب المصوغ منه هذا المقطع هو الأسلوب العربي الذي يستخدمه درويش، ببلاغته المتقشفة عن الصورة الشعرية، وكثيرا ما استخدم درويش الأسلوب العربي البسيط البعيد عن تعقيد الصور الشعرية في ظروف مشابهة، فلينظر هؤلاء مثلا إلى قصيدة "ونهاني عن السفر" أو قصيدة "إلى قارئ" أو حتى قصائده المتأخرة؛ كسيناريو جاهز، و"لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي". في هذه النصوص شاعرية البساطة غير الغارقة في التعقيد البلاغي والجمل غير المفهومة، لاحظوا معي بداية قصيدته "سيناريو جاهز":

"لنفترضِ الآن أَنَّا سقطنا،

أَنا والعَدُوُّ،

سقطنا من الجوِّ

في حُفْرة...

فماذا سيحدثُ؟

وفي أحد مقاطع قصيدة "لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي" يقول درويش:

"ها نحن نروي ونروي بسرديّة

لا غنائيةٍ سيرةَ الحالمين، ونسخرُ مما

يحلّ بنا حين نقرأ أبراجَنا،

بينما يتطفّلُ عابر دربٍ ويسأل:

أين أنا؟ فنطيل التأمّل في شجر الجوْز

من حولنا، ونقول له:

ههنا. ههنا. ونعود إلى فكرة الأبدية"

أقول لمن حاول أن يعتمد على الصورة الشعرية في نفي النص من حظيرة درويش الشعرية: أين الصور البلاغية في المقطعين السابقين، بل إن درويشا ينحو منحى "النثرية" في صياغة مفتتح قصيدة سيناريو جاهز، هذا المفتتح الذي كان أول ما يعتني به شعراء العربية القدماء. درويش هنا يطوّح بهذا الافتراض الشعري القديم، وكذلك فعل في المقطع الثاني يختار الأسلوب البسيط المتقشف المستند على "السرد" بلا تقنيات شعرية خاصة فيه؛ ليعبر عن فكرته، فهل هذا الكلام ساذج؟ وهل هذا الأسلوب ركيك؟ بالطبع

لا، وإنما له شعريته الخاصة به. وازنوا الآن كل ذلك مع النص المختلف عليه:

ستنتهي الحرب يوما ويتصافح القادة

وتبقى تلك العجوز تنتظر ولدها الشهيد

وتلك الفتاة تنتظر زوجها الحبيب

وأولئك الأطفال ينتظرون والدهم البطل

لا أعلم من باع الوطن لكنني رأيت من دفع الثمن

إنه ينحو المنحى ذاته، مقطع سردي بامتياز، نثريّ، لا يقوم على الصورة الشعرية، بل ليس شعرا ألبتة، وإن كتب بهذه الطريقة، إنما هو كلام نثري خالص، لكنه ليس رديئا ولا ساذجاً، يحمل أفكار درويش عن الحرب، فدرويش لم يكن ينحاز إلى الحروب ولا إلى القتل، وكان دائما يدين أعمال العنف الفلسطينية أيام العمليات الاستشهادية، ويدين أعمال القتل الصهيونية سواء بسواء، وكان باحثا عن السلام، ليس بشروط "العدو"، وإنما يبحث عن سلام أكثر عدلا من وجهة نظره، وكان من معارضي اتفاقية أوسلو، لكنه لم يعارض فكرة السلام مع العدو أساساً، بل كان ساعيا إليها وبكل ما أوتي من قناعة، لذلك كانت عينه على الأحياء وليس على الأموات، ومن قرأ درويشا قراءة متأنية سيرى أن فكرة المقطع السابق هي فكرته تماماً وفكرة غيره من الشعراء والأدباء الكارهين للحرب، فلماذا عدّ النقاد هذا المقطع ساذجاً؟ ألأنه وصف الولد بالشهيد والزوج بالحبيب والوالد بالبطل؟ أم بسبب هذه الجملة الحقيقية جداً: "لا أعلم من باع الوطن، لكنني رأيت من دفع الثمن"؟ هل استغربوا أن يقول درويش كلاما بسيطا جارحا في بساطته إلى هذه الدرجة؟

كل ما سبق لا يعني أن النص الذي غنته كارول سماحة هو لدرويش، لكن هو اعتراض على "سذاجة" النقاد والصحفيين والكتاب الذي تفهّوا المقطع لسبب واحد هو أنه ليس لمحمود درويش، وهذا يعني أن كل ما يكتبه الآخرون ساذج وركيك، وليس فيه ما يعجب هؤلاء النقاد، وقد رأينا انحيازهم الأهوج لدرويش وشعره وإهمالهم غيره من الشعراء لدرجة تشعر فيها أن الشعر الفلسطيني أقفر بعد درويش فقرا مدقعاً. وهذه مأساة نقدية وأدبية. كما أن فيه تبرئة متسرعة هوجاء وحمقاء من أن يكون في شعر درويش وكتاباته أي رديء، وهذه كارثة أخرى. وكما أن "مجنونا" رمى حجراً في بئر مئة عاقل لن يستطيعوا أن ينتشلوه منها، فإن كلام النقاد- هم المجانين هذه المرة- صخرة موضوعة في طريق المستقبل تسد تلك الطريق أمام مئات من العباقرة والموهوبين فلن يستطيعوا تجاوزها، بناء على ما لهؤلاء النقاد من سلطة وقوة وتأثير في التأليه والتقديس ومنح حصانة للشاعر الكبير من الرداءة والانتقاد، والسمو به إلى مصاف لن يرقى إليها أي شاعر وأديب، بعيدا عن العيب الأدبي والنقد السلبي. ألا قاتل الله العمى كيف أودى بنا إلى الهاوية.

لقد حققت أغنية كارول سماحة ملايين المشاهدات، ونجحت في التنفير من الحرب، فهل تردت أذواق الناس إلى هذه الدرجة حسب ما توصل إليه النقاد العباقرة الذين رأوا في المقطع سذاجة وركاكة ليكون كل هؤلاء الملايين يتمتعون بذائقة رديئة، وهذا حكم افتراضي بطبيعة الحال مبني على حكم النقاد، وفيه اتهام مبطن لفريق عمل الأغنية أنهم معدومو الذوق الفني، وقد أشغلوا طاقاتهم واستفرغوا بعضها لإنتاج أعمال فنية هي بالضرورة عندهم "ساذجة" وركيكة وغير فنية.

ولست أقول قولهم، وإنني منه بريء براءة تامة، وليقولوا عني إنني ساذج وركيك الأسلوب، فقد أعجبت بما غنته كارول سماحة، بل كان عملا متقنا، تصويرا وأداء وكلمات، ولم تكن هذه المغنية التي أحبّ صوتها بحاجة

لدرويش لتزيد شهرة وحضورا، إنما هي تلك الفنانة ذات البصمة الفنية التي لا تنسى ولها جمهورها المثقف غير الساذج الذي ينتظر أعمالها بشغف ليستمتع بها، وكل عمل فني وهي وفريقها بخير وتألق، ولتنتهِ الحروب، وليعمّ السلام ربوع هذه الأرض التي أضحت يبابا أشد من أرض ت. س. إليوت الخراب، وليرحم الله الشهداء رحمة واسعة، وكفانا شر نقاد لا يعلمون، وعلى أوهامهم يتعكّزون.

الفيلم الذي يصوّر حالتنا "ليلة سقوط بغداد"
الحرب والطاقة الحيويّة:

تذكرتُ في هذه الحرب مشهدا سينمائيا من فيلم ليلة سقوط بغداد؛ إقبال شاكر حضرة الناظر (الفنان حسن حسني) على امرأته، وكيف انفكّت عقدته، بعد أن نجحت سلمى (الفنانة بسمة) في ضرورة التغلب على (جاك- الجندي الأمريكي المارينز) بمشهد له سيميائيته العالية. عادت لشاكر قوته، وهو فرح مسرور، وتدفق الدم في عروقه، وصحت لديه قوته الحيوية. لم يعد قلقاً وأصبح أكثر قدرة على الشعور بمتعة الحياة، ومعه كل من في الحيّ؛ فالأمر يبدأ بالنفس وإقناعها بأننا قادرون على المقاومة، تحرر العقل وتحريره من سيطرة الآخر عليه، مهما كان طاغية ومتجبّراً.

مررت بهذه الحالة فعلا، كوني قلقا، متوترا، مهجوساً، دائم التفكير، وأخاف من المفاجآت المدمرة التي تقلب تأرجحنا بين اليقين واللايقين، وأخشى أن يضربنا العدو المجرم قنبلة نووية، فقد سرّب لنا الخبر من خلال أحد مجانينه، فهو عملياً يهيئنا لهذه الصدمة الكارثية، لا سمح الله، مع أن ما ضربه على غزة من قنابل يعادل قنبلتين ذريتين.

هناك لحظات تمرّ عليّ، أتابع وأنا مطمئن وقد استقرت الأمور على ما هي عليه، أعداد قليلة من الضحايا. أستمع بلهفة كبيرة إلى (أبو عبيدة)- حرام أن تكسره اللغة، يجب أن يظلّ مرفوعاً- تتدفق الدماء في عروقي، وأرتاح، ثمة ما يخيف أعداءنا إذاً، لن يتهوروا، مع أنهم لو تهوروا أكثر مما هم فيه، ستجد من يقلّدهم نياشين العزة والفخار من عرْب وعجم وفلسطينيين. لا أحد يظن أن شبه "الفلسطينيَّ" المنصوب القابع في رام الله يدعو لأهل غزة بالنصر، لا والله، إنه لا يريد أن تقوم لهم قائمة، يستقبل المجرمين، ويسافر للقاء السفاحين، وهو وإياهم على قلب رجل واحد، إنه شبيه بتلك الشخصية النكرة التي ظلت مجهولة طوال الفيلم، صاحب عبارة "حينضفونا"، وكان مصيره القتل على أيديهم. إنهم بالفعل نضّفونا من أمثاله.

أنظر إلى الفعل في رام الله فأنكمش، وأخاف، لا سيّما وهذا الموتور الأمريكي يطلب بكل صفاقة ووقاحة من الأمن الفلسطيني منع التحرك الشعبي وأفعال المقاومة في المدن الفلسطينية التي يدعي أنها تحت حكم الفلسطينيين. يا له من غبي! ألا يعرف أن الاحتلال استباح كل الاتفاقيات وأرجعنا إلى نقطتين- بل أكثر- تحت الصفر؟ على أية حال فقد شكر هذا المجرم "عباسنا" النشمي على جهوده المبذولة للحفاظ على الأمن والاستقرار في الضفة الغربية.

عاد وعادت لعبة الرواتب اللعينة، وأصبح الضغط علينا بلقمة العيش، ويتلاعبون في الأخبار، لتصبح الرواتب ورقة أخرى من أجل أن نأكل ونشرب وننام، لا علاقة لنا بغزة، وكأنهم ليسوا "نحن"، يريدوننا أن نتبرأ من قلبنا أو أطرافنا أو رأسنا. إذا لم تنفذوا الأوامر كالعبيد الطائعين، لن تجدوا دولارا واحداً. معادلة معروفة ويطبقونها، كما طبقوها مرات عديدة، ببساطة وبكل أريحية، ولا يعنيهم الشعب ولا أية قيم. جوعوا وموتوا، وإلّا عليكم أن تحموا الكيان الذي غصبكم واغتصبكم ودمر أحلامكم. وها هي غزّة وحصارها الإنساني أكبر دليل على وحشيتهم العلنية المعولمة.

صوفي حبيبة في الحرب وحبيبة في السلم:

غارق في كل هذه الهواجس وهذه الأفكار، تنقذني يد رحيمة من لجة اليأس، تتصل بي صوفي، أتذكرونها؟ تلك المرأة التي كتبت عنها في ديوان "على حافة الشعر ثمة عشق وثمة موت" مجموعة قصائد "إلى صوفي"، وتبادلنا وإياها الرسائل. طال صمتي كثيرا هذه المرة لم أحدثها ولم تحدثني. أخجل من شيء ما إن تبادلنا الحديث خارج الحرب. لذلك لم أتصل بها ولم تتصل بي طول فترة الحرب منذ السابع من أكتوبر، على ما يبدو؛ أصابتني بكل شيء "العنة" "الإنسان الوطني" كما جاءت في فيلم "ليلة سقوط بغداد". عليكم حضور الفيلم لتتعرفوا على هذه "اللعنة".

في يوم (5 نوفمبر 2023)، اليوم الثلاثون للحرب، اقتحمت صوفي عليّ عزلتي برسالة فيها من العتب المبطن الشيء الكبير الحاد: "لا زلت في مخدع العزلة قائما". أنقذتني رسالتها من هوة العدم، وانتشلتني من حالتي، يومان وأنا ببالها وتخشى أن تتصل بي لتطمئنّ عليّ، خاطر أتاها فأقلق راحتها عليّ، هكذا تسترسل قائلة: "أمس أحسست بخوف تجاهك غريب، مررت ببالي وقلبي صار يخفق بشدة، هذه الرعشة عندما تصيب قلبي أشعر بالخوف".

شُجاعةٌ هي صوفي، وأشجع مني. تشبه كثيرا "بسمة/ سلمي" الملقبة أم النضال في فيلم "ليلة سقوط بغداد"، لقد أعادت إليّ الحيوية في صوتها، وتدفق الدم في عروقي، وغادرتني برودة أوصالي، واشتقت إليها اشتياقا مجنونا، بعد أن عادت الحرارة إليّ بعد غياب، كم تمنيت لو أنني أستطيع الوصول إليها لأحضنها، وأكمل مشهدية الحب معها، كما اكتملت بين سلمى وطارق (الفنان أحمد عيد) صاحب فكرة سلاح الردع.

للحرب أحيانا قوانين ليست مفهومة، المرأة تنقذ كل من شارف على الهلاك، فيعود إلى الحياة مجددا، إنها عشتار، إنها هي الحياة ونهرها المتدفق. اليوم فهمت بعمق المشهد السينمائي لحسن حسني في هذا الفيلم "ليلة سقوط بغداد"، غزة وبغداد وصوفي، وكل امرأة شجاعة أمان من الموت والتلاشي، هؤلاء الشامخات لا يعرفن الموت إطلاقاً. ورد ذكر للمرأة الفلسطينية المناضلة في فيلم "ليلة سقوط بغداد".

منذ عامين، صوفي شارفت على الموت، وودعتني باكية، لكنها كانت عصية على الموت وعادت من براثنه، حلوة، سمراء، كنعانية، ممشوقة القوام، أشد شهوة من إلاهات الخصب قاطبة، تتدفق في أوصالها نشوة الحياة التي تسعى إلى صناعتها بقوة الروح، وجلَد النضال من أجل هذا الأمل المقدّس.

تحدثنا عن الحرب، والأدب في ظل الحرب، لم تعاتبني سوى بجملة واحدة، لا شيء غير الحرب يسيطر على لغة الكلام، ولكن ليس حديث الميتين

اليائسين، كان مشوبا بالحذر، لكنه كان محقونا بالأمل. أنا وصوفي متفقان جدا في وجهة النظر تجاه الحرب، وتجاه الحب، وتجاه الحياة. حاءاتنا الثلاثة في وئام تام، لذلك هي موضع سري، وأنا موضع سرها، نتبادل الأحلام والأفكار والأمنيات ذاتها، نحاول صنع المستقبل. لو صمتنا إلا أن روحها معي دوما تحرسني من الوقوع في هوّة الجنون والعدم. وتعتادني في المنام لتكون لي سكني الذي أحتاج إليه. إنها ليست مجرد أحلام عندما نكون معاً ملتحمين في ذات واحدة، إنه اتحاد كينونتين في إطار واحد.

صوفي امرأة تشبه السلام الخارج من بين يديِ الجيش المنتصر، تنهض من تحت الركام بقوة، تنفض غبار الحرب، وتبتسم، وتصبح أندى من وردة، وأنقى من ماء الكوثر، وأشهى من حورية الجنة. هذه هي صوفي التي أعطتني الحياة كلها منذ عرفتها وعرفتني. لم تنكسر يوما وها هي تواجه كل وحوش الموت دفعة واحدة بالصبر وصناعة الأمل. لذلك كله أعادت لي صوفي هذا النهار طاقتي الحيوية بكامل عنفوانها المتدفق.

غزة وصوفي والحياة القادمة:

صوفي أكثرنا؛ نحن الأصدقاء، انغماساً بالحرب كانغماس سلمى أم النضال في المظاهرات ضد الجيش الأمريكي في حربه على العراق، ليس لها شغل في هذه الأيام سوى الحرب ومتابعتها، أصبح قاموسها ثريا بمفردات الحرب وقصص الحرب ومواقف الحرب. صوفي شهدت كل حروب غزة، مثلي تماماً، وولدت مثلي في سياق الاحتلال والحرب، تدرك على نحو عميق ما يواجهنا من مؤامرات دولية وإقليمية وتواطؤ محليّ، تعرف ذلك واختبرته كثيرا وطويلا، ولها في ذلك تجارب، وتسرّبه بين سطور الكتابة بحذر شديد.

صوفي هي سرّ غزة، وكتاب غزة المتحرك، عقلها ووجدانها مكتنزان بكل تفاصيل هذه المدينة المنكوبة. عندما زارت غزة لم أطلب منها سوى أن تحضر لي كيس رمل من شواطئ بحر غزة. إنه ما زال معها، تحتفظ به للقائنا الموعود. كانت فرحة جدا وهي تخبرني أن حفنة الرمل ما زالت معها.

على الرغم مما تعاني غزة الآن إلا أنها مدينة لا تحتاج إلى رثاء، لأنها لم تمت ولن تموت، ولكل من اسمه نصيب، والمدن كالأشخاص، فغزة قوية كصوفي، لن تنكسر مهما حدث، ستقوم كما قامت صوفي واستنقذت نفسها في آخر محطة من محطات الحياة، محطة ما قبل الموت بقليل، ستواصل غزة استئصال الكيان الغاصب، هذا الاحتلال الذي يتمدد في جسد الأرض ليلتهمها لكنه لن يفلح في ذلك، فالحياة دوما لها الحق في أن تكون موجودة، لا الموت.

صوفي في هذه الحرب التي فتحت عيوننا، وأذهلتنا كثيرا وطويلا، لم تستطع الكتابة، أنا مثل صوفي لم أكتب إلا منذ اليوم الخامس عشر، احتجت إلى خمسة عشر يوما لأستوعب ما جرى، صوفي أكثر حكمة مني بلا شك، فهي ستحتاج أكثر، لعلها لا تريد أن يخمد توهج النور في عينيها وفي قلبها، ولا أن تبرد نارها، تترقب مثلي تماما بل مثلنا جميعا، كيف سينجلي الظلام، ويشرق الصباح.

سيأتي هذا الصباح بلا شك، "وحننضف" على طريقتنا، وليس على طريقة النكرة المرحِّب بالجيش الأمريكي، وقتلوه، وستغرد صوفي أغنيتها التي تحبها: "راجعين يا هوى، على دار الهوى، على نار الهوى... راجعين". ستصبح غزة بخير بكل تأكيد، فالله لن يتركها وحيدة، فالله قد رضي عن غزة، كما رضي عن أصحاب محمد ﷺ، فالمدن أيضا كالأنبياء والصالحين، سواء بسواء، وستعود إليها طاقتها الحيوية، ويعود يسري الدم في عروق أبنائها، ليعودوا إلى الحياة، وينجبوا الأبطال، كما هي عادة غزة التي لن تتخلف ولو مرة واحدة في عمر هذا الكون الضارب في عمق التاريخ، بعد أن أثبتت المقاومة أن الحديد بالحديد يفلح، وتتحقق نبوءة الفنان حسن حسني، وتعود للأمة كلها طاقتها الحيوية، غير المقتصرة على إنجاب الأطفال، أبطال المستقبل، وحماتنا من الغزاة المحتملين، بل أيضا طاقة حيوية للحب والتعمير والبناء، وإثبات أننا لن ننكسر ما دمنا نحب الله وغزة والحياة، وننجب ملايين الأطفال لا ليكونوا

بديلا عن الذين اختارهم الله طيورا خضراء في جنته، بل ليكونوا أبطالاً يسومون الأعداء سوء العذاب.

سيشهد بحر غزة علينا أنا وصوفي، ونحن نسير حفاة على شاطئه، ونغني ونضحك بصوت عالٍ، ويكون التاريخ قد خط في سفره الأبدي أن غزة لن تموت، سيعمرها الحب والتقوى والجمال والإنسانية، ما دامت المقاومة باقية والشعب يرفض أن يهاجر صارخا في وجه الاستكبار العالمي: "نرفض نحنا نموت، قولولن رح نبقى بأرضك والبيوت". حبيبتي يا غزة، وحبيبتي أنتِ يا صوفي.

الحرب والموسيقى

في كل حرب أحنّ إلى الموسيقى، أحن إلى نوع محدد من الأناشيد الإسلامية التي كانت تعبئ وقتي أيام الصبا والشباب الأول، ما زلت أحب الجملة الدينية التي لا تعرف الانكسار. أناشيد الحرب عموما ليست رثائية، تتوخى رفع المعنويات، وتعمل على إفاضة نوع من الحماسة في الدم.

في هذه الحرب عدت إلى نشيد "لبيك إسلام البطولة"، نشيد حماسيّ، عنفواني، دينيّ، لا فصائليّ، هذا ما أبحث عنه بالضبط، نشيد بهذه المواصفات، قوة في الإيقاع، وشدة في الرجولة، وعزيمة قوية في المواجهة، واسترخاص الروح في سبيل القيم والمبادئ. هذا ما نحن بحاجة إليه، فإذا كنا نحتاج الموسيقى في السلم مرة، فإننا بحاجتها ألف مرة وقت الحرب.

ما أعجبني في هذه النسخة التي اهتديت إليها مصاحبة النشيد لمشاهد مؤثرة من المسلسل التركي "المؤسس عثمان أرطغرل" في أحد حروبه مع المسيحيين الأوروبيين. فئة قليلة العدد، قوية الشكيمة، مقبلة غير مدبرة، تلتحم مع الآخر من نقطة الصفر. مشهد يعيد إلى الأذهان معركة بدر، وكل معارك الإسلام الأول، إذ نادرا ما كان الجيش الإسلامي كبيرا جدا، يفوق الآخرين عددا وعدة، وفي تلك المرة التي ركن فيها المسلمون إلى كثرتهم، لقنتهم العناية الإلهية درسا قاسياً إذ أعجبتهم كثرتهم التي لا تعني بالضرورة أنهم أقوياء بما يكفي لإحراز النصر.

أدقق في المشهد وأحدق فيه، أرى حقد الصليبيين وقد تجدد، وحماس الجندي المسلم قد تأجج، تنقلني المشهدية نحو غزة، المقاربة التاريخية هي هي، فهذه الثلة القليلة المدججة بالعزم والقوة والشجاعة والثبات وتلتحم مع الآخر من نقطة الصفر تعيد تلاوة الكون للآية الكريم "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله". هذا ملخص هذا النشيد الجبار الملتحم بالمشهد التاريخي العثماني ويحيل بالتوازي والمقابلة المتطابقة على ما يجري في غزة،

ويعبّر عنه دائما وقت الحرب الرجل الملثم- أبو عبيدة- الناطق الرسمي للمقاومة.

"ثوّار" نشيد آخر لا بد من أن أستحضره في كل مواجهة، وله في وجداني وقع خاص، إذ يربط القضية الفلسطينية بالبعد الديني ربطا حتميا. هذا النشيد لا فصائلي أيضاً، لكنه ليس عاما كالنشيد السابق. ثمة نغمة عذبة شجية في هذا النشيد، خافتة الحماسة، لكنها تنطلق من الرسوخ نفسه المفعم بالإيمان والسير لتحقيق النصر المؤزر بعون الله، عندما يخاطب النشيد قائلا: "سيري يا مراكب فينا، حتى نحرر أراضينا، ونسحق الغدار"، وفي تأكيد للبعد الإسلامي للمقاومة يقول النشيد: "سيف ومصحف يا أحرار، لازم نصبر مهما صار، وبعون الرب الجبار بعد الليل نهار". تأملوا الرمزية في المقطع؛ السيف والمصحف، لا يحيلان على حركة محددة، وإن اتخذت السيف والمصحف شعارا، لكنه رمزية تدخل تحت دلالاتها كل ثورة انطلقت من مفهوم الجهاد المقدس المرتبط بالآيات المصحفية. عمر المختار- رحمه الله- كان سيفيا مصحفيا كذلك، وهو يدافع عن ليبيا في وجه الاستعمار الليبي، وكذلك فعل عز الدين القسام في ثلاثينيات القرن العشرين، وهو نفسه ما تفعله المقاومة في غزة اليوم، سيف ومصحف.

في هذا النشيد أيضاً ثمة إدراك، مبني على معرفة الواقع غير الغارق في الوهم، أن المعركة صعبة، وصعبة جدا، لذلك تراه يقول "لازم نصبر يا أحرار"، لأنه لا يصح لمجاهد انطلق من فكرة السيف والمصحف ألا يصبر، مهما كانت الخسائر في الأرواح، لأن مفهوم الجهاد المصحفيّ القرآني وعد المجاهدين الذين قتلوا في سبيل الله أنهم أحياء يرزقون عند ربهم. وعلى العموم فإن المجاهدين معبأون روحيا بهذا، وبما تقوله الأحاديث النبوية الشريفة، لذلك تجد عند المقاتل الإسلامي صلابة نادرة ومواجهة يعدها الآخرون تهورا، رأيناها رأي العين في غزة، ورأيناها في كل حرب يخوضها مسلم مسلح بالأيديولوجيا العقائدية، لذلك فإنه نادرا ما يهزم، حتى لو انهزم فإنه لا يحزن،

كيف يحزن وهو يقرأ من ذات المصحف، آية بجوار آيات الجهاد وأجر الشهيد "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون".

لم تستغنِ الأغنية عن البعد الديني، فتجدها موجودة برمزية واضحة في أغنية "وين الملايين" إذ تختم الأغنية بمقطع مهم جدا:

نحنـــا الحـــق ونحنـــا الثـــورةْ وهـــم اصـــحاب الفيـــل
جيـــل الحــــق وجيـــل الثـــورةْ طيـــور الأبابيـــل
لازم نـــــرميهم بحجــــارة حجــــارة مـــــن ســـــجيل
لا يركــــع، لا يصــــغي لأمــــره وكيــــده في تضــــليل

فقد بناه الشاعر الليبي علي الكيلاني على تناص يكاد يكون حرفيا مع سورة "الفيل" التي تحدثت عن واقعة أبرهة الأشرم وما حدث له قبل الإسلام. إن ما يعني الشاعر هنا أمران على الأقل، الأول الاستفادة من الحدث التاريخي وإمكانية تكرار أحداث التاريخ، بمعنى أنه يقرأ الحدث المعاصر بتجريد فكري مأخوذ من حادثة تاريخية. والآخر إنزال الصورة صورة طفل الحجارة كأنهم طيور الأبابيل التي هزمت أبرهة الأشرم، بمعنى أن اليقين يملأ قلب الشاعر وحسه بالنصر، لذلك فإن هذه الأغنية لا تقل عن النشيدين السابقين: "لبيك إسلام البطولة"، و"ثوار". وبالتالي، تعدّ هذه الأغنية مثالا جيدا لشعر الحرب أيام الاحتدام والالتحام مع العدوّ، فهي كانت من أوائل الأعمال الفنية التي ولدت مع انتفاضة الحجارة، الانتفاضة الكبرى التي حدثت عام 1987، وحققت رواجا عاليا لما لها من رمزية عالية وتمثيلا للروح المقاتلة الفلسطينية والعربية، إذ إن البعد القومي فيها واضح من خلال الشاعر والملحن الليبيين، والفنانات الثلاث اللواتي أدّيْن الأغنية بإتقان عالي المستوى، اللبنانية جوليا بطرس، والسورية أمل عرفة، والتونسية سوسن حمامي، كلّ هؤلاء غنوا لفلسطين، بوصفها القضية الجامعة لكل الأمة.

هذه هي الروح التي يظل يتمتع بها المقاتل المبدئيّ، وجدتها مثلا في أغنية الثورة الفلسطينية الحماسية بعد الخروج من بيروت (1982) وقد أداها بصوته الجهوري الممتلئ قوة الفنان حسين منذر، رحمه الله، ويؤكد ذلك إشارة يديه، وشموخ قامته، عندما قال:

ثمـــانين يـــوم مـــا ســـمعناش يـا بـيروت غـير الهمـــة الإذاعيـــة
بالصـــوت كـــانوا معانـــا يـــا بـــيروت والصـــورة ذابـــت بالميّـــة
لمـــا طلعنـــا ودَّعنـــاك يـــا بـــيروت وســـلاحنا شـــارة حريّـــة
لا رايـــة بيضـــا رفعنـــا يـــا بـــيروت ولا طلعنـــا بهامـــة محنيـــة
والـــدرب صـــعبة وطويلـــة يـــا بـــيروت عليهـــا أكـــدنا النيّـــة

يلتقي النشيدان السابقان وأغنية "وين الملايين" مع هذه الأغنية بهذه الفكرة التي يتحلى بها الفلسطيني بكل جولاته، فالدرب صعبة وطويلة، ولم تنتهِ المعركة، وفعلا لم تنته معركة الفلسطيني مع الاحتلال، لأنه عاقد النية والعزم على أن ينتصر ولو بعد مئة عام. لن يسلم ولن يستسلم، ولن يحني قامته، حتى لو غُلب على أمره، سيرفع شارة الحرية إعلانا أنه لم ينكسر وسيعود. حتما سيعود، وأثبتت الوقائع أنه قد عاد مرارا وتكرارا لن يملّ ولن يكلّ. يخبو تحت رماده حينا، ثم ما يلبث أن ينتفض ماردا هادرا قويا جبارا كاسحاً.

لقد أودع الفلسطيني روحه المعنوية هذه في أناشيده وأغانيه، والكل ينشدها، ويطرب لها ويعرفها جيدا لأنها تعبر عن روحه المعنوية، الروح المعنوية للكل الفلسطيني مهما كان دينه أو لونه الفصائلي، ووجوده وعيشه، فكلهم تجمعهم بوصلة فلسطين واحدة موحدة، وليس لنا غيرها، فما أبلغ ما قالت فيروز في أغنيتها الخالدة عن القدس، رمزية لفلسطين الكاملة:

عيوننـــا إليـــك ترحـــل كـــل يـــومْ   تـــــدور في أروقـــــة المعابـــــدْ
تعـــانق الكنـــائس القديمـــة   وتمســـح الحـــزن عـــن المســـاجدْ

فليست الأغنية الفلسطينية العربية والنشيد الإسلامي مخازن روح الفلسطيني المعنوية وحسب، بل إن هذه الروائع الفنية الخالدة تعبر عن وعيه السياسي والفكري تجاه ما يحصل، لاحظوا: ثمانين يوم ما سمعناش يا بيروت غير الهمة الإذاعية. نعم إنها كانت بيروت واليوم غزة وما بينهما كانت بغداد، بالصوت كانوا معنا يا بيروت والصورة ذابت في المية. إي والله إنهم هم ممثلو النظام العربي الخانع الذي لا يتقن سوى البعبعة والجعجعة والبقبقة، واستقبال الوفود الأجنبية التي يؤكدون لها أنهم ضدنا، ويدعمون التخلص من "يوسف الفلسطيني". إنهم لا خلاق لهم في الدنيا ولا في الآخرة. هذا الوعي السياسي الفكري موجود في الأغنية والنشيد على نحو فاضح، لكن الساسة يتجاهلونه فيقعون في شرك النفاق السياسي الذي سيظل مساهما فعالا في تأخير التحرير الكامل من البحر إلى النهر، فهم كالغزاة لا يقرؤون وإن قرؤوا لا يحسنون الفهم.

آه لو أن هؤلاء الساسة المحسوبين على العرب كانوا على مستوى هذه الأعمال الفنية في تحديهم ورسم سياستهم، والله الذي لا إله غيره إننا لن ننكسر أبداً، أبداً، ولم تكُ فلسطين قد احتلها شذّاذ الآفاق، ليؤسسوا كيانهم الهشّ على تبعثرنا الذي أسسته هذه الأنظمة المنحلّة المتحللة من انتمائها للأمة وقضاياها.

فيروز ودخولها معمعة الحرب
مساحة شخصية مسروقة رغماً عن الحرب في يومها السادس والأربعين، لنحتفيَ قليلاً بفيروز، ونتذكر عيد ميلادها الثامن والثمانين (2023/11/21). نستعيد الصورة القديمة لفيروز لنقول لها كل عام والفن بخير "والغضب الساطع" المتوهج بغزة والعالم الحر بخير، و"القدس العتيقة" والطفل وأمه مريم بخير، "وجهان يبكيان لأجل من تشرّدوا/ لأجل أطفال بلا منازل"- أطفال غزة، أطفال فلسطين الذين تناثر لحمهم في الفضاء، وصاروا أشلاء بين يديْ أمهاتهم وآبائهم أمام الكاميرات الفاضحة، ليراها العالم العاجز، بل المتواطئ من أجل أن يهدم غزة على رؤوس ساكنيها، ولكن "يأبى الله إلا أن يتمّ نوره" في أرض المعارك، و"لله الأمر من قبلُ ومن بعد، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله".

في العشرين من نوفمبر، قبل يوم من عيد ميلاد السيدة فيروز، صادف يوم الطفل العالمي، والمحتل ومؤسساته الثقافية يهدون العالم "أغنية أطفال" أداها أطفال بسن ما قبل المراهقة (6-12) سنة، عمل فني إرهابي بكل ما تعنيه الكلمة، تنضح كلماته بالعنف والفجور والموت، فهذا المحتل يكشف عن بنية خبيثة في تشكيل الوعي لدى الأطفال، ليكونوا معبئين بالكراهية ضد الأغيار، وضد الفلسطيني والعربي بشكل خاص.

نحن في فلسطين لا نعلّم الأطفال كراهية اليهود لأنهم يهود، بل نثقّف أبناءنا بما يجب أن يتخذوه من مواقف حيال المحتل، القاتل، وليس من الأطفال والنساء والشيوخ. معجمنا التربوي مع أطفالنا مختلف تماماً، فنحن غير معبئين بشهوة القتل ضد كل ما هو يهودي أو صهيوني، بل نسير وفق إستراتيجية مغايرة ونقيضة، لذلك ثبت تاريخيا أننا نحن، الفلسطينيين، العرب، المسلمين، متقدمون أخلاقيا على كل الاحتلالات التي عانينا منها في كل بقاع الأرض العربية في ليبيا، ومصر، وسوريا، وفي فلسطين، وفي العراق، فليس هناك من مقارنة بين ثقافتين، واحدة تنحو نحو المحو والإزالة، وثقافة

تنحو نحو إزالة الشر عن نفسها ودفع الخطر عن أبنائها لينالوا حق الحياة الكريمة. وثمة صورتان متقابلتان بين دين يطالب فيه الإله بقتل كل من وجدوه في طريقهم، وبين إله الإسلام الذي وجه الناس نحو الرحمة والرأفة والعدل. ثمة فارق بين التوحش والدم، وبين العدل والسلام، لذلك فإنهم هم من قتلوا السلام كما قالت فيروز: واستشهد السلام في وطن السلام/ وسقط العدل على المداخل". فليس لدينا مشكلة مع الناس مهما كانوا، ولذلك نتسامح مع الآخرين، ونحسن ضيافتهم، بل إنهم مع الزمن سيصبحون جزءا منا، لأن ثقافتنا وبنيتنا الذهنية لا تقومان على العنصرية وإلغاء الآخر، كما هو حال المحتل.

ليس هذا خطاباً عنصريا تمجيديا للذات القومية أو الذات الجمعية الفلسطينية العربية أو الإسلامية، بل هذا توصيف تاريخي فكري ثقافي يشهد عليه التاريخ، ولا يحق لأحد أن يزوّره أو يتلاعب به، ولا أن يسلبنا حقّ أن نذكّر العالم فيه، هذا العالم الذي تدوس آلة الشر فيه يوميا على كل الشرائع والقوانين، ولا تعرف معروفاً، ولا تنكر منكرا، ودنّست كل المقدسات في العالم أجمع، ولا شيء يعلو فوق مصالحها، ولو أدى ذلك إلى القتل والإفناء والتدمير، واستخدام الأسلحة المحرمة، بل لا يوجد عندهم في عرفهم ما هو محرّم، فكل شيء متاحٌ لديهم مباح عندهم من أجل تأمين مصالحهم، فهم أولا وأخيرا، والعالم كله فليبتلعه الطوفان. هذا هو منطق الاستعمار والاحتلال على مر التاريخ وتعاقب الأجيال.

فيروز في هذا السياق وضعت لتقول الحقيقة، وتعيد الأمور إلى نصابها، حتى وهي ممتلئة غضبا وعنفواناً صارخة بقوة "الغضب الساطع آت وأنا كلي إيمان" فإنها مع هذه الموجة الغاضبة لم تفقد بوصلة العقلانية، بل إنها متسقة مع التاريخ والثقافة لهذه الأرض المجيدة الساعية إلى الحب والسلام والعدل والرحمة، فكل ما نادت به فيروز هو أنها تريد أن تهزم وجه القوة. يا له من تعبير إنساني عظيم في وجه الغطرسة القاتلة المتوحشة.

فيروز في معمعة غضبها الساطع آتية لتصلي، فقط لتصلي، لا لتقتل أو تدمر، أو تفني الشجر، أو تبيد الحضارة، فقط جاءت من أجل الله الواحد، ومن أجل مدينة السلام، هذه المدينة التي لم تنعم بالسلام منذ احتلها الغاصبون الأشرار، "فحين هوت مدينة القدس تراجع الحبّ/ وفي قلوب الدنيا استوطنت الحرب"، ولذا فإنه ليس أمامها إلا الغضب الساطع لتحظى بما تريد وتحقق أمنياتها "وستغسل يا نهر الأردن وجهي بمياه قدسية/ وستمحو يا نهر الأردن آثار القدم الهمجية".

إن هذا العمل الفنيّ لفيروز بديع جدا، في دلالاته على استراتيجيتنا نحن العرب في هذه البلاد، إنها فقط تريد أن تمحو أثار القدم الهمجية، أثار الاحتلال، وما هو أثر الاحتلال سوى القتل والتدمير وحروب الإبادة والفناء.

وأما في أغنيتها الأشهر عن فلسطين "أجراس العودة فلتقرع" فإنّ فيها ذلك النفس المناضل القويّ للعودة إلى الديار، ومن حقّ أي إنسان أن يناضل من أجل بيته وبلده وسيادته ويدفع بالنار النار. إنه لشرف كبير أن يناضل الإنسان من أجل كرامته الوطنية، بل إنه "شهيد" مقدس، فمن قاتل دون مالِه، فقُتل فهو شهيد، "ومن قاتل دونَ دمِه، فهو شهيد، ومن قاتل دونَ أهلِه، فهو شهيد"، وكل هذه الدوائر من الحرب واضحة في فلسطين وفي غزة اليوم، فلا بد لنا من أن نقاتل بكل ما نستطيعه من أجل أن نعيش بحرية وكرامة.

هذا هدف نبيل، ولن يرحم التاريخ شعباً تخاذل أو تنازل عن حقه، ولن يذكر التاريخ قائد أمةٍ إلا بما يليق به، إذا رضي بالذل والهوان وتعامل مع المحتلين وسالمهم. غزة اليوم تستعيد ما قالته فيروز مؤكدة العودة وحق العودة، ولا شيء غير العودة، ففلسطين وطننا، وليس لنا بديل عنه. لذلك فكلنا نردد مع فيروز:

سيف فليشهر في الدنيا ولتصدع أبواقٌ تصدعْ

الآنَ، الآن وليس غدا أجراس العودة فلتقرعْ

أنا لا أنساك فلسطينُ ويشدّ يشدّ بيَ البعدُ

أنا في أفيائك نسرينُ أنا زهر الشوك أنا الوردُ

سندكّ ندكّ الأسوارَ نستلهم ذات الغارْ

ونعيد إلى الدارِ الدارَ نمحو بالنار النارْ

فلتصدعْ...

فلتصدع...

أبواقٌ، أجراسٌ تقرعْ...

قد جُنّ دم الأحرارْ

نعم لقد جُنّ دم الأحرار بعد خمسة وسبعين عاماً من الانتظار، يكفي "لقد طال الشتاتُ وعافت خطونا المدنُ"، من حقنا أن نقاوم، ومن حقنا أن ننتصر، ومن حقنا أن نحطم وجه القوة، ومن حقنا أن نمسح دمعة البكاء عن وجهي عيسى ومريم، وكل أمٍّ فلسطينية وطفل فلسطيني، وأن نغتسل بمياه نهر الأردن لتعود الحياة جديدة نظيفة من أحزان الاحتلال ورجس البطش الهمجي.

تحية لفيروز في عيد ميلادها، ميلاد الحياة والفن والجمال والمقاومة والعزة والشرف والمجد، وتحية للمقاومة التي لم تدخر وسعاً من أجل أن نستعيد الفرح الغامر، وتحية لفلسطين الحضارة الباقية منذ آلاف السنين، وتحية لغزة التي تناضل اليوم من أجل الغاية الكبرى، العودة، ومسح الذل والهزيمة، وترمم الوجوه التي خدّدها الحزن وتعيد البسمة تشرق في "الصباحات الندية"، صباحات فيروز، لتشدو لنا جميعاً:

عم إكبَر وتكبَر بِقلبي

وإيّام اللّي جايي جايي

فيها الشّمس مخبّايِة

إنتْ القوي، إنتْ الغني... وإنتْ الدّني

يا وطني

فكل عام وأنت بخير يا فيروز، وأنت بخير يا فلسطين، وأنت بخير أيتها المقاومة العنيدة التي تقول بملء روح مناضليها: "الغاضب الساطع آتٍ وأنا كلي إيمان". وصباح المحبة أيتها المدينة الشامخة، صباح الخير يا غزة.

لا أثق بما يكتبه الوزير

في الحرب يكثر الكتّاب، ويتوالدون، وإن أجبرت الحرب الكتّاب أحياناً على أن يصمتوا. في هذه الجولة الدامية الممتدة منذ السابع من أكتوبر 2023، وُجد الفريقان؛ الفريق الصامت لأسباب كثيرة، والفريق المتشجع ليكتب وليظل متابعاً، ومهتماً بأمر الكتابة والتوثيق والكتابة عن يوميات الحرب؛ إذ من المعروف أن الحرب باعث قويّ على النشاط الفكري، ومن ذلك الكتابة، قديما كتب في الحرب الكثير، من روميات أبي تمام والمتنبي وأبي فراس الحمداني، إلى اليوميات الفيسبوكية التي يكتبها الناس العاديون، ويوثقون أحاسيسهم وأفكارهم ووجهة نظرهم. آلاف من النصوص أنتجتها الحروب على مرّ التاريخ، عندنا، وعند غيرنا، وفي غزة، وفي غير غزة. ولا يقتصر الأمر على الكتابة، بل ثمة موسيقى ولوحات فنية وأفلام أنتجتها الحروب كذلك.

في هذه الحرب، دخلت إلى معترك الكتابة عنها متأخراً، بعد خمسة عشر يوماً، ثمة كتّاب مكرسون، كتبوا من أول يوم، لأنهم أيضا يكتبون كل يوم قبل الحرب، فهذه هي عادتهم، فوجدوا في الحرب ظرفاً موضوعيا يتجددون فيه، ومادة دسمة معطاءة يومية لمدّهم بالأفكار اليومية. الدكتور عادل الأسطة (أستاذي في جامعة النجاح الوطنية، والمشرف على رسالة الماجستير) من الكتاب الدائمي الكتابة، في الحرب، وفي السلم، ولا يترك أمرا إلا وكتب عنه، والتفت إليه، أحيانا يرصد الظواهر والعموميات، ويمسها مسا خفيفا من الخارج، وينبه على وجودها، ويلفت النظر إليها، وأحياناً، يلاحق المسألة تاريخيا، ويجمع شتاتها ليقدمها وجبة فكرية كاملة، وأحيانا أخرى يغوص في الفكرة عميقا، طارحا أسئلة وساكتا عن إجاباتها مع أنه يقدم إجاباته لأسئلة أخرى. الدكتور عادل مثال جيد للكاتب الذي لا ينقطع ولا تتوقف مساحته الفيسبوكية عن التجدد يومياً.

كتب الدكتور عادل عن صمت الكتاب الفلسطينيين تجاه الحرب، ويوجّه لومه للكتاب العرب في فلسطين المحتلة عام 1948، ويتعجب من صمتهم

في الحرب. طبعا يلومهم ويلوم غيرهم، لكنه في تلك الأثناء عندما كتب منشوره الانتقادي ذلك لم يكن اطلع على ما كتبه كتاب عديدون، ومنهم عاطف أبو سيف، وخالد جمعة، وغيرهما ممن نشر في الصحف، كالعربي الجديد على سبيل المثال، أو آخرون من الشهداء الكتاب الذين انتبهنا لهم جميعا ولما كتبوه بعد أن راحوا طعاما لصواريخ العدوان، ومنهم الشاعرة الشابّة هبة أبو ندى رحمها الله وشهداء غزة جميعاً.

لم أكن لأتحدث عن هذا الموقف من الكتابة لولا أنه استجد كثير من الأمور؛ أهمها وأولاها في الذكر والحديث أن كثيراً من المنابر الثقافية العربية رصدت أحوال حرب غزة في الكتابة، فخصصت لها مساحة، كما فعلت صحيفة أوروك العراقية، وصحيفة الشارع المغاربي التونسية، ومجلة عود الند الثقافية اللندنية، وشارك في هذه الكتابة كثيرون، وكان لي نصيب في واحدة منها، إنما ما لفت انتباهي هو ما نشر في مجلة عود الند الثقافية، العدد (31- شتاء 2024)، يرصد العدد مساحات من الكتابة تحت القصف والنار والتشريد، ويتخذ لوحة من لوحات الفنانة الغزاوية الشهيدة هبة زقوت غلافاً لهذا العدد.

يعيد رئيس التحرير نشر ما كتب في صفحات فيسبوكية لكتاب من غزة تعذر مشاركتهم بالطريقة المعهودة في المجلة في العدد بسبب الحرب، فأعاد نشر ما كتبته جهان أبو لاشين، تحت عنوان "ليسوا أرقاماً"، وما كتبته فداء زياد أبو مريم تحت عنوان "فصول الدهشة ومحاولات النجاة"، ومن لبنان تكتب فنار عبد الغني نصا من أجواء الحرب بعنوان "أمي تقاوم".

وليس هذا وحسب، بل يكتب د. عدلي الهواري، رئيس التحرير، افتتاحية العدد تحت عنوان "قيم لا قيمة لها". لم يكتب الهواري يوميات بطبيعة الحال، إنما كتب منتقدا ما حدث في غزة من تغاضي العالم عما كان يسوقه من قيم العدالة والمساواة وحقوق الإنسان، ليختم مقالته بقوله: "وهكذا، نكتشف مرة أخرى أن القيم الغربية قيم لا قيمة لها، فهي قيم تستخدم في

أوقات السلم للضغط على المنافسين والخصوم. وفي أوقات الحرب، ترمى في سلال المهملات وتستبدل بخطابات وممارسات عنصرية لا تمت للقيم الإنسانية بصلة".

أعجبني ما كُتب في هذا العدد من المجلة، فأرسلته تباعاً للدكتور عادل الأسطة ليطلع عليه، لأنه مهتمّ بما يكتبه الكتاب عن الحرب، وكان في منشور آخر يتمنى أن يخرج كاتب مثل معين بسيسو ليكتب عن الحرب الحالية كما كتب بسيسو عن غزة، فالأسطة يبحث عن كاتب بحجم الشاعر معين، ليكتب كتابة بحجم غزة. لم يعجبني منشور الدكتور عادل حول هذه المسألة لما أحسسته من فوقية، وتعالٍ، وعدم تقدير لما يكتبه الكتاب حاليا عن غزة، وما كتبه الآخرون عن حروبها بعد معين بسيسو، ولعله لم يطلع على ما كتبه آخرون من قلب غزة عن الحروب، كما كتبت سما حسن كتابها يوميات عن حرب غزة، ونشر في القاهرة، وخالد جمعة بوصفه مواطنا من غزة ويعرف الناس هناك، ولد وعاش فيها حقبة مهمة من حياته، كتب كثيرا عن غزة، عن مزاجها، عن أناسها، عن أصدقائه وأحلامهم، عن الشهداء ومصائرهم.

من المؤكد أن لا أحد يستطيع السيطرة على كل ما كُتب حول موضوع معين، وليس مطلوبا من أحد أن يكون محرك بحث موسوعياً ليلمّ بكل شاردة وواردة، ولكن ما لا يقبله منطق أن يقول ناقد إنه لا يوجد كاتب كتب عن غزة بما يشفي غليله. هذه ليست موضوعية، وإنما فيها قدر كبير من الانحياز لصوت أدبي واحد، وتقزيم لجيل كامل من الكتّاب بعد هذا الصوت، مهما كان هذا الصوت مهماً واستثنائياً لا يصحّ أن يصوّر الناقد أن الشعب فقير في كتّابه ومبدعيه إلى هذه الدرجة المخجلة الفظيعة. وعلى العموم أخشى أن تكون هذه هي استراتيجية الدكتور الأسطة، ففي الشعر لا يرى غير درويش، ونادرا ما عرّج على غيره، وفي الرواية يظل في حقل كنفاني وحبيبي أغلب وقته، وها هو في غزة لا يرى غير معين بسيسو كتب عن غزة فأعطاها حقها.

لم يعلق الدكتور على ما نشر في مجلة عود الند إلا بجملة واحدة "كتب عاطف أبو سيف تفاصيل أكثر"، فأجبته: "لا أثق بما كتبه وزير... هؤلاء الناس أصدق مليون مرة". أظن أن ردي لم يعجبه، فسكت عنه.

أعتقد جازما أن ثمة رابطا بين أطراف هذه المساحة من الكتابة عن غزة. كتب عاطف أبو سيف وهو وزير يوميات عن الحرب من قلب غزة، ترجمت إلى الإنجليزية، ولعله كتب بعضها أصلا باللغة الإنجليزية ونشرت في بعض الصحف العالمية. ومنها صحيفة الجارديان. وآخرها ما نشر في مجلة (The Nation) تحت عنوان " We Just Sit Here Waiting to Die: Diary Entries From Another Week in Gaza".

عاطف أبو سيف وزير في السلطة الفلسطينية، يعني هذا عندي أن كتابته أدبية منزوعة الدسم، فهو لن يغضب أحدا لا في رام الله، ولا في تل أبيب، ولا في الصحف الغربية الداخلة إلى المعركة بكل ثقلها الإعلامي، منحازة إلى العدو المعتدي، ولذلك قلت للدكتور عادل إنني "لا أثق بكتابة وزير"، بل أثق بما يكتبه الناس هناك بفعل الضغط الفعلي عليهم، وهم هاربون من احتمالية القصف إلى القصف الحقيقي كما قالت جهان أبو لاشين التي حققت رقما قياسيا في التنقل، هربا من الحرب.

كتابة الوزير توثيقية بعين كاتب وقلب صاحب سلطة، يكتب وعينه على النشر والاهتمام الإعلامي، لذلك ستمر الكتابة بجهاز فحص التوتر والصدق الواقعي، لن تُكتب بالنفَس الذي كتبت فيه سما حسن كتابها عن الحرب "أن تبقى حيّا في غزة" (2021)، ولا كما كتبت جهان وأخواتها، كتب الوزير ليتحدث عن آلة الحرب الصهيونية وما فعلته في الناس بلغة أدبية لها بعد صحفي تعريفي، كأنّ (أبو سيف) مراسل حربي برتبة وزير، أو وزير بوظيفة مراسل!

عدا ذلك- كما يبدو من يومياته التي نشرتها صحيفة العربي الجديد- فإن هذه اليوميات مملة إلى حد الضجر، وتشيع في نفس القارئ النفور وعدم الرغبة

في قراءتها كاملة لما فيها من تفاصيل معادة ومكروة، كما لاحظت أن الوزير أبو سيف ينفي المقاومة من المشهد كليّة، وكذلك فعل في الحوار الذي أجرته معه جريدة الوطن المصرية، ونشر في اليوم السبعين من الحرب (2023/12/15).

لا شك في أن هذا الاستنتاج خطير بالنسبة لوزير فلسطيني همّه الثقافة، ولا أتهم الوزير بشيء من التواطؤ العلني أو السري بطبيعة الحال، إلا أنه يعرف العقلية الغربية وما يمرّر فيها، وما لا يمكن أم يمرّر، ويعرف موقف السلطة الفلسطينية في رام الله، الواقفة تنتظر الإشارة لتكون عاملا مساعدا لنفي آثار العدوان في غزة، بعد التخلص من حكم حماس. ولعل الله لن يحقق لها أمراً أو بغية أو غاية. لكل ذلك لا أثق بما يكتبه أي وزير غارق في كرسيّ الوزارة عن الحرب، وليس فقط وزير الثقافة عاطف أبو سيف.

لو كانت كتابة الوزير بهذه الفعالية على المستوى الفلسطيني والغزيّ لم تكن لتنشر ولاعتبرته الصحف الأجنبية وعصابة الإجرام الصهيو- أمريكية أنه منحاز لحماس وأعمالها "الإرهابية"، إنما كان الوزير "كاميرا" تغطي الحدث، وتؤكد ما تريد عصابة الشر تأكيده، لعله يساعد في إيصال الفكرة. إن دوره في الكتابة كدور الإعلام الرسمي الفلسطيني الذي كان مشدودا منذ اللحظة الأولى في السابع من أكتوبر بكل قوته وتوتره العصبيّ إلى خسائرنا في غزة، ويحصيها أولا بأول، ويتابع الدمار لحظة بلحظة، ولم يكن معنيا- بأية حال- بالمقاومين والمقاومة وإنجازاتها الحربية والإستراتيجية والسياسية والإعلامية، وهو إلى الآن ليس معنياً بكل تلك المخرجات والمنجزات. إنما ما يعنيه كيف يظهرنا ضعفاء، تتساقط الضحايا تباعاً، وتهدم البيوت، بيتاً تلو الآخر. بل ربما كلف أتباعه من بثّ بعض الأخبار، أو التعليق على الأحداث بما يناسب رؤية مشغليه العقيمة التي لم تجلب للشعب الفلسطيني إلا الذل والإذعان والقتل والسجن، والمزيد من الانتقاص في الجغرافيا، والتقليص المستمر في الصلاحيات الأوسلوية حتى تلاشت أو تكاد، ولم تفلح سياستهم

بتحرير طفل أسير واحد من سجون الظلم والظلام، ولم تنجح حتى في استرداد شيقل واحد مما تسرقه عصابة الشر من أموال الحق الفلسطينية المقررة في الاتفاقيات.

لقد أثبتت كل الحروب على غزة أنّ هناك في فلسطين فريقين كخطين متوازيين لا يلتقيان، خط التفاوض، وخط المقاومة، خطان نقيضان أيضاً، فقد أثبت المقاومة في غزة أن الاحتلال لا يفهم إلا لغة القوة، ويوظف السلام ليسخر بنا ويجعلنا أضحوكة بين الأمم، وأعيدها هنا بلغة الشاعر السوري المقاوم عمر الفرّا- رحمه الله- في رسمه هذين الخطين بقوله:

جربـــتَ كـــلّ وعـــودهم	عبثـــاً تـــردّ لـــك المظـــالمْ
فـــالحقّ يؤخـــذ عنـــوةً	لا بـــالوعود ولا المـــزاعمْ
فـــالأرض أرضي مـــا حييـــتُ	ودونهـــا قطـــع الجمـــاجمْ
مقـــدار شـــبر لا نضـــيعُ	ولا نبـــالي بـــالخواتمْ
مـــن كـــان يطمـــح للســـلامِ	مـــع العـــدوّ تُـــراه واهـــمْ
فالســـلم لـــيس مـــع الـــذئابِ	فـــلا تكـــن أبـــداً مســـالمْ

ليس هذا وحسب، بل بتّ على قناعة أنهم في رام الله معنيّون بهزيمتنا الشاملة في غزة، سياسيا وإعلامياً وعسكرياً ونفسياً. ليؤكدوا أنه لا حل مع المحتل إلا المفاوضات أو الاستكانات، والذهاب إلى الأمم المتحدة واستجداء الدول الاستعمارية، والقول: احمونا، يا ناس، وحسبنا الله ونعم الوكيل. ونظل نردد مقولات أكلتها "حمير الحرب" في غزة من قبيل القانون الدولي الإنساني وحقوق الإنسان، ونتشبث بأوهام الحرية وحق تقرير المصير. لقد صارت كل هذه نكتاً بلهاء لا خير فيها ولا منطقية، ما دامت في وقت الحرب ترمى- كما قال د. عدلي الهواري- "في سلال المهملات".

ربما أكون مخطئاً، وأرجو أن أكون مخطئاً، فيما يخص كتابة الوزير فقط، لأنه ليس من مصلحة الكتابة أولا وأخيرا أن تكون منزوعة الدسم، تلتقي ولو

بطريقة غير مباشرة مع الأهداف المعلنة والسرية لعصابة الشر والإجرام للفتّ من عزيمتنا وهزيمتنا من الداخل، علينا أن نقرأ ما كتبه الوزراء من قلب النص، للكشف عن المرامي والأبعاد وخاصة النفسية ونقارنه ونقاربه مع ما كتبه الآخرون المرتقبون للقصف اليومي، بل يكتبون وهم تحت رحمة الصواريخ النازلة عليهم، كزخّ المطر. أظن أن الفريقين لا يستويان عند القارئ وفي ميزان الكتابة أيضاً.

المساحة السابعة: المكوث في الحكاية

مشاوير الخليل

وفاء لذكرى الشهيد هاشم أبو ماريا

منسق الحركة العالمية للدفاع عن الأطفال في فلسطين التابعة للأمم المتحدة، استشهد الصديق هاشم يوم الجمعة 2014/7/25، في بلدة "بيت أمّر" في محافظة الخليل، خلال مسيرة سلمية بعد الصلاة، ضد العدوان على غزة الذي استمرّ (51) يوماً، لم تطل معرفتي بالشهيد هاشم، ولم ألتقِ به إلا ثلاث مرات، إلا أنه رجل من المستحيل أن يُنسى.

أستذكر بكل الحبّ والرحمة صديقنا هاشم أبو ماريا الذي رحل باكرا اغتيالا، فقد تجرأت عليه الصلافة الصهيونية، لكنها لم تقتله في نفوسنا، بل رفعته على عرش المحبة والخلود في دار البقاء. وفي هذه المساحة الشخصية الخاصة أمنح نفسي شرف الكتابة مرة ثانية عن صديق كريم، رحل وهو يدافع عن غزة بعد أن كتبتُ في وداعه قصيدة أودعتها في ديوان "مزاج غزّة العاصف"، وكان لي شرف المشاركة في "عرس تأبينه" في ذكرى مرور أربعين يوما على استشهاده الذي أقيم في البلدة بتاريخ: 2014/9/6 في ساحة المدرسة الثانوية.

تداعيات زيارة حافلة (2014/5/5):

جلسنا في محطتنا الأخيرة، وكنا أنا والأخوة أنور وعودة وهاشم، ثلاثة إخوة أعزاء، هاشم إنسان مميز، أحببته لتلقائيته ولطيب أصله وخفة روحه، وعشقه اللامتناهي للأرض، هو صاحب شجرة المسابح. ما هي شجرة المسابح هذه؟ إنها شجرة في فناء منزله يعلق عليها مجموعة من المسابح الخرزية، وعندما رأيتها لم أستطع إلا أن أقول في سري "مجنون"، ليس فقط مجنون في شطحاته الشاعرية حيث يخرج عن المألوف في كل شيء، بل إنه مجنون في انتمائه لأرضه، يبني بيتا للدجاج ويسقفه بالقرميد، وقبل ذلك

يستضيف (25) صوصا في بيته الحجري اللائق بالأمراء والملوك، إلى حين إتمام بيت الدجاج الفاره.

يحب الزراعة، زراعة الأشجار والورد حول منزله المتطرف في البرية، يستفيض في صناعة ما يبهج العين ويفرحها. ذات جلسة، وفي أول تعارفنا، أعرف أنه محبٌ للشعر، فزاد على ذلك أنه يحب قراءة الشعر القديم، فرأيته شاعرا في إنسانيته وبساطته، نتجول في بيت لحم بسيارته، يسمع للراحل طلال مداح، فتتعزز لديّ شاعريته وحساسيته المرهفة إنه شاعر بعلاقته وبحبه وبحديثه عن الأرض والشجر والورد، فلن أنسى حديثه عن إحدى الشجرات التي زرعها أنها تستمع له، يحدثها وتحدثه، لا تظنوا أن هاشما طاعنا في السن، إنه في ريعان الشباب، ولكنه طاعن في حكمته، وله منطقه الخاص في مناجاته لليل، إذ إنه يحب أن يكون وحيدا في عمق الظلام لعله يجد الفلسفة حيث تكون الطبيعة سابحة في بحر من العتمة.

وماذا عنك يا أخي عودة أبو أحمد، كيف اجتمعت وأبا أيهم لتكون عديله، صنوه وكفئه، فلا تقلّ عنه حبا وإصرارا ورجوليّة، أحببتك رجلا، بإنسانيتك، وتَدَيِّنك، وإقبالك على الصلاة في المسجد فجرا، أحببت فيك وفاءك لصديقك وعونك له على الحق والعدل والالتزام، رأيت في سمرتك روحانية الأجداد وتاريخا عابقا بروائح الأرض، وحديثها، كأنه "حديث الروح" الذي يسري للأحباب، فتستقر في القلب والروح والوجدان. أحببت فيك الالتزام بعهدك مع الله وعباد الله، أستمع إليك وأنت تحدثني عن مشهدية تركك للتدخين كيف كانت وكيف استمررت في ذلك إنها هي الرجولة يا صاحبي، فمن لا يتغلب على شهوة روحه سيغلبه كل شيء. تستضيفنا في مكتبك في بيت لحم، ذلك المكان المتواضع الذي يكبر فيك وبزملائك، كثير زائروك ومحبوك، ولم لا يكونون كثرا، والمنهل العذب كثير الزحام؟ ترافقنا في جولة بيت لحم، في زيارتنا السياحية، لتحط بنا الركاب في المطعم، حيث المحطة الأخيرة قبل الوداع، لن أنسى طيبتكم ومحبتكم.

أتراني نسيتك يا أبا هلال؟ وهل يعقل أن أنساك؟ إن هذين الرجلين ناسبوك وناسبتهم، فكنت خالا لأودهم، فمن حقهم أن يفخروا بك، وحقك أن تتيه بهم عزا وجاها وكرم أخلاق وحسن معشر، هل يحق لي أن أنسى من أشعرني أنني في بيتي، ورفع عني الحرج، فكان نعم المضيف ونعم المكرم، ونعم الأخ، لن أزيد على أن أقول لك يا أخي الذي لم تلده الوالدة: اللسان يعجز عن الشكر، فقد أكرمتموني بحبكم وبقلوبكم قبل كرم ناركم، إنكم تذكرونني بقول الشاعر:

يـــا ضـــيفنا لـــو زرتنـــا لوجـــدتنا
نحـــن الضـــيوف وأنـــت رب المـــنزل
نحـــن نحـــب لمـــن يـــزور بيوتنـــا
حرجـــا عـــلى مـــن زارنـــا لـــم يرحـــل

رحلة إلى جنوب فلسطين زرت فيها الخليل وبيت لحم، وبتّ ليلة في بيت أُمّر، ربما كانت الرحلة ساعات، لم تكمل اليومين، لكنها كانت كافية لأغتنيَ بتجارب، تغني عن قراءة عشرات الكتب، لأعود وأنا أفاخر بأهلي الجدد، في بيت أُمّر أنور وعودة وهاشم.

فدمتم ودامت المودة أيها الرائعون، ولن أنسى تلك النكتة يا هاشم تعليقا عليّ في آخر جلسة ونحن في المطعم، متوجسا من هجائي لكم لا سمح الله، ولذلك أقتبس جملتك اعترافا بحبي لكم لتكون عنوانا لمقالتي هذه "مشوار الخليل".

وما زالوا هم أصدقائي (2014/5/30)

هذا هو المشوار الثاني لمدينة الخليل، كان اللقاء بالمدينة على عجل جدا، لم أزرها كما ينبغي، لم أتحسس موجوداتها، ولم أتبعثر في شوارعها، لم أغص في أبجديّتها، ولم أحاول أن ألملم ذاتي التي تركتها فيها في الزيارة الماضية، كانت زيارة رفع عتب، لم أصافحها كسيدة رابضة في سماء الوطن.

مدينة لم أنتبه لها، ولم أتأمل ملامحها، ولكنني أحببتُ أن أزورها، فقد كنت على بعد خطوتين إلا قليلا منها، فكيف لا أزورها، زرتها بصحبة صديقي الكريم أنور عوض حسن المشرف التربوي الذي استضافني في بيته مكرِما ومعزِّزا، زرنا فيها بعض المكتبات، وانتقينا مجموعة من الكتب؛ ظنناها ممّا يروق لطلابنا وطالباتنا استعدادا لتدشين مكتبة لنادي بلدته (بيت أمر).

قضيتُ ليلة في بيت أمر، وما هي بيت أمر؟ يدور حديث بيننا، هل يعود الاسم لأن سيدنا عمر بن الخطاب على ما يشيع بين الناس هناك قد بات فيها ليلة وهو إلى طريقه لبيت المقدس؟ وربما كان اسمها بيت الأمراء، لكثرة ما فيها من أمراء ذوي قصور ما زالت شواهدها إلى الآن، وربما سميت بيت الأمراء لأن ساكنيها أمراء سلوكا ومعشرا وطيبا، فقد حدثني صديقي عن اختلاف طباع أهلها عن طباع كل القرى والبلدات المجاورة لها.

بلدة دخلتُ فيها وفي بعض تفاصيلها، وما زال فيها صديقاي اللذان تحدثت عنهما سابقا هاشم وعودة، فهاشم كما هو إلا أنه كان أكثر انشغالا في إعداد حفلة فارهة لبعض الأقارب الذين عادوا من أمريكا، كان أكثر انهماكا في الترتيب والتحضير، لا يحب أن يكون هناك أي نقص، واكتشفت هذه المرة أنه يحب البطيخ، فهو يأكله يوميا، ويتلذذ فيه، وربما أكله بشاعرية نهمة تدل على شاعريته التي عهدتها فيه.

وأما عودة ذلك الرجل الودود الطيب، فقد اكتشفت في لحظة ما أنني وإياه قد ولدنا في السنة ذاتها وفي الشهر ذاته، ولكنه يكبرني بعشرة أيام، يا للصدفة يا عودة، أكبر منك يوم أفهم منك سنة، فكيف وأنت تكبرني بعشرة أيام، إن هذه العشرة أيام منحتك هدوءا ليس عندي، وبعدا عن العصبية ما زالت من سماتي، عشرة أيام جعلتك أرقى وأطيب وأكرم.

طلبت من صديقي أنور أنه لا بد من أن أسهر تلك الليلة في بيت عودة، فقد اشتقت له، ولم يتمكن من حضور الأمسية الشعرية في بيت لحم، زرته،

ففاجأنني أول أن جلسنا وقد تناول سيجارة من علبة دخان كانت على الكرسي، ابتسم وقال: "رجعت للدخان" أجبته بدعابة: وماذا أقول الآن؟ لقد قضيتَ على مقالي الأول (خربتها يا عودة)، ضحك وضحك القوم، ووعدته أن أكتب أنه خذلني في قهره لشهوة نفسه، ولكنه سيظل رغما عن ذلك هو الرجل والصديق الذي أحبه، لا يضير أحدا إن رجع للدخان أو تركه، فها أنا أترك ثم أعود متأرجحا بين البينين، ولا حيلة لنا إلا أن نقاوم ما استطعنا.

ماذا بقي في جعبتي من الزيارة الثانية لمدينة الخليل؟ اكتشاف آخر في بيت الأمراء، الشاعر الشعبي (نايف اعمر) المشرف التربوي لمبحث الفيزياء، مبدع في الشعر الشعبي النبطي، يسمعني قصيدة على الهاتف، فيأتي لزيارتنا في بيت صديقنا. شاعر يغرف من بحر في اللغة والموروث الثقافي الشعبي البدوي، شاعر تطاوعه القصيدة، وتتشكل الأبيات بين يديه واحدا واحدا في متتالية شعرية متعانقة الروح والجسد لتكون قصيدته جيدة السبك عميقة ودالة، عدا أنه متنوع الأغراض، يلتفت للموضوعات فيصوغها شعرا بديعا طريفا، ويأخذ بعقلك وقلبك وهو يحدثك بسلاسة تكاد لا تجدها عند غيره. يسعدني بكتابته فيّ بيتين من الشعر الشعبي النبطي، باهيت بهما ونشرتهما على صفحتي في الفيسبوك:

يـــا صـــقر يـــا الـــلي بعـــالي الطـــوق هـــوّاد
خلفـــة صـــقر مـــن منبـــع الطيـــب يرويـــكْ
نعـــم الخلـــف لـــلي ســـلف والـــرب يحمـــاكْ
تشـــهد ربوعـــك كـــل مـــا حـــل طاريـــكْ

هؤلاء هم أصدقاء بيت أمر، أمراء شعر وذوق وسلوك وخلق.

في رحلة الخلود الأبدية
هو الصبر لا منجاة منه:

اليوم: الجمعة، والشهر رمضان، والتاريخ: 25-7- 2014، السابع والعشرون من الشهر الكريم- 1435 هـ، والموعد بعد صلاة الجمعة، والمناسبة مسيرة سلميّة تضامنية مع الأهل في غزة ضد المحتل، والجاني: قنّاص جبان مختبئ على أحد السطوح.

الخلاصة: ترفرفُ روحك في الأعالي صاعدة إلى بارئها... المنتقم الجبار من كلّ طاغية وجبان.

رحمك الله يا صديقي هاشم أبو ماريا.

كيف بدت بيت أمر الباسلة وهي تودعك؟ وكيف تجرأت على أن تخلو منك؟ أبكيك أم أبكي حالتي أم أعلي فيك شهادة نلتها فصرت سيدها؟ هل أشاطر أهلي في بيت أمر التعازي والأسى في هذا المصاب الجلل؟ أم أشاطر نفسي عذابها وقد فقدتك أخا وعزيزا؟

هل يكفي أن أقول بعض كلام ليس له من المعنى شيئا؛ لأن حياتك كانت أكبر، وموتك كان أعظم؛ ماذا عساني أن أقول وقد عرفتك نبيلا كريما طيبا ودودا سمحا وشهما، محبا للحياة، تعيشها بكل تفاصيلها، لم تكن على الرغم من ذلك تخشى الموت، وربما كان بالنسبة لك حدثا عاديا، كجزء من تلك الحياة التي كنت تؤمن بفنائها السريع، ولعلي أراك قد ابتسمت هازئا بوجه من حاولوا النيل من علو كعبك في الخالدين.

لم يكن موتك يا هاشم عاديا، كان ارتقاء في مدارج النور في أفضل الشهور وأفضل الأيام، ارتقاء الروح لتكون بين أحضان ربها، اصطفاك الله طيبا في لحظة طيبة لتكون من الطيبين الطاهرين الشهداء الأنقياء.

تراني غص بي الألم فحز في أحشائي وزاد وطال واستطال حتى تراني بكيت يا صديقي! وماذا تنفع الدمعات الخجولة ولم نعد نلتقي لنشرب القهوة التي أحببت ونحدّث أحاديثنا حتى مبزغ نور الفجر؟ كيف لنا أن نكون معا، وأنا هنا قابع في جنوني وذلي وخوفي، وأنت هناك سيد وجميل ونبيل وعظيم، وقد حزت وسام الشجاعة والشهادة والشرف الأبديّ؟

لقد اقترب التنين يا هاشم فقضم حصته من دمي لتكون منك، فيا لفداحة مصابي!

من هذا الذي لا يفتقدك يا هاشم؟

أهلك؟ أبناؤك؟ أصدقاؤك؟ صديقنا الثالث عديلك عودة؟ أشياؤك الغريبة الحميمة؟ شجرة المسابح؟ كوخ الدجاج الفاره؟ حجارة بيت أمر التي تعرفك حجرا حجرا لتكون شاهدة على روحك وعرق جسدك العنبري الطاهر؟ أشجار زينتك؟ ومساءاتك الطافحة بالمودة؟ الأرجيلة التي ستصمت وتأبى أن تلامس شفاها غير شفاهك، فأين تجد لتلك الروح من بديل؟ من هذا الذي لا يفتقد ضحكتك وصخبك العذب خريرَ ماء يسيل في أحاديث الليل الهادئ؟

رحمك الله يا صديقي رحمك الله... ولا عتب على محتلّ تربى ليأخذنا على حين غرة في كل حين.

رحمك الله يا هاشم، شهيدا حيا ولن يموت الشهداء فهم أحياء عند ربهم يرزقون، فقد تخلصت من أرضيّتنا لتكون حيا أبدا.

لا أحاول يا صديقي رثاءك وإن خلفتني وراءك باكيا، رحمك ربك الرحمة الواسعة يا صديق الحياة الطيبة.

أربعة ناقص واحد: هواجس أمام ضريح الشهيد هاشم أبو ماريا (2014/9/8)

كم هو غريب وعجيب أن تسيطر عليك الروح، فلا تكاد تتركك، تظل تتجلى، وتسير جنبك، لا تبرحك، كُنّا دائما أربعة، لقاءاتنا المليئة بالتفاصيل وبالأحاديث وبالأمنيات وبالتعليقات المفعمة بالنكات، والأغنيات، المشاوير، الأماكن، الزيارات. كنا أربعة، ولم نزل أربعة.

عندما زرتُ قبرك، لم أتخيل للحظة واحدة أنك لم تسمعني عندما سلمتُ عليك، ولم أصدق للحظة واحدة أنك لم تنظر إليّ، وتترحم عليّ، لتضحك مني، وتقول: إنني هنا، ما بالكم ألا تروني؟ أنا أراكم، أنا معكم، هيا تهيأوا سنذهب إلى مشاويرنا سوية، سنزور الأماكن ذاتها، سأعرفكَ أيها الشمالي القادم من بعيد على كنيسة المهد وحجارتها، سأعرفك على الخليل وبيت لحم، وستسمع مني ما كنت تحب سماعه من أغاني محمد عبده وطلال مداح، فما زالت تلك الأغاني موجودة وهي تغني كلما صعدت سيارتي وتوجهت إلى عملي. ما بالكم واجمون؟ أنا أضحك ومسرور فكونوا مثلي، ولا تهتموا لشيء، فأنا معكم... سآتيكم انتظروني".

هكذا تسمّرت أمام ضريحك في بيت أمّر، لم أتمالك نفسي، قهرني رقادك ونومك، من أين أتتني كل تلك المقدرة لأراك مسجى تحت ظل شجرة بين حجارة مزخرفة وورود ناعمة. من أين أتتنا نحن الثلاثة الجرأة لنزور تلك الأماكن وأنت لست معنا؟ ولكن ألم تكن معنا؟ والله لقد كنت معنا لحظة بلحظة، كلما مررنا على مكان تذكرناك، كلما قلنا جملة تذكرناك، كلما مرّ بنا شخص تذكرناك لقد ملأت الوقت والمكان يا صديقي، فلم تغادرنا، كنا أربعة يا صديقي، ولم ينقصنا واحدك، فأنت حالّ فينا مقيم بيننا، روحك تصاحبنا أينما حللنا.

كيف تواطأنا يا صديقي على أن نلتقط صورة لثلاثتنا ولست معنا؟ ولكنك كنت معنا، نعم كنت الروح التي تظلل ظلالنا، كنت النور الذي أعطى الصورة عنوانها ولونها، لم نكن في الصورة إلا أربعة، ولم يكن الناقصَ واحدٌ، كان الكامل الحاضر هو الحاضر أنت وحدك... إنها روحك التي تكمل عجزنا ونقصنا.

هناك في آخر محطة، تناولنا الغداء نفسه، بالكمية نفسها، بالهيئة نفسها، تغديت معنا على ذات الطاولة، أكلت وأكلنا، وأصدرنا النكتة ذاتها، وأنت تتوقع مني أن أكتب مقالة لأسميها "مشوار الخليل"، ها هي أصبحتْ مشاوير، وليست مشوارا واحدا. وأصبحتَ أيقونةً للمجد، تحيا في عليين وتزور معنا أماكننا ولن تفارقنا فنحن أربعة، وما زلنا أربعة، وسنظل أربعة، ولن ينقص ذلك الواحد من بيننا.

عليك منا السلام يا سيد الكرماء.

النشيد الحيّ في الذكرى الأولى للخلود (2015/7/25)

اليوم، ومع أول خيط نُسج في بردة الصباح، عند الثانية عشرة، كنت حاضرا بكامل أبهتك، بجلالك، بضحكتك، بعينيك الباسمتين، بمهابة بادية، كأنك هنا لم تغادر ولم تبرح مكانك الذي ألفناك فيه.

كم تذكرت أشياءك التي تغنّي الآن عنك نشيدك الأبدي، تلك الحجارة، الأشجار، النباتات، الحيوانات الأليفة، الحكايات، النكات الطريفة البريئة، الأغنيات، كلها شاهدة الحضور الذي لا تترنح له قامة، ولا تذبل له زهرة، ولا يذوي له جسد.

لعلي لم أخبرك أنني وأنا على مائدة طعامي اليوميّ أراك تنظر إلي كلما وقعت عيناي على حافة مثلومة لصحن بائس على مائدة بائسة، تعاتبني على إهمال الأناقة والكمال "كيف لهذا الناقص المثلوم أن يكون هنا، كيف تأكل منه

ويآكلك؟" أخجل منك ومني، ولكنني لم أمتثل لذلك الذي ترجوه مني، غبيا كنتُ إذ فكرت أنك لن تراني.

اليوم، كما كنت قبل ثلاثمائة يوم أو أزيَد قليلا، أراك تبث خلال الفضاء ألحان الغناء الشهي، أكاد أسمع منك ترنيمتك لأغنية خليجية، تستظهر بوحها، وتستبطن غايتها الممتدة من هناك إلى هناك.

لا أريد لليوم أن تعفره تربة ضريحك القاسية، أو أن أتذكر ثكنة الجنود الرابضة على بعد خطوتين من مرقدك، أريد فقط أن أجدد العهد فنحن ما زلنا على عهدك باقين، كلما مرّ الوقت ازددت حضورا باذخا لا يمحى له أثر. كأنك الهواء الذي يعبر البلاد من أقصاها إلى أقصاها، كأنك الحجارة الصلبة الفائرة بحرارة التاريخ والحضارة المتقدة، كأنك كل شعر ورواية وسيرة مجد ألفها كل عباقرة النشيد العظيم.

لا أريد اليوم أن يتحول إلى مأثم نواح وصخب، كل ما أرجوه أن يتمكن الصحب والرفاق أن يزوروك ويبلغوك محبتي، فعليك السلام أيها الشامخ كالنسر رغما عن حجارة مرقدك، وبلادة الغزاة الطاعنين في اللا إنسانية الجافة.

ستظل أنت الندى الذي يبلل صباحاتنا فلترقد بسلام الأنبياء، ونشيد الشهداء الخالدين. يا عابقا مثل وردة، ويا جميلا مثل شمس، ويا دائريا مثل بدر. عليك السلام، عليك السلام.

المساحة الثامنة: مذاق الحبّ في لذعة الحرب- الرسائل

أنا وصوفي نحب المثلث الأحمر
الأربعاء (2023/12/20)

أحبّ أن أشاكس صوفي، في الحرب وفي السلم. في الحرب يكون للمشاكسة طعم مختلف، تتجه المشاكسة لتكون سريّة، هكذا فعلتُ في هذه الحرب. موضوع المشاكسة هذه المرة المثلث الأحمر. ما قصّة هذا المثلث أولاً؟

شاع هذا المثلث الأحمر الذي يأخذ شكل الشارة بعد العملية البرية في الحرب الأخيرة على غزة، كان علامة المقاومة على الهدف المنوي الانقضاض عليه وتدميره، سرعان ما شاع هذا المثلث، وصار موضوعاً لمنشورات كثيرين، ورمّزه المستخدمون الإلكترونيون، وانضم إلى قائمة التعبير بالأيقونات، ونافس قلب الحبّ، وعلامة الشكر، والوجوه الضاحكة، والقُبل المتبادلة.

صوفي تنتبه إلى هذا المثلث، فتعبّر عن إعجابها بهذا الرمز، بكتابة قصيرة مكثفة على صفحتها في الفيسبوك. يعجبني هذا الاهتمام، وهذا المنشور، وأتجنب الحديث عما أريده علانية، فأنسلّ نحو الرسائل، لأكتب لها: "أنا من زمان أعشق المثلث الأحمر".

هذه المرة أريد أن أخرج صوفي من سياق الحرب إلى سياق الحبّ، هي تعرف- كما أعرف- رمزية أخرى للمثلث الأحمر. أعتقد أنها بحاجة إلى أن تخرج من تلك الأجواء التي سيطرت عليها طيلة أيام الحرب لتعيش أجواء أخرى، أو لتتنفس هواء آخر. فالحرب ليست سوداء بالمطلق، لا بد من أن يكون فيها بعض ورد، وشمّ عطرٍ، وقصيدة حب، وقبلة، وعناق، وأشياء أخرى، يجب ألا تمنعنا الحرب عن أن نمارس إنسانيتنا في أعلى توهجها العاطفي.

ما زلتُ أراهن على أشياء كثيرة في علاقتي بصوفي، منها الحرب نفسها، والحب نفسه، وضرورة سرقة الوقت لنعيش شيئا من الحب في الهامش الضيّق للحرب المتسعة. لذلك وافقتني صوفي في رسالتي لها على الخاص، وأبدت سعادتها من هذه الرسالة، إلا أن ردها جاء مقتضباً، قصيراً، بعد

ساعات، قالت جملة واحدة فقط مشفوعة بثلاثة وجوه ضاحكة "ما إلك حلّ"، إذن وصلت رسالتي، ونجحت مهمتي، واستطاع المثلث الأحمر برمزيتيه أن يجتاح لغتنا وأهدافنا، لنعزز برمزية الحب رمزية الحرب.

لستُ وحدي من استغل المثلث الأحمر لأهداف غير حربية، ثمة إعلانات انفجرت فيها الأسعار فأعلنت أن "مثلثنا فجّرنا فيه الأسعار بمناسبة نهاية العام"، إذاً، ينجح المثلث مرة ثالثة لصنع رمزية تجارية ذات بعد حربي مقاوم. وهذه من بركات الحرب الجانبية التي لها الكثير من المؤشرات الإيجابية، وانتقل من الفضاء الغزي حيث يعلو أهداف الحرب ويؤشر إليها ليأخذ مكانه أيضاً على الصدر في الملابس الشتوية الجديدة لهذا الموسم.

هذا الكتاب الذي سميته "مساحة شخصية"، وكذلك ديوان "في أعالي المعركة" كنت أود لو نجحت في استثمار المثلث الأحمر من أجل أن يكون على غلاف أحدهما برؤيا ما. لم تساعدني الظروف لذلك. عليّ أن أغيّر إستراتيجيتي إذاً، لم أنجح في تجسيد فكرتي التي كنت أحب أن تكون موجودة على الغلاف، لم أستشر صوفي في هذا الأمر على أية حال، لأنه خاطر ولد ومات في ظرف ساعة، لأفكر بطريقة مختلفة. لم أشكك بفاعلية المثلث الأحمر الثقافية إلا أنّ كل ما في الأمر لم يحالفني الحظ ولم تسعفني أدواتي الفنية لآخذ هذا المثلث أبعد من علاقتي مع صوفي حيث لا بد من أن تكون حاضرة معي في كل سياقات الحب والحرب، لا سيّما وهي المرأة التي لم تتنازل عن حلمها من أجل العودة إلى فلسطين، لتنام على أديمها في الربيع الجميل، وتغسل قدميها بماء الينابيع الريفية، وتغتسل معي بالمياه الدافئة في شاطئ منزوٍ على بحيرة طبريا.

هذه الحرب كانت قادرة على أن تجعل المثلث الأحمر الذي حلمت به أن يكون حقيقة مع صوفي، فقد اقترب وعد الحب، وما بقي إلا القليل من المسافة لأرى من جديد صوفي تدرج على أرض فلسطين وتشمّ نسائم الحرية، وترقص فرحة أعلى من رقصة المقاوم الجميل القافز في الهواء بـ "ولّعت".

رسالة حبّ من طرطوس

في غمرة اشتعال الحرب، وفي اليوم الخامس والستين منها 2023/12/10 أبعث للشاعرة والكاتبة السورية رجاء شعبان رسالة على الواتس أب، أعبّر لها فيها عن مدى إعجابي وتأثري بجمالها المتحقق في صورة لها نشرتها على صفحتها في الفيسبوك. تأخذنا الحرب، فتقضي على تلك اللحظة الفاتنة من الشوق والتأثر بالجمال الأنثوي. كانت الحرب أكبر من كل جمال، ومن كل إعجاب، ومن كل لغات الشعر والغزل.

ورغماً عن الحرب التي لا أريد لها أن تفقدني القدرة على الحب والتعبير عنه، تلطفت بالحديث معها مغازلاً مازجاً جرأتي بحيائها فكتبتُ: "فلتعلني الثورة من أجل الانضمام إلى ورود أحضاني". ولأنها امرأة تصمت أكثر مما تتحدث فلم تجبني سوى بكلمتين يسمحان لي بالتوغل الغزلي، فأردفت جملتي تلك ببيت شعر:

عينـــاك قافلتـــا قلـــبٍ يهـــدّدهُ   شـــوق تغلغـــل في أحشـــائه يلـــدُ

فكرتُ بعد الانتهاء من المحادثة التي أسعدتني كثيراً، أن أكتب شيئاً، وألملم أطراف ذلك الحديث الممتع، فلم أستطع. شيء ما منعني أن أكتب، ربما هي الحرب أيضاً، فلا شيء أقوى من سلطة الحرب على ما يبدو. ظلت تلك اللحظة غافية في أحلامي، راجيا أن يتحقق لي بعض حلم، حلمته، لأزور سوريا وألتقي بالشاعرة العزيزة رجاء شعبان. تقول لي رجاء إن لها أصولا فلسطينية، فأجدادها من فلسطين، ولأجل ذلك فهي تحنّ لكل شيء في فلسطين، لشعرائها، ولأرضها، ولمقاومتها. تقول لي معيدة كلاما مشابهاً: "أنا أحب غسان، وأحفاد غسان، ومحبي غسان وأحبابه وأبناء قلمه، ورائحة تفاحه، وأنت هو غسان الجديد".

تعود إليّ رجاء شعبان، تلك الصبية الممشوقة القدّ، أم العصافير، في اليوم التالي حاملة إليّ رسالتها القصيدة "جواباً على حديث البارحة"؛ لتتحدث عن تلك اللحظة الهاربة من لظى الحرب المستعرة، تعود إليّ وكلها فرح، مفعمة

كياسمينة دمشقية، ومع القصيدة دفقة من شعور محبب إليّ، فتخبرني اسم ضيعتها التي تحب كل شيء فيها، ضيعة تسمى "الخريبة" التابعة لبانياس، التابعة بدورها لمحافظة طرطوس، تحب في الضيعة طبيعتها، صخورها، أشجارها، نباتاتها، طيورها؛ عصافيرها ودجاجاتها. وتحب أرانبها وحيواناتها. تلخص كل هذا العشق بقولها: "أنا مجنونة بعشق الطبيعة... كنت أحب حتى الحجارة".

حديثها هذا جعلني أراها هي الطبيعة ذاتها، فتبدو جزءا أصيلا منها في تلك الصور التي بعثتها إليّ، امرأة تتحد بالزهور من حولها، وتستلقي بكل جمالها على صخرة، تشعر أن الخالق صممها لتكون مهادا لجسمها الملموم كأنه "عود الخيزران" الذي تحدثت عنه يوما سميرة توفيق. بدت لي أكبر من شهوة عابرة، بل إنها أكبر من أسطورةٍ يلتقي فيها جسدان؛ ليصنعا قدرا إلهياً كائنا منذ الأزل.

رجاء شعبان تمنح للغة جمالها الآسر، وهي تكتب من قلب ضيعتها التي أرنو إلى كل تراب لامسته فيها، وكل هواء تنفسته هناك في فضائها الممتد عاشقا للبحر، وكل عصفور لاعبته براحتيها النحيلتين، وكل شجرة تفيأت ظلالها وقطفت من أثمارها. فأن تحبني امرأة هيَ هي أعظم هدية، وأن تتذكرني بقصيدة في الحرب فذلك أمر خياليّ يشبه الفنتازيا، هذه الفنتازيا التي بلا شك ستهزم الحرب مهما صنعت من قدر سريالي عنيف، سنهزم الحرب بحذف الراء لنستطيع العيش، تحقيقا لرسالة الحياة نفسها.

هذه المرأة الشامية تجعل للقصائد معنى، لا سيّما إن جاءت في هذا الوقت العصيب من الحرب والدمار، لكأنها عشتارنا التي لا تفتأ تصنع الحياة والحب والجمال، وتجعل للبطولة معنىً كونياً شاملاً، يشبه هذه الحرب الكونية المسعورة التي أجمع فيها القوم على سحقنا بالكامل. فلعلها صدقت فينا وفيهم الحكمة القائلة: "لَنْ يُجْمِعَ القومُ على قتلكَ إلا إذا كنت بطلاً، فاختر لنفسك كيف تكون". وقد أجبرت الظروف الشعب الفلسطينيّ أن يكون

بطلاً جمعياً، وأفراده أبطالاً حقيقيين، لذلك تبدو هذه الحرب شرسة إلى هذه الدرجة.

وفي اليوم الواحد والسبعين من الحرب (2023/12/16) تفاجئني الشاعرة رجاء شعبان بقصيدة أخرى، تبعثها على الواتس أب، قصيدة كثيفة الحزن، فيها الرجاء والاستعطاف من أجل أن تنتهي هذه الحرب.

وهاتان هما الرسالتان القصيدتان:

(1)

وأنت ترى بي الغواية...

وأنا أرى نفسي حزنكم الدفين

رجال أو شعراء فلسطين...

وبدأت القصة مع حزن قديم ضد الظلم والطغيان...

ثم عشق لكل فاهم أمين...

واستمرت قصة العشق معي وبي للأرض... للشجر... للأبطال... للشجعان...

لأصحاب الهمم والأقلام والحب المبين

ولكني تعبت يا صديقي...

بعدما كنت أفرح فيما أكون نسغ قصيدة لشاعر...

أو غواية خيال لكاتب...

أو شهوة جسد لملاك بريء وقع في الطين...

تعبت والله وأتعبتني نفسي بفلسطين...

لم أعد أتحمل وجعي ولا وجع المشردين...

أواسيك فتواسيني

بصورة لي تُبدي لك ملامح الشهوة

أبقيتْ شهوة في زمننا العفن هذا؟

أشعر بالعهر فيما لو رقصت على نغم كلمةٍ جميلة

منغمسة بالعمق بالأنين

يا صديقي... يا صديق الكلمة التي أحبها

والجرأة التي يأتي بها شاعر لامرأة

لقد ماتت العصافير بي

واستشهدت الرجولة بالقصف تحت مرمى الخداع البشري

اعذرني...

أحب غوايتك بي

ولا أحب غوايتي لأحد...

ابنة الغواية سُمّيت

وأنا لستُ إلا خيبة الشياطين

شاعري تبقى...

شاعر المرأة والمجون بالإحساس في أحايين

بل شاعر البقاء والرغبة بعيش الجمال رغم حسد الميّتينْ

رجاء شعبان 2023/12/11

(2)

إلى كاتب من فلسطين

حزنٌ... حزنٌ يطوف

لمن أحكي؟ لفجرٍ غارقٍ في الجرحِ

أم لشاعر مفتون

يملك كتبه بحاراً من الحروف ضد اليأس والنوم

وأنا لا قوّة لي إلّا على الغفوِ

في عالمٍ منسيّ معدوم

حزنٌ... حزنٌ يعوم

والعمق قلب صافٍ اشتعل بالضوء والحب

فأهدى الحياة نشاطاً

وصنع حضارة

وأنجب أولاداً

واخترع الصبح من الهموم

يا شاعر الحزن في أعماقي

وأنت الأمل تراه

في القلب وفي العيون

كيف أعتذر لك

عوضاً عن انسحابي من حبِّ ربٍّ عشقته
لكنه قاسٍ لا يرأف بالفقراء مثلي والخائفين
يا كاتب السجل العصري الآدمي الآلميّ
في أرضٍ سمّاها الله الجنّة
لكنها ما عاشت إلا السعير
فهذا دمي محموم
وبارد كفي
ووجهي مثلجٌ
وخطّي الجميل على كوكبٍ متعرّج مأفون
كلما ولد حبّ
تحداه بولادة آلاف الكارهين

يا كاتب العدل يا الله
أقِمْ محكمتك
واحكمْ عليّ بالعدم
مقابل أن توقف هذا الجنون
وقل ماتت كافرة
فتنعّموا بكفرها
واهدؤوا بدم ريحها السموم

أرسلها فتقول:

هذه لي؟

وأقول هذه ليست قصيدة حب...

هذه حروف وجع مسنونة من سكين فلسطين

تذبحني، فأصرخ لابنٍ من أبناء فلسطين

يضمّني في عراء

ويدفنني مع الجرحى المسلوبين في هواء

ليقرأ الفاتحة على روحي مع أرواح المستشهدين

ويسجلنا في تاريخ الحزن والدمع

فداءً للملائكة

كي تغلق فمها الشياطين

أكتب إليك يا قلماً انغمس بحبر بلده فلسطين

وأبناء فلسطين

في الأسر

وفي النصر

وفي القهر...

ألستَ روح الكتّاب المساكين

الذين استشهدوا في اغتيال الكلمة

لأنهم فقط أبناء الرحمة من الكلمة البريئة الحلوة بحق أم متوجعة هي فلسطين؟

ألستَ فراغ الدرويش من الضجيج الطافح

لأملؤه في صفحات من أصوات بعيدة

تنهض بالأنين؟

أنا يا صديقي لا أناديك أنت بالذات

ولست أنا في لحظات

أناديك باسم المدن والمعاني التي تعاني

ربما بعدما تشرق الشمس أصمت

وينمو الحرف ريحاناً على قبور الغابرين

أناديك كمحبرة تنادي قلماً ليمتلئ من بعض حبرها

حين يجفف الموت حبر الصحافيين

وتنتهي دماؤهم مدداً

وتبقى فقط ذكرى أوجاعهم

فدوة لفرح السنين

أمدّكم ببعض النوح والبوح بقصب الحنين.

رجاء شعبان 2023/12/16

لماذا أكتبُ لك عن الجزائر؟
الجمعة: 20-7-2018

أيتها العربية المجيدة، والثائرة المهيبة، تحية راسخة من قلوب متجذرة في المحبة، أما بعد:

لماذا الآن أكتب لك عن الجزائر؟ وكيف انتبه الوعي إلى ضرورة الكتابة عن هذا البلد العربي العريق غير الملتبس في هويته العربية والإسلامية على الرغم من الأصول الأمازيغية، وما يقال تجاهها. وعلى الرغم من الفرنسة التي تطغى عليها وتحاول أن تلفها بحجاب لا يشوه روحها بقدر ما يعطيها بعدا من ثقافة القبول والتسامح مع الآخر. هذا الآخر الذي كان سببا في استشهاد أكثر من مليون جزائري. لعلك تشعرين مثلي تماما بعاطفة خاصة تجاه هؤلاء الشهداء، وربما أكثر مني، وأنت أخت الأسرى والشهداء.

لفرنسة الجزائر حديث مرعب أيضا، ثقافيا، حيث إحلال الثقافة الفرنسية محل العربية، واللسان العربي والذاكرة العربية، ولكنها لعدالة قضيتها الإنسانية انحاز إليها كثير من الكتاب الفرنسيين في الوقت الذي كتب بلغة المستعمر كتاب جزائريون كثيرون من آسيا جبار، إلى ابن جلون والطاهر وطار وغيرهم الكثير. ولنا أن نتخيل ومعنا كل المثقفين كيف ينحاز عربي لثقافة مستعمره، فيكتب بلغته، تصوري مثلا لو كتبنا باللغة العبرية، وأنشدنا أشعارنا بالعبرية، ومجدنا شهداءنا بالعبرية، واعتبرنا ذلك انفتاحا وتسامحا مع الآخر. أعرف موقفك من ذلك، ولكنه مجرد استدعاء للمقارنة، فها نحن نتشابه مع هؤلاء الكتاب، وكل ما أخشاه يا عزيزتي أن يأتي يوم، ونغني كما غنى موسى حجازين: "يا خوفي تتكلم عبري" في مسرحيته الساخرة "الآن فهمتكم". أتظنين أن الأرض لم تتكلم العبرية بعد؟

هذا الحديث المرعب عن الفرنسة والعبرنة، يفتح سيرة حديث مرعب آخر عن صحوة الأمازيغية، على الرغم مما يقال إن أصل الأمازيغ عرب، ولكن

المشكلة ليست قومية، ولا هي عرقية، فليكن الجزائريون أمازيغ، وماذا يضيرهم ذلك؟ ولكن أن تتحول الأمازيغية قرينة للفرنسة في القضاء على وجه الجزائر العربي حينها تكون المعضلة الحقيقية، لو نظر إلى الأمازيغية بعين أخرى سترى فيها وجها آخر للتنوع الحضاري، هذا التنوع الذي استفاد منه كتاب كبار كأحلام مستغانمي التي لا يبدو في كتاباتها أي أثر للفرنسة أو الأمازيغية في كل تلك الكتب التي قرأتها، بل إنها تعطي للغة مذاق العربية الخالص وتتشبع كتاباتها بروح عربية شرقية خالصة، مع أنها ابنة للثقافة الفرنسية، وتحمل شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون.

ولا يغيب عن البال كذلك الكاتب الكبير واسيني الأعرج وزوجته الشاعرة زينب الأعوج اللذين يمثلنان في حضورهما الإبداعي الثقافة العربية الخالصة، ولعل واسيني من أكثر الكتاب الجزائريين اهتماما بالقضية الفلسطينية، فهو يحرص مع كل عمل روائي أن يكون هناك طبعة خاصة بفلسطين، يوقعه على أرضها، وبين جمهور المثقفين الفلسطينيين العاشقين للجزائر وأدب الجزائر، ويتبرع بريع تلك الطبعة لصالح المؤسسات الفلسطينية تلك التي توجه عنايتها واهتمامها بالأسرى الفلسطينيين. وأظنك قد استمعت له غير مرة في متحف درويش كما استمعتُ له مرة واحدة فقط عندما زار نابلس منذ ما يقارب العامين.

أحب أيتها الغالية أن أعرفك على علاقتي الشخصية بالجزائر. أعترف أولا أنني لم أزرها، وربما لن أزورها في يوم من الأيام، ولعلك أيضا لم تزوريها، مع كثرة أسفارك.

حكايتي مع هذه "الشامخة" حكاية خاصة؛ فأول حوار معي كان قد نشر في صحيفة جزائرية تدعى "حوار الإبداع" كانت مقدمتي إليهم صديقة جزائرية كاتبة اسمها "ليلى رابح". انقطعت أخبارها، ولم أعد أعرف عنها شيئا؛ فمنذ ما يزيد عن عشرين عاما تعرفت إليها من خلال المنتديات الإلكترونية الأدبية قبل انتشار "الفيسبوك" أو معرفتنا به، وكان بيننا مراسلات بالبريد

الإلكتروني. تكتب ليلى مجموعة قصصية، فأكتب لها مقدمة نشرتها في كتابي "شهرزاد ما زالت تروي"، وكانت صحيفة العرب اللندنية قد نشرتها حينها كمقال مستقل. غابت "ليلى رابح"، وبقيت مجموعتها محفوظة في ملفات الحاسوب لدي، أفكر أحيانا بالإقدام على نشرها بدلا عنها، لكنني أحجم عن هذا الأمر، ربما لا يحق لي فعل ذلك؛ إذ لا أدري أنشرت المجموعة أم لا؟ ولا أدري أستمرت في الكتابة أم توقفت؟ وكم بحثت عنها عند العم (جوجل) فلم أعثر على نتائج حديثة للكاتبة ولا لمجموعتها القصصية التي اشتملت على قصة بعنوان "الشاعر والتابع والماجن" أخبرتني أنني الشاعر المقصود فيها.

يتتابع اهتمام الصحف الجزائرية بما أرسله من مواد أدبية، فنشرت لي عدة صحف جزائرية: "الجزائر الجديدة" و"الجديد اليومي" و"السلام اليوم" و"الحوار" و"الاتحاد" و"الأيام" و"الشعب" و"المواطن" ولي أصدقاء كثيرون أعرفهم ويعرفونني من خلال تلك المقالات، ولم يعد مفاجئا أن تحتضن تلك الصحف مقالات الكتاب الفلسطينيين، بل إن بعض تلك الصحف تتبنى قضية الأسرى الفلسطينيين وتنشر ملحقا أسبوعيا تحت عنوان "صوت الأسير"، وبعضها يحرص أن يكتب في صدر صفحتها الأولى "نحن مع فلسطين ظالمة ومظلومة". وكم كان يصيبني الزهو بشعوره الحاد المفرح عندما أجد لك مادة منشورة في إحدى تلك الصحف، فأسارع بنقل الخبر أكاد أطير من نشوتي العارمة.

أمر آخر أحب أن أحدثك به في علاقتي بالجزائر، وربما تشاركينني فيه كذلك، فقد تفتح وعيي على ثورتها الكبرى وتضحيات أبنائها وثوارها، وما زالت صورة عبد القادر الجزائري مرتبطة في ذهني بصورة عبد القادر الحسيني واسمه، ولم تغب الجزائر عن حركة الثقافة الفلسطينية فقد درسنا في الجامعة نصوصا كثيرة من الأدب الجزائري، فوقفنا عند رواية "الشمعة والدهاليز" وقصة "الشهداء يعودون هذا الأسبوع" للطاهر وطار، وعندما أصبح لدينا

منهاج فلسطيني خالص، أدخل المؤلفون نصوصا من الأدب الجزائري، وأعدوا مواد دراسية تتناول بعض أعلام الجزائر، فغير الثائر عبد القادر الجزائري، كان هناك حضور في إحدى دورات منهاج اللغة العربية للمناضلة الجزائرية جميلة بوحيرد محمولة على متن قصيدة لنزار قباني، يشبهها بجان دارك الفرنسية ذات الأثر الكبير في تاريخ فرنسا الملكية.

المحبوبة الأعلى شأنا وقدرا:

علي الاعتراف أن لي صديقات جميلات من الجزائر صحبنني فترة من العمر، صديقات نثرن الورد في صباحاتي، وأنعشن ذاكرتي، وجعلن الحب للجزائر وأهلها حيا يعادل مسالة الوجود ذاته. فيا لله كم أحب الجزائر، وأهل الجزائر، ونساء الجزائر، وثوار الجزائر، وأنتمي إليها بلدا عريقا حافلا بالأدب والتاريخ المجيد والطبيعة الزاهية، والإنسان الأمازيغي الذي يعطي ولا يبخل ويصنع الجمال، فلسان الحال يقول: إن لفلسطين أختا تحبها مكتوب اسمها في صحف المجد، معروفة بأنها "الجزائر"، تلك الحرة التي نعشق تاريخها ونجلّه.

لا أود الانتهاء من الحديث عن الجزائر، ولكن لا بد من إنهاء هذه الرسالة التي أخذت تطول كثيرا. يسعدني أن تشاركيني ذكريات أو معلومات عن تجربة خاصة لك عن الجزائر أو أي بلد آخر، أحب أن أرى العالم في عيونك، وهو يموج على متون صحائفك.

لك الرضا والمجد والحب

المشتاق: فراس حج محمد

العيد في فلسطين غير والله غير
الخميس: 2021/5/13

أسعدتِ صباحاً وعيداً أيّتها المترائية كهذا النصر المرتقب، أمّا بعد:

هذا هو يوم عيد الفطر الذي اعتدنا أن نصفه بالسعيد، وكنت ألاحظ في صغري أنّهم لم يقولوا عن أيّ عيد أنّه سعيد سوى عيد الفطر، لعلّ ذلك عائد إلى الحديث الشريف المشهور: "للصائم فرحتان، فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه"، والفرحة تستدعي السعادة، لذلك قالوا ما قالوا.

لهذا العيد نكهة مميّزة، فهو عيد مختلط بصور العنف والدمار وضرب الصواريخ. لا أخفي عليك فرحتي بمنظر صواريخ غزّة، وهي تهمي كالمطر في العمق "الصهيوني". أستمع للأخبار بشغف. أتتبّع مساقط الصواريخ فأبتهج، أحبّ أن تُسقط تلك الصواريخ ضحايا "صهاينة"، ليس حباً في القتل، فأنا لا أحبّ الدماء، ولا منظرها، لكنّ سقوط الضحايا في صفوف "الأغيار"، تعني ليَ نوعاً من الردع والتوازن، فهم يألمون حقاً كما نحن نتألّم. آمل أن يرتدعوا عن قهرنا لنعيش بسلام، وإن سلامٌ مؤقت، حتّى "يقضيَ الله أمراً كان مفعولاً". مع كلّ هذا الألم إلّا أنّني استفتحتُ النهار بالكتابة على (تويتر) و(فيسبوك): "العيد في فلسطين مختلف، في القدس له لحن الألوهيّة، في غزّة له مذاق النصر، في الداخل الفلسطيني له سمة الرهبوت الفعلي. العيد في فلسطين غير، والله غير".

لعلكِ مثلي مبتهجة لما يحدث، مع أنّه لا توازن بين القوّتين، ولا أريد أن أتحوّل إلى محلّل سياسي، وإنّما لا أجمل من ضعيف مقهور محتلّ، يحاول أن يكون قويّاً، ولا أجمل من سجينٍ شرس، تحوّل إلى نمرٍ لأنّه محاصر، فخمّش بأظافره وجوه محاصريه. أنا سعيد لهذا وجدّاً، بغضّ النظر عن الضحايا، الشهداء، ومن قال إنّ من يريد أن يتحرّر لا يدفع فاتورة الحرّيّة، ففاتورة الحرّيّة ليست مالاً، إنّها دَمٌ وشهداء.

وجوه الشهداء باسمة في هذه المعركة، بل ووجوه الأحرار باسمة أيضاً، ووجوه المعتقلين تنضح بالبشر والبشرى، في القدس كانت الفتيات مبتسماتٍ، وكان الشباب باسمين في لحظة الاعتقال والاشتباك، لا يكفّون عن المقاومة حتّى بالابتسامات، يواجهون عيون الكاميرات بابتساماتهم الراضية، ويصفعون بها وجوه الأغبياء والزعماء، والقادة الذين لم يكونوا إلّا بحجم ذبابة، ولم تشكّل صورهم إلا مساحة ظلٍّ لحذاءِ منتفضٍ في القدس المطهّرة من أمثالهم.

لقد كانت هذه هي الصورة أيضاً داخل المعتقلات، كما كتب صديقنا الحيفاوي الأصيل حسن عبّادي الذي زار الأسرى قبل العيد بأيّام، فوجدهم على ذات الهيأة، باسمين، بل علت ضحكاتهم، فأزعجوا السجان بهذه الضحكات الصافية المحمّلة نشوة لن يعرف الأعداء لها طعماً إلّا أنّها تؤشّر على الحياة، لذلك فإنّهم يغضبون. عليهم أن يواجهوا الابتسامات بالحقد والرصاص والقنابل والهدم، ولن يستطيعوا بعد كلّ ذلك هزيمة ثغرٍ مبتسم مهما أوتوا من قوّة وجبروت، فلا يستويان؛ طالب حقّ وحياة، وطالب موت ودمار.

كم كان المنظر جميلاً، رائعاً، مفرحاً. فقد جعلوا العيد بمذاق مختلف. أنا لا أحبّ العيد إلّا هذا العيد، إنّ فيه سرّاً ما، لعلّه يخبّئ فرحة كبرى. كتبتُ فيه، وضحكتُ فيه، وسهرتُ فيه، واستقبلتُ الزائرين فيه، وزرت الأقارب فيه، ولبست أجمل ما لديّ من ملابسَ فيه، وتطيّبت فيه، وكتبتُ شعراً للشهداء وللأقصى ولغزّة فيه، فـ"غنيتُ غزّة أهلها الصيدا، والعيد يملأ أضلعي عيداً" فيه، وهاتفتُ الأصدقاء، وأنا معبّأ بالرضا والسعادة فيه.

بالتأكيد، أيّتها الغالية، ستكون الفرحة كبرى لو كنت معي الآن، أو تبادلنا حديثاً عفويّاً عبر الهاتف. كالعادة، ستكون صورتك هي التي تكمل المشهد دائماً، أنت معي في كلّ وقت، لا تسمحي للشكّ أن يلعب بثقتك، أنا أنظر إليكِ

برؤياي البعيدة، فأراك حاضرة تكتبين معي للشهداء، وللقدس، ولغزّة، وللأرض التي أخذت زينتها في هذا العيد السعيد.

أرجو أن تقرئي ما كتبته من شعر جديد، إنّني أعود إلى الشعر مفعماً برائحة الشهداء الذكيّة، إنّها عودة خاصّة، كأنّني أنا الشاعر المقصود: "وشاعر ينشَط وسط المعمعة". كتبتُ للشهيد المبتسم "حمزة" خماسية. يبدو حمزة هذا الطفل البريء مبتسماً ضحوكاً في مشهدين مكتملين، مشهد من حياته، ومشهد ارتقائه إلى العلا. كتبتُ له أغنّي لتلك الابتسامة التي تتحدّى الحياة وقسوتها وتتحدّى الموت ورهبته بنداوتها البهيّة، وكتبتُ للمبتسمين أيضاً، فكم كان المنظر شاعريّاً شعريّاً، لوحة إبداعٍ عفويّ بحدّ ذاتها.

يا ليتني أستطيع أن أفعل أكثر ممّا أفعل الآن، فأكتب بالفعل، لا بالقدرة على الكتابة فقط، يا ليتني كنت مقاتلاً؛ جنديّاً في صفوف المناضلين، أحمل السلاح، وأغنّي على وقع الرصاص في المواجهات. يا ليتني كنت قادراً على أن أكون في القدس مع المرابطين، أو مع الهاتفين في شوارع حيفا ويافا والناصرة واللدّ. أكاد أسمع توفيق زَيّاد يهتف في الجموع: أناديكم، أشدّ على أياديكم، ويقول للمحتلّين إنّنا: "عشرون مستحيلْ/ في اللدِّ، والرملةِ، والجليلْ". اللدّ، يا له من مشهد عظيم فاق خيال الشعراء، في انتفاضتها التي قلبت كلّ الموازين، وخطّأت كلّ الحسابات.

لا أجمل من شعور المرء بالسعادة، أيّتها الحبيبة، لا سيّما إن كانت السعادة آتية من شعور جمعيّ، فلنا نحن أهل هذه البلاد أيضاً فرحتان: فرحة عند اللقاء، وفرحة عند الشهادة وارتقاء الشهداء. إنّه يصدق فينا قول الشاعر:

فرحـــوا فـــلألأ تحـــت كـــلّ ســـما   بيـــت عـــلى بيـــت الهـــدى زيـــدا

لعلي أراك قريباً، وقد أسفرت وجوه الشهداء الباسمين عن نصر مؤزّر، وأنورت وجوه الأسرى بفرحة الحرّيّة وإشراقات المجد على الرمل والبحر والبر والسهلِ والجبل، فعمّ الضياءُ أعماق الحنايا، وزغرد الليلُ وَضَاء.

المشتاق إليكِ بنشوة المنتصرين كأنّني واحدٌ منهم:

ف. ح

السبت: 2021/5/15

يسعد مساك فراس،

طمني أولا، كيفك؟

الرسالة جميلة يا شاعر، وأعتذر عن التأخر في قراءتها. رحنا أنا و(إ. ه) الشيخ جراح مبارح، واليوم كنت في مظاهرة الصبح. للأسف، ماذا عسانا أن نفعل سوى أن نتظاهر. هذه ليست حربنا فقط، هذه حرب اليهود بينهم، وحرب على الوعي العربيّ الشّاب الذي أثبتَ أنه جيل صامد لا يندمج ولا يذوب.

برغم كلّ المأساة والإحساس بالخوف هناك إحساس بالسّعادة، والعيد هذه المرّة غير، فعلا غير...

دمت بألف خير.

ر.غ

السبت: 2021/5/15

يسعد قلبك.

ما تتصوري سعادة أهل الطيّبة في المثلث كيف زرعوا العلم الفلسطيني محلّ سقوط لصاروخ. لعلنا وعسانا نرى يوم عزة قبل أن نموت.

كل التحية...

ف. ح

إنّه لنهار مختلف
إنه نهار "الواحد والعشرين" من أيار لعام 2021

أسعدتِ صباحاً وأوقاتاً، وأرجو أن تكوني مثلي فرحة مسرورة بما أسفر عنه وجه الحرب الكالح. أما بعد:

لقد فاتني شرف انتظار اللحظة الحاسمة، فَرُحت في سبات عميق. ضرب على أذنيّ فلم أصحُ على وقع الرصاص الذي انطلق احتفالا بانتهاء الحرب على غزة بالشكل الذي انتهت إليه. الناس في غزة لم تنم واحتفلت، وفي رام الله، هتافات وسعادة وبهجة، إنها صورة أخرى من المقاومة الشعبية التي لم تخفت. لن يفهم المشهد إلا من صنعوه بعفوية، غزة قبل ساعات قليلة بل ربما قبل ساعة كانت تحت القصف والشهداء بالعشرات والجرحى والهدم والدمار، وبعد كل ذلك، ينهض الشعب الذي لم يهنأ بليلة واحدة على مدى أحد عشر يوماً ليحتفل. إن الشعب غير منهك، غير مهزوم، لا يشعر بالعار أو بالذل. على العكس من مدن محتلة، فعسقلان نعمت بليلة هادئة، فانسلّ السكان إلى غرف نومهم هادئين، "وبضدها تتميز الأشياء".

إنه لأمر عظيم ما جرى، وإن لم يكن كبيراً في المفاهيم السياسية، فظلت غزة محاصرة، وظلت فلسطين كل فلسطين محتلة، وظل بايدن يدعم إسرائيل، وظل المجتمع الدولي منحازا متواطئاً، لكن الدرس الأهم من كل ذلك هو أن الحرب أعادت اللحمة للشعب كل الشعب من أقصاه إلى أقصاه.

أمس، كنت في حوار مع صديقة، تشعر بالخجل، لا تريد أن تكتب في الحرب، إنها تشعر بالعجز. هكذا بدت وكأنه لا شيء لديها لتقوله. بدوري أنا أحب الحرب، ولا حرب بلا ضحايا وآلام، بل كلها آلام؛ خلال الحرب وبعدها، ولكن لا بد من أن نخوض المعارك. الحرب تشعرني بأني حيّ، حالة الهدوء القاتل حالة تشير إلى الالتباس، حالة اللاسلم واللاحرب.

الحرب كاشفة وفاضحة يا عزيزتي، في الحرب طلّقت قناة "العربية"، إنها سيئة بما يكفي لتبصق في وجوه القائمين عليها، بدت منحازة بشكل فاضح للإسرائيليين، وتحرضهم علينا، وتتمنى لنا الهزيمة والانكسار. صحيفة العرب التي تصدر في لندن يبثّ بعض كتابها سمومهم في تحليل مواقف المقاومة. إنه لا يرى المقاومة أكثر من مرتزقة تخدم لصالح إيران. هذا الكاتب (ولا أريد ذكر اسمه ترفعا لأنه لا يستحق) يبول على نفسه برذائل قوله، ثمة آخرون مثل "العرب" و"العربية" وهذا النكرة، لا شك في أن ما آلات إليه الأحداث سيزعجهم، وسيلطخون اللغة بغرائب تحليلاتهم، وإشاعاتهم الباطلة التي كانت تروج للهزيمة وقبول شروط مجحفة عبر ما ادعوا من امتلاكهم لوثائق مسرّبة. ثبت أنها لم تكن موجودة.

إنني أشبهكِ تماماً في أنني لا أعوّل على أمثال هؤلاء، والحرب بطبيعتها توجد "مرجفين في المدينة"، ومنافقين، وتقسم الناس أقساماً متنوعة، ولكل هدف ولكل غاية، وهم أحرار فيما اتخذوه من مواقف، وإننا أيضا أحرار في اتخاذنا المواقف التي تناسبنا ونحبّ من يحبنا ويقف إلى جانبنا.

ليس بعيداً عن الحرب، أودّ أن أبلغك أن مقالتي "المثقفون الفلسطينيون والحالة الراهنة" قد حازت نسبة قراءة عالية، والتفت إليها كثيرون. يهاتفني أحدهم على إثرها وبعد أن وشى بي "شخص" ما، لم يذكر اسمه وأنا لم أطلب اسمه. المقالة موجعة للمثقف الفلسطيني الذي أصبح بالفعل "مثقف سلطة" ولا حول له ولا قوة، وأقصى ما يستطيعه الخروج بمظاهرات سلمية، والكتابة على الفيسبوك. ربما تقولين إنك لا تفعل غير هذا. نعم معك حق، فأنا لا أفعل غير هذا، ولكنني لست مع أي سلطة كانت. فلا أمدح أحدا ولا أهجو كذلك. أنتقد وبشدة وبموضوعية. كيف لي أن أرى احتفالا رسميا في رام الله في ذكرى النكبة يطيّر بلالين في الهواء ولا أسخر، بلالين في رام الله، وصواريخ في غزة في ذكرى النكبة التي وحدت الشعب كل الشعب، أي تناقض سخيف في عقد المقارنة أساساً. إنه مشهد مذل ومخزٍ

بالفعل أشعرني بالقرف. الدرس الذي تعلمته من هذه المفارقة الحادة كيف أن "السلطة" تدخلنا في جحور واطئة السقف، والمقاومة تجعل سقف طموحاتنا السماء المفتوحة على المطلق. المقاومة تدفع بنا إلى الأعلى والسلطة تجبرنا على الدخول في النفق المظلم ورؤوسنا منحنية. هذا هو الفرق بين المقاومة وبين السلطة، وعلى المثقف أن يختار في أي صف يكون.

رام الله اليوم في الواحد والعشرين من أيار العظيم تلغي المشهد بسخافته لتكون صدى غزة وأم الفحم واللد، إنه مشهد تجريبي ليوم التحرير القادم شاء من شاء وآبى من أبى "واللي مش عاجبة يشرب من بحر غزة" أو يغرق فيه. لا ضير، "بريّحنا" من شره.

اليوم هو العيد، بعد أن تأخر العيد، فغزة في اليوم الثاني عشر ينبلج فيها قمر العيد الكبير، فلتحتفلي معي، بما يليق بهذه الفرحة العارمة، فيا ليتك كنت معي الآن، لكنا في التحام الاشتياق الذي يرفع نسبة الشوق إلى أقصاه لنتحد في مشهد العشق على وقع دقات الفرح الكبير، فلا أجمل من حبيبين يحتفلان بالنصر على طريقتهما الخاصة. لا أريد أن أكتب شعرا للنصر، وإنما أريد أن أكتب في أحشائك أجمل لحظات الشوق والاشتياق وأرى وجهك مشرقا متهللاً ونحن في أجمل حال وألطف مشهد بعد الحرب، فنحن نحب الحياة أيضا ما استطعنا إليها سبيلاً.

أراك بخير أيتها الرائعة، وعلى أمل قريب في موعد قريب لعلنا نحتفل كما ينبغي لعاشقين افترقا، وها هما يدخلان الشهر الرابع وهما في تنافر وقطيعة. ألم يكن بمقدور غزة أن تصالحنا. يبدو أن الأمر بالنسبة إليك أكبر من غزة ورام الله وفلسطين. على العموم أتمنى لك الخير وراحة البال.

المشتاق إليك

ف. ح

الجمعة: 2021/5/12

يسعد أوقاتك فراس،

كيفك؟

لستُ سعيدة بشيء. مخجل وعار ما حصل. المئات ماتوا، الآلاف أصيبوا. الصّورة نفسها لم تتغيّر منذ 48، الدم الفلسطينيّ الذي تتعطّش له الشاشات وكتب التاريخ. كلمة مجزرة واجتياح وقصف، حكر على الفلسطينيّ وحده. أي نصر وأي هزيمة وأي شهادة وأي حزن وأي بهجة؟

لا أريد حربا ولا سلما ولا دما ولا انتصارا. لم يعد هناك ما يقال يا فراس. النّاس؟ نحب الحياة، والحياة لا تحبّنا، يبدو.

هذا ألم، وهذه المرة بتوقيع الجميع. لديّ غضب لا يمكن وصفه، علينا نحن الفلسطينيين، أكثر من أي طرف آخر.

ر.غ

الجمعة: 2021/5/21

لا أدري يمكن هناك شيء آخر.

لا تتوقعي أن يكون كما نحلم.

الإفراط في الأمل يؤدي إلى اليأس أو الغضب، ويبدو أنك كنت تعولين كثيرا على الأحداث. ببساطة شديدة يُسرق كل شيء بجرة قلم. وعلينا أن نرى ذلك الجانب المخفي من هذا الظاهر المؤلم.

ف. ح

"إنتِ وأنا يا رَيْتْ عِنّا بَيْتْ"
الأحد: 2021/5/23

أسعدتِ أوقاتاً أيتها الجميلة كوحي يبني بيتاً جميلا ولو كان بيتاً في قصيدة.

لديّ كمشة أفكار أريد أن أنثرها بين يديك. ها هي الحرب قد انتهت، ولكن لا أوجع من الحرب إلا ما بعد الحرب. آلام كثيرة وكبيرة. صديقة كاتبة من غزة تباشر بكتابة يومياتها. دار حديث بيننا بعد أن انتهت الحرب، شجعتها على أن تكتب، فكتابة من عاش الحدث ليس كمن شاهده من بعيد، وكتب عواطفه البرانية وتحليلاته وانطباعاته.

للحرب أيضاً أهميتها وعليّ أن أشكرها فقد أعادت وصل ما انقطع من علاقات مع أصدقاء وصديقات، هاتفتهم لأطمئنّ عليهم، ولتدور بيننا أحاديث حول الحرب وغير الحرب. أرأيت كيف يمكن أن يكون للحروب وجوه أخرى؟

لقد كتبت عن الحرب، وها أنا أكتب، ربما هي الموضوع الذي لا ينتهي منه الحديث، فكل يوم تقرئين قصة مؤلمة أو تشاهدين صورة أو تستمعين إلى طرفة أو موقف ما. الشيخ "حسني اللحام" كان مدهشا بعفويته. الحرب أوحت له بهذا الذي سمعناه لولا الأرجيلة ودوائرها التي تطرفت النكت في ملاحقتها. بالفعل لقد أحببت أسلوبه، كنت دائما أطمح أن أكون خطيبا مثله أو ما يشبهه من الخطباء الذين كنت أستمع إليهم، وأحفظ مفرداتهم وحركات اليدين والرأس. لم أستطع أن أكون خطيبا للأسف، جربت الخطابة وكنت متواضعا في ذلك، لا الصوت ولا الهيأة يمنحانني مؤهلات الخطيب المفوّه.

مشهد ما بعد الحرب يبدو جميلاً، لم أشعر بالقتامة تخيّم على منشورات الناس في الفيسبوك، صحيح أن هناك دمارا وشهداء وجثثا وأنقاضاً إلا أنها لم تجعل المشهد قاتماً. الحرب قاسية، لكن ليس لها قدرة على كسر الإرادة.

فلم تتعامل الناس بسوداوية مع تلك المشاهد، بل كان الأمل بازغاً من بين عشرات الصور والمنشورات.

يوم الخميس قبل الإعلان عن وقف العدوان، يأخذنا أنا وزميل لي حديث الحرب إلى ما يقوم به الاحتلال من بطش وهدم البيوت والأبراج السكنية. أخذني الحديث وتشعب. توقفنا مليا عند دلالة "هدم البيت" ماذا تعني؟ إنها لا تعني مالا، ولا مجرد تشريد، إن البيت هو المأوى والمستقر، هو الأمن والأمان، هو المكان الوحيد الذي تكون فيه صادقا مع ذاتك، متجردا من كل أقنعتك، هو المكان الوحيد الذي تدخله، فتشعر أنك في ملكك، البيت ليس مجرد جدران أربعة، لذلك فإن الإنسان يترك شيئا من روحه ونفسه وجسده في المكان الذي يألفه ويعيش فيه. المحتلون عندما يهدمون البيوت، لا يقصدون تشريدنا وتعذيبنا فقط، إنهم يقصدون تجريدنا من هذه الخصوصية وهذا المُلك، ويقتلون أجزاء منا يدفنونها تحت الأنقاض من المستحيل أن تعود. من فقد بيته يفقد كل شيء!

البيت- يا عزيزتي- علامة حضارية وعلامة تمدّن، لذلك عرف البشر تطورا عمرانيا في زخرفات البيوت، منازلنا هي الجنات على الأرض، ليس كأهل البادية الذين لا يرتبطون بالمكان إلا بقدر ما فيه من عشب وماء فلا يبنون بيوتاً، فإذا نضب الماء وانتهى العشب رحلوا. فعلاقتهم بالمكان علاقة آنية مرحلية، دون ألفة ودون ذكريات في الغالب، ليس كمن ولد في منزل وعاش فيه عمره كله. المنافي لا تصنع بيوتا والتشريد لا يصنع بيوتا، لذلك يستميت المحاربون في الدفاع عن بيوتهم، فاحتلال البيت معناه القضاء عليك لتصبح كائنا لا إنسانيا من وجهة هؤلاء المجرمين.

نحن الفلسطينيون علاقتنا مع البيوت علاقة طويلة، حمل الأجداد مفاتيح البيوت عند التشريد، لأنهم كانوا يعتقدون أن أجزاءهم الباقية في تلك البيوت في مأمن ما دامت المفاتيح في الأعناق. مات الأجداد وهم يتوقون للرجوع إليها، بل إنهم لم يشعروا بالاستقرار وكانوا على قلق وهم في منافيهم. يقفز

إلى ذهني قول درويش عن تلك البيوت الذي يفكر فيها أصحابها الذين هجّروا منها قسراً: لماذا تركت الحصان وحيداً؟ / لكي يؤنس البيت، يا ولدي/ فالبيوت تموت إذا غاب سكانها".

لا شك في أن لديك الكثير من الأفكار حول البيوت وأهميتها، ولن أسترسل حتى لا أشعرك بالملل. لعلك الآن تستذكرين كل تلك البيوت التي سكنتها في الغربة، وفي الوطن قبل الغربة وبعدها. أظن أننا من الأجيال التي تحب البيوت كثيرا، ولنا فيها حكايات وقصص، في الشتاء وفي الصيف وفي النهار وفي الليل. فأجمل مكان في العالم بالنسبة لي هو بيتي، ولولا دواعي العمل لا أفكر بالخروج منه مطلقاً.

أشعر أحيانا أن علاقتنا ناقصة، فلا بيت لنا سويا نمارس فيه شهوتنا كما ينبغي. غرف الفنادق ليست بيوتا صالحة للحب وممارسته، إنها مكان عابر ليس لنا، سينام على الفراش ذاته بعدنا، كما نام قبلنا العشرات بل ربما المئات، ولم نكن حريصين على أن نترك شيئا منا فيها، بل إننا نكون في أشد الحرص على تجريد المكان من كل ما يعلق به منا. نخرج من الغرفة ونغلقها وكلنا يغادر معنا. أو يموت على أبواب تلك الغرف. كأنّ شيئاً لم يكن، لم تكن تعطينا غرف الفنادق شيئاً سوى الألم، لأن ما بعدها الفراق واللامكان. لم أعد أتذكر أرقام تلك الغرف. ألم تلاحظي معي، إنهم يختصرون الغرفة برقم، ونحن إذاً كنا النازلين بتلك الأرقام أرقاماً مثلها، تترجم عند إدارة الفندق أجرة وعدد نازلين لا شيء غير ذلك.

كم أشتهي زيارة بيتك، ورؤيتك فيه غزالة تمرحين، تأخذين زينتك وحريتك دون أي أقنعة، كنت غبيّا عندما أتيحت لي الفرصة لأكون في بيتك ولم آتِ إليك. أعرف أنني أيضا خسرت شيئا مهما، فلم أتذوق إلى الآن طعامك الذي تعدينه بخبرة ربة بيت ممتازة. طعام الفنادق والمطاعم ناقص لا روح فيه، لم أكن أجد فيه لذة الطعام المعد بيتياً، يغيب عنه ذلك النفَس الذي كانت تعنيه أمي عند حديثها عن إعدادها للطعام. ولولا أنك معي لما استطعت أن

آكل بلذة وشغف. لم أعد أتذكر طعم وجبة أكلناها سويا، وما أكثر تلك الوجبات! وما أقلّ حضورها في الذاكرة!

كل شيء في البيت له مذاقه الخاص حتى الضحكة لها رونق خاص، والنكد له شكل خاص، والعصبية لها مزاجها الخاص. يا ليتنا في البيت الآن وليكن ما يكون! فلو كنا في بيت واحد لم يطل غضبك كل هذه المدة. أرأيت كم يخسر المحبون عندما يخسرون بيتا يضمهم، ويضمد جراحهم، ويداوي أوجاعهم، ويبدد غيوم غضبهم؟

أستميحك عذراً، لقد شعرت بالتعب فجأة، وانقبض قلبي وأريد أن أتوقف عن الحديث، فقد صار الحديث موجعاً، ولا طاقة لي على احتمال الألم.

أخيراً أقول: لعلنا نلتقي...

تحياتي

ف. ح

الأحد: 2023/5/23

يسعد صباحك فراس

قرأت رسالتك، رسالة جميلة رغم الحزن المنبعث فيها. رغم فقدان بيوت كثيرة بالحرب والاستيطان الخبيث، فالبيت تلك المساحة التي نمارس بها حياتنا اليومية بنوع من الحرية .

نعم إنها رسالة للعالم لا أغلى من بيوتنا التي فقدت، ولا أغلى من ذكرياتنا بتلك البيوت المفقودة التي تحاصرنا بالذاكرة ما دام بنا روح ونفس سنبقى نحمي بيوتنا .

تحياتي القلبية إ. س

نحاربهم أيضاً بالأغاني والهاشتاج

الأربعاء: 2021/5/26

أسعدتِ أوقاتاً سيدتي الجميلة، أرجو أن تكوني بخير، وآمل أن تكون رسائل ما بعد الحرب قد وصلتك وقرأتها، وأن تكون قد أعجبتك. لا شيء جديد على صعيد الكتابة والقراءة غير هذه الرسالة. في ظل هذا الوضع أجمع كتباً إلكترونية. أقرأ فيها، ولم أجد فيها ما يشجعني على إنهاء أي كتاب منها. القراءة مملة بعد الحرب أيضاً. أخبرك أن كتابي "استعادة غسان كنفاني" قد دفعت به إلى دار النشر، لعله يكون جاهزا مطبوعاً بين يديك في ذكرى استشهاد غسان كنفاني التاسعة والأربعين. كم متلهّف على طباعة هذا الكتاب! لم يصلني إلى الآن شيء من "البروفات" للكتاب أو الغلاف.

لعلك لاحظت- كما لاحظتُ- أن للحرب تأثيرا فنياً جميلا، عدة أغنيات كانت رداً فنياً منظما على الحرب العشوائية، سمعت "ناي البرغوثي" و"فراس البوريني" و"محمد عساف" و"أحمد الكردي"، وعادت فرقة العاشقين في أغنية جديدة. لقد أثبتت هذه الأعمال الفنية كم كان للأثر الحربي من أهمية في عودة الفنّ إلى الحياة. تاريخ طويل من الأغنية الفلسطينية صنعته الثورة الفلسطينية في أوج تألقها ومدها الشعبي. ها هي بشائرها تطلّ من جديد. الثورة تصنع مزاجيتها الشعبية في أغاني الحب والحرب والحرية.

هذه ظاهرة جديرة بالملاحظة، وبعيداً عن تأمل الكلمات والمشاهد المصاحبة من صور، إلا أنها اتفقت جميعها على أن هناك أملاً، وأن هناك قوةً، وأن ثمة حياة بدت تدبّ في أوصال الشعب، على الرغم من الدمار.

ما زلت أتذكر قبل سنوات، عندما فاجأتني أنك قد كتبت كلمات أغنية، لقد أعجبتني تلك الكلمات وذاك الأداء أيضاً، والمشاهد المصاحبة لتلك الأغنية. الشعب الحيّ هو الشعب الذي يرى الأمل وسط غابة كثيفة من الحزن والألم. أليس كذلك؟

ظاهرة أخرى من ظواهر حرب غزة لهذا العام، لقد قصف الاحتلال المكتبات، أهم مكتبة في غزة، مكتبة سمير منصور، ليست هذه المكتبة فقط، إنما هناك مكتبات أخرى قصفت، وأحرقت، مشهد عظيم، لا أدري هل هو عفوي أم لا، عندما عرضت صورة لتلك المكتبات المدمرة، ليظهر فوق الركام كتاب غسان كنفاني "عائد إلى حيفا". هل تظنين أن المشهد عفويّ؟ ربما رتبته يد ما قبل التصوير، وبث التقرير على قناة الجزيرة. حتى لو كان مرتباً. إنه مشهد عظيم، يعيد إلى الأذهان سيرة غسان كنفاني هذا الكاتب الفلسطيني العظيم الذي راح ضحية العنجهية الصهيونية. إنها استعادة محمودة ولو كانت مرتبة، وذات دلالات قوية.

لا أعرف صاحب المكتبة، لكنّ له فضلاً عليّ، لقد احتضن بعض كتبي، واستطاع القراء في غزة الحصول عليها من هناك: ديوان "وأنت وحدك أغنية"، وديوان "مزاج غزة العاصف"، وربما كتب أخرى. أليس من واجبنا إعادة إعمار المكتبة، بناء وكتباً؟

كل الغزاة الطغاة سيئون ويكرهون الكتب، وكثير منهم أحرق مكتبات ضخمة، إنهم يدمرون التاريخ والحضارة والذاكرة، منذ التاريخ الموغل في القدم والغزاة أعداء للكتب، قبل هولاكو وبعد نتنياهو سيظل الطغاة أعداء للكتب، لأن الكتب وحدها بمفهومها الشامل هي التي تحارب التطرف والتقوقع في "غيتوهات" قاتلة، وترصد حركة الغزاة الوحشيين وتحاصرهم في إبراز وحشيتهم ليعرفها الأجيال ويلعنوهم.

على ما يبدو- يا عزيزتي- أن الحرب لم تكن حربا ذات شكل واحد، ثمة حرب إلكترونية علينا، ها هو موقع يوتيوب يحذف الكثير من المحتوى الفلسطيني، ليرد عليه الفنان محمد عساف، ويمتنع عن نشر أغنيته الجديدة في اليوتيوب. كانت الحرب الإلكترونية أيضاً حرب "هاشتاجات"، وانضم موقع "جوجل" إلى الحرب وصنفت "الكوفية" رمزا من رموز الإرهاب كعلم داعش والحجاب. يا لهم من عُمْي، ومتطرفين وعنجهيين وعنصريين

ودكتاتوريين! أي عالم سيئ هذا الذي صنعوه؟ إنهم شركاء على الدرجة نفسها بما صنعه القصف الوحشي من قتل الأطفال والنساء والمدنيين وأحرقوا الكتب.

ما أشبه اليوم بالبارحة، قبل سنتين كتبتُ على الفيسبوك هذا المنشور الصغير: "تخيلوا العالم العربي والإسلامي والدولي مجمع على قهر الشعب الفلسطيني". نعم إنه الإجماع نفسه الذي يريد للفلسطيني أن ينكسر في الحرب، ولولا الهبات الجماهيرية العربية والدولية لرأيت أنّ "ألسنتهم وخناجرهم علينا". يبدو أنْ لا حل للفلسطيني ولا نصير له إلا هو نفسه.

لا تظني أن الحرب قد انتهت، فقط الصواريخ هي التي قد توقفت، لكن الحرب ما زالت مشتعلة، وها هي كل يومٍ تستعرُ أكثر من اليوم الذي قبله. عاد المحتلون الصهاينة إلى ديدنهم، إلى عنجهيتهم، إلى القتل والاعتقال والمصادرة. تمنيت أن لو لم يتوقف ضرب الصواريخ، يا ليتهم كانوا حطام تلك الصواريخ. إنهم لا يعرفون معنى الراحة ولا معنى السلام. ولا يريدون لأحد أن يرتاح، إنهم يسعون إلى تدمير العالم، بالفعل إنهم يسعون إلى تدمير العالم.

وأخيراً: لا أريد أن أثقل عليك القراءة والوجع، أتمنى أن أرى منك ما يفاجئني بعد كل هذا الصمت الطويل العمر.

أحبّك. على أمل اللقاء قريباً.

تحياتي الخالصة من قلبيَ المشتاق...

ف. ح

الخميس: 2021/5/27

سلام فراس

قرأت رسالتك بعناية، وكل التفاصيل، وكم تمنيت لو أحصل على كتابك الجديد "استعادة غسان كنفاني"...

غسان كنفاني كان ولا يزال يرعب الكيان، لا الموت يبعد روايات غسان وكتبه عن منبت الأرض، عن رائحة التراب والوطن هذا التواصل والارتباط سيظل إلى ما بعد الموت.

سعيدة جداً برسالتك.

إ. س

الخميس: 2021/5/27

مساء النور يا شاعر،

أتمنّاك بخير هذه الأيام.

شكراً لإرسال الرسالة، والمواد الأخرى. هناك ما أصل إليه فوراً في القراءة، وهناك ما هو مؤجّل، إلى أن أتفرّغ من برنامج القراءة والعمل، برنامج "بس الله بعرفو".

داوِم على كتابة هذه الرّسائل، لأنها جميلة وعفويّة، تناقض نفسها أحيانا، فيها من الأفكار ما يثيرُ حفيظتي، وفيها من العاطفة ما يجذب ومن الأفكار ما يُحترَم. باختصار شفافة وصادقة.

لكنّ أجمل ما فيها، هو ما نجتمع عليه أنا وأنت: يبدو أن لا حل للفلسطيني ولا نصير له إلا هو نفسه.

هذا ما أُقوله دوما وسأظلّ أقوله إلى أن يجد الفلسطينيّ مخرجاً لورطته التاريخيّة والراهنة.

أنا لا أعوّل على أحد إلا على أنفسنا. كلّنا نحنّ هذه البلاد، وكلّنا نبحث عن دواء لجرحها. كلّ على طريقته. أنا، صرتُ أقلّ عاطفيّة في شأننا الفلسطينيّ. نحتاجُ إلى المنطق والعقل والبرود ونحن نفكّر: كيف نخرج بفلسطين، دولةً حرّة، مستقبل أولادها داخلها، لا في الشتات والمهجر؟ باتَ محزنًا أن نستمع إلى الأغاني، ومغضباً رؤية الركام والإعمار.

نريدُ حلاً يا فراس. حلا نهائياً.

سأقرأ ما أرسلتَ قريبا.

دمت بخير

ر. غ

الخميس: 2021/5/27

ما أجمل ردك! ليتك كنت حبيبتي! (مش تزعلي) مجرد أمنية، إياك تبطلي تكتبي لي ردودك الجميلة؛ إنها تنعشني بالفعل وتمدني بالقدرة على الكتابة والاستمرار، من القلب كل الحب.

ف. ح

السبت: 2021/5/28:

ليه أزعل؟ أنا كريمة وأنت بتستاهل. واصل

ر.غ

خيباتيَ المتوقعة وغير المتوقّعة
السبت: 2021/6/5

أسعدت أوقاتاً أيتها الحبيبة الرائعة، أنتِ هناك وأنا هنا، يا لهذين الظرفين المتناقضين. أكاد أصدق أنهما ليسا نقيضين، وقد أثبتت الأحداث أنهما ليسا نقيضين. اليوم هو ذكرى النكسة، ذكرى هزيمة حزيران، هذه الهزيمة المذلة إلى درجة الخزي التاريخي المزلزل الذي أسقط العرب وتاريخ العرب في حمأة طين لم يفلحوا إلى الآن من التخلص منها، بل إن النظام العربي الرسمي المتعاون مع الدول الكبرى والدلوعة "اللي ما تتسمّى" إلى حد العبودية يغوص أكثر وأكثر في وحول الهزيمة يوميّاً، لا يقف الأمر على التطبيع العلني، ثمة ما هو مخفي أشد جُرماً، ولم تفلح مسرحيات الأنظمة والميلشيات التابعة لها مهما أحرزت من "نصر" أن تمسح عارا واحدا مركباً من هزيمتين اثنتين في غضون تسعة عشر عاماً. يا إلهي، ما أصدق نزار قباني! فهُم من نصف قرنٍ لم يُرجعوا زيتونة أو برتقالة، ولم يمسحوا عن التاريخ عاره، ولن يفعلوها صدقيني، لقد نُصّبوا ليناصبونا العداء، وليخدموا أعداءنا.

لا أخفيك أنني أشعر بالحزن والغضب والرغبة في الانتقام من هؤلاء جميعاً، كلما تذكرت أنني أعيش تحت الاحتلال، ولا أستطيع مثلا أن أتنقل في وطني دون هاجس جندي أو مجندة يوقفني على حاجز طيّار أو ثابت. الجنود صاروا أكثر شراسة واستعداداً؛ إنهم دائمو التصويب علينا من النقطة التي نطل فيها على الحواجز حيث تربض بنادقهم النهمة الباحثة عن فريستها لتزجّي بها وقت الفراغ والملل على الحواجز، تظل فوهة البندقة مصوبة على أفئدتنا ورؤوسنا حتى نمر عنهم ونتجاوزهم. تصوري أنه ممنوع عليك أن تشير بيدك، أو أن تستعمل هاتفك، أو أن تنظر إليهم، عليك أن تمر عن الحاجز وكأنك صنم. إننا بالفعل أصنامٌ لا تهشّ ولا تنشّ، ولا يحق لك أن تبتسم، لأنك ستعرض نفسك ومن معك في السيارة إلى الانتقام المباشر، إذا ما تحرك الحسّ الأمنيّ لهذا الجندي المتربص بحياتنا. ما هي إلا صلية

رصاص واحدة يفرغها في أجسادنا وينتهي أمرنا، لنصبح خبراً في شريط أنباء العواجل الفضائية. يا له من مصير أسود متوقع كل يوم، كلما مررنا عن حاجز ملعون!

أرأيتِ مفاسد النظام العربي والسلطة الفلسطينية؟ جعلونا مجرد كائنات لا قيمة لها. إننا أرخص من "فشقة"، هذا وضع محزن جدا، ويفقد المرء الإحساس بقيمته، يدفع العاقل فينا أن ينتحر، هل سمعتِ كما سمعتُ أن الشاعر تميم البرغوثي قد حاول الانتحار ولولا ابن خالته لصار خبرا عاجلاً، لم أرَ ذلك في الأخبار، قرأته في منشورات الفيسبوك أمس، وعثرت اليوم صباحا على ما كتبه تميم نفسه على صفحته في الفيسبوك. إنه يبدو حزيناً جدا ومرهقا كما قال، والذي لا يفهم مما كتبه: كيف يشعر باليأس فينتحر، ويطالب قراءه ألا ييأسوا ويواصلوا مشوار الحياة؟ كان الأولى به أن ينصح نفسه، أليس كذلك؟ ثمة تناقض عجيب عند هذا المنتحر. رسائل المنتحرين الحقيقيين لا تكون بهذه الكيفية. هكذا أتصوّر.

بدا لي الأمر غير مهمّ بعد أن قرأت ما كتبه. على أيّ حال، لقد انتحر قبله وحاول ذلك كثيرون بسبب سوء الأحوال السياسية الضاغطة، كخليل حاوي وتيسير السبول. إن العاقل العاجز أفضل له أن يموت من أن يعيش الذل يوميّاً. لقد سبق وقلت لك إن الشخص المنتحر شخص شجاع، إننا نحن الجبناء. لعلك اطلعت على مقالتي حول الانتحار، وقد نشرتها قبل مدة في صحيفة الرأي الأردنية. ولو عدت إلى قراءتي لرسائل المنتحرين كما وُجدت بعد انتحارهم لعرفت حقيقة خبر انتحار تميم البرغوثي. على كلّ، الحياة ليست بحاجة أحد مهما كان، نحن الذين بحاجتها، ولذلك علينا أن نقاوم.

وها أنا أقاوم رغما عن كل البؤس الذي نحياه. هذان اليومان مزدحمان بالنشاطات. الجمعة، كان هناك حفل توقيع دعيت لحضوره عبر زوم، وهذا اليوم، استئناف لبرنامج "أسرى يكتبون"، بلقاء يبثّ من عمّان حول كتاب لأسيرة محررة. من المتوقع أن أشارك فيه بمداخلة ثانوية حول "الأسيرات

الكاتبات". الفكرة في رأسي منذ مدة، ولم أكتبها، لكنها حاضرة وجاهزة للكتابة. كما أنني دعيت لأمسية شعرية عبر الزوم أيضاً تحت عنوان "غزة وفصل الخطاب".

أعجبني العنوان الذي يؤطر الأمسية، عدا أن الدعوة بحد ذاتها مهمة بالنسبة لي، وتثير فيّ ذكريات جميلة، وتعيدني إلى الوراء أكثر من خمس وعشرين سنة، حيث كنت منذ بداياتي في الكتابة منضويا تحت عباءة "الإسلاميين"، وكنت واحدا من شعراء رابطة أدباء بيت المقدس التي اشتركت في كثير من اجتماعاتها في مدينة نابلس. هذه الرابطة هي المنظم لهذه الأمسية التي سيشترك فيها شعراء آخرون وشاعرة واحدة فقط.

هذه الدعوة آتية من هذه الرابطة التي ساهمتُ أواخر التسعينيات في تأسيسها مع الصديق الشاعر رمضان عمر، والمحاضر في جامعة النجاح آنذاك المرحوم الدكتور جبر خضير، وآخرون بالطبع. هناك تعرفت على شعراء الحركة الإسلامية وكتّابها ومجلاتها وصحفها، وكنت واحدا من هؤلاء الكتّاب، ونشرت في منابرهم الورقية وكان من أهمها صحيفة الرسالة، إذ كانت الصحيفة قد نشرت لي أول النصوص منذ زمن بعيد قبل شيوع البريد الإلكتروني، وأذكر أنني بعثت القصيدة من خلال "الفاكس" بخط اليد، ولم تكن واضحة بما يكفي، فنشروا في الصحيفة في صفحة "الثقافة" ما يشبه الإعلان أن عليّ أن أرسل القصيدة واضحة مرة أخرى، وهكذا كان، ونُشرت في العدد القادم بتعديل طفيف أذهب شيئاً من مضمونها، كان ذلك في أواسط التسعينيات على ما أعتقد.

عليّ الاعتراف يا عزيزتي أن تلك المنابر هي التي صنعتني، وكرّست اسمي كاتباً فلسطينيا، فصحيفة الرسالة التي تصدر من غزة، وكانت توزع في الضفة أيضا إلى أن منعتها السلطة بعد أحداث 2007. واظبت على النشر فيها، وكنت أتابعها أسبوعيا، من خلال الموقع الإلكتروني، وألتقط منشوراتي فيها باستمرار، إلى أن حجبت السلطة أيضا الموقع في الضفة، فلم يعد

باستطاعتي متابعة الصحيفة، ولم أدر هل واظبوا هم على النشر لي أم لا، لكنني لم أمتنع عن إرسال موادي الأدبية ومقالاتي السياسية لهم حتى الآن.

وبالإضافة إلى صحيفة الرسالة كان هناك أيضا في أم الفحم صحيفة "صوت الحق والحرية"، وكنت دائم الحضور فيها، فلم يكد عدد من أعدادها الذي يصدر صبيحة كل جمعة يخلو من مادة لي، وظلت كذلك إلى أن تم شمعها بالشمع الأحمر بقرار من سلطات الاحتلال، كونها تابعة للحركة الإسلامية، الجناح الذي لا يرضي الاحتلال.

لقد رعتني الحركة الإسلامية رعاية حقيقية، واحتضنتني قبل أن أفكّ الارتباط بيني وبينهم، ولهذا الأمر قصة أخرى ربما حدثتك عنها لاحقاً. ما يهمني الآن هو أن أدعوك لحضور الأمسية، على الرغم من أنها ستكون "خارج ذائقتك الأدبية"، فأنا أعرف كيف يكتب شعراء الحركة الإسلامية، بل وكيف يفكرون؟ فقد كنت أقرأ "لنا" كل شيء في حينه. ما سيفاجئك ربما أنني أحتفظ من تلك الحقبة في ذاكرة الكتابة الكثير من القصائد، لها سمات "الشعر الإسلامي" الحديث، شعر الفصائلية الإسلامية، أقصد ما يعرف بأدب "الصحوة الإسلامية". وأنّني سأقرأ من تلك القصائد، وليس من قصائد "حداثتي" الشعرية، سأعود كلاسيكيا أيديولوجياً مباشراً، وأحث على القتال، وسأشهر العديد من السيوف، وسأفجر الكثير من القنابل الكلامية.

إنني بالفعل أحنّ إلى نفسي التي كانت يوماً ما هناك، وأحبني حيث كنت "إسلاميا"، وإنني أكره فوضويتي الحالية، وتأرجحي الفكري بين العدمية والضباب. يا ليتني بقيت هناك! أنا اليوم شاعر بلا جماعة، أبني مواقفي كشخص منفرد معزول ومهمل، أقف وحيدا ليس معي غير ذاتي. أود لو كان معي غيري، أو أنني كنت معهم. شيء داخلي يهجس بي إنني ضائع وعديم الفائدة، فالأدب لم ينقذني من عشوائيتي، وجماعة المثقفين مجموعة شلل متناحرة لا يعوّل عليها، فلا أفضل من أن تكون قوياً مع من ينسجم مع أفكارك. أنا جئت إلى وسط ثقافي هو عفِنٌ في مجمله، وليس له شخصية

واضحة، سيئ في علاقاته، وفي أفكاره، وفي منطلقاته، بل إنه لا يشكل كلا متجانساً، وليس له أرضية فكرية أو فلسفية يقف عليها، تغلب على أفراده النفعية والانتهازية والأنانية والشللية الضارة، ولا يوجد فيه التكتلات المبنية على الفكر أو التنظير الفلسفي أو النقدي كجماعات أدبية معروفة تركت بصمتها التاريخية، كجماعة الديوان أو أبولو أو أي جماعة أدبية عرفت في تاريخ الأدب شرقا وغرباً. لقد خاب ظني كثيرا فيهم، فحجبت نفسي عنهم، وكرهتهم، ولم أعد أنظر إليهم على أنهم "محترمون". لا حاجة لأقول لك إن هناك شواذّ، لا شكّ، ولكنهم مثلي ضائعون، والضائعون لا يفلحون في تشكيل تكتلات، سيكون مُخرجُهم ضائعاً بلا هدف، وسيحارَبون بلا أدنى ريب.

أستميحك كل العذر في أن تسمعي مني هذا الذي سأقوله أيضا كشاهد على واحدة من خيباتي غير المتوقعة. لقد التزمت منذ شهور على أن يكون لي مقال شهري في صحيفة فلسطينية، بحيث تنشر المادة في الصحيفة أولاً، ثم في الموقع الإلكتروني للصحيفة بعد ذلك، وهكذا تمّ الأمر، وكما تعلمين يطلبون أن تكون المادة حصرية، لقد التزمت، وكنت أرسل لإدارة الصحيفة مقالا لم ينشر سابقاً. وهذا النشر مجانيّ أيضاً، ولكن الصحيفة، هكذا ودون حتى أن تعتذر لم ينشروا المقال الأخير لهذا الشهر، وتفاجأت أنهم نشروا لكتّاب آخرين، كانوا غائبين عنها طوال تلك الفترة التي نشرت فيها، لقد عاد شهر العسل بين الصحيفة وهؤلاء الكتاب على ما يبدو، وأنا أصبحت خارج اللعبة، ببساطة، حتى دون أن تكلف الإدارة نفسها عناء الاعتذار.

ربما تقولين: لماذا على الصحيفة الاعتذار؟ نعم عليها الاعتذار؛ لأنها اتفقت معي لتنشر لي، بشكل رتيب في كل عدد. وعندما يحدث مثل هذا دون إعلام وترك تبرير فالمسألة ساعتئذٍ غير أخلاقية بالمطلق. لقد شعرت بالتفاهة حقاً، تافه إذ ركنت إلى هذا الوسط الثقافيّ العفن التافه.

وهذه الخيبة ليست أولى الخيبات، بل خيباتي كثيرة مع اتحاد الكتاب الفئويّ التوجه والعمل، ومع وزارة الثقافة التي لم تقدم لي شيئا منذ أنشئت وحتى الآن، مثلها في ذلك مثل اتحاد كتابنا الفصائلي البائس، فهؤلاء يتجاوزونني بكل ما أوتوا من بلادة وصفاقة وسخافة. عدا العلاقات هنا وهناك مع آحاد "الأدباء" النفعيين الذين لا يعرفونك إلا إذا كانوا يريدون أن تخدمهم مجاناً، و"رجلك فوقك راسك"، بل عليك أن تشكرهم أيضا، لأنهم أعطوك فرصة أن تخدمهم! عدا الخيبات التي أصبحت تعرفينها من دور النشر. فها هو الوسط الثقافي كله يسبح في محيط من التفاهة والعفن.

فيا لها من خيبات بليغة الرسالة، سياسية، وثقافية، وذاتية. فهل تظنين أننا نعاني من نكسة الخامس من حزيران، أو من نكبة الخامس عشر من أيار فقط. بل إن نكساتنا اليومية أشد ألما وأوجع جرحاً. ولن نكون قادرين على تجاوز النكبتين الكبريين إلا إذا أصبحنا غيرنا الآن. لكل ذلك أحب "الإسلاميين"، وأحنّ إلى عهدهم، فهم لم يخيبوا أملي يوماً، بل إنني أنا الذي خيبت أملهم مرات عديدة، على الرغم من أنني "حسنة" من حسناتهم، فلهم كل الفضل في أنني تجاوزت فقري، فتعلمت، وعملت، وتابعت الكتابة.

عزيزتي، وحبيبة عمري، لقد ثرثرت كثيراً، لذا فإنني معتذر، وأرجو أن تسامحيني على أن أخذت منكِ وقتاً طويلا في قراءة هذه الرسالة "الحقودة" "الحاقدة" الطويلة، إنها كانت "أغنية في البال" يا حبيبةُ عني وعن البلد، وكان عليّ أن أغنيها. فسامحيني

لك المجد والألق والحب. منتظراً ما تفيضين به عليّ من لغتك وجمال سحر شهيّ سردك الممتع. فلا تجعليني أنتظر كثيراً، "كأن الريح تحتي". لقد سرني جداً حوارنا أمس وإن كان قصيراً، وهذا الدفق من اللغة الحية المكللة بالحب والشوق والقبل التي أغدقت بها عليّ إلى درجة أنك حركتِ كلّ شيء فيّ؛ كأنك معي، بل كأننا في التحام واضطرام وهيام.

أحبّك حتى تنفد اللغةُ من أبجديتها! فها أنا بالانتظار فلا تجعلي الوقت أطول من قدرتي على الاحتمال.

الأحد: 2021/6/6

قرأت رسالتك التي أرسلتها البارحة... رسالة شمولية أحب كتاباتك خارج التأطير الإسلامي، رغم أنك تشتاق لتلك الفترة... ربما عرفت كتاباتك بعد إصابتك بحالة الفوضى والوحدة والضياع كما تصفها... هذه الفوضى والوحدة هي التي عملت من فراس شاعراً بحسّ آخر. شاعراً استثنائياً، شاعراً يرسم طريقه في عالم جديد.

إ. س

يا ليتكِ كنت معنا
الأحد: 2021/6/6

صباحك السعد ومساؤك الفرح البهيّ، أما بعد:

"وجوه يومئذٍ مسفرة، ضاحكة مستبشرة"، هكذا كنا في الأمسية الشعرية الزومية الليلة الفائتة، كلنا كنا ضاحكين ومبتسمين، حتى تلك الشاعرة المنقبة كنت أرى ابتسامتها هي أيضاً من وراء حجاب. لقد أحزنني أنك لم تحضري الأمسية، ولو من بعيد البعيد، أعرف أن لك مشاغل تجعلك أبعد ما يكون عن مثل هذه الأنشطة، لكنني كنت طماعاً ومشتاقا لحضورك.

كانت ساعة من زمن، ربما زادت قليل دقائق لا أكثر، كان الجميع باسمين مستبشرين، وكيف لا يستبشرون وقد جاءوا محتفلين ومغنين ومنشدين لغزة أبهى قصائدهم؟

ما لفت انتباهي في كل قصائد هذه الليلة أنها كانت قصائد كالوجوه المستبشرة، قصائد فيها الأمل والروح العالية، يكاد يضحك الإيقاع فيها، وتبتسم الصورة والجملة الشعرية، وتركز على الجانب الإنساني من الحرب. صحيح أنها جولة، ولم تنته المعركة، ولكن، كما قيل إنها بداية ويبنى عليها.

لقد خفتَ الصوت العالي، فلم نفجّر قنابل ولم نشهر سيوفاً كما كنت أتوقع، هل تغيّر الشعراء الإسلاميون كما تغيرتُ أنا. ربما، فهم يقرؤون ويتأثرون بلا شك.

كنت أخطط أن أقرأ الكثير من القصائد، كنت أريد أن أعود إلى الوراء لأقرأ قصيدة كتبتها رثاء للشيخ أحمد ياسين، رحمه الله، فالمؤسسون لهم الفضل الأول في كل شيء. وأعددت مع قصيدة "الشيخ ياسين" قصائد متعددة من ديوان "مزاج غزة العاصف"، هذا الديوان الذي كتبته أيام حرب عام 2014.

لقد كتبت في هذه الحرب ثلاثة نصوص، شعرت أنها لا تناسب أمسية شعرية كهذه توقعت أن يكون لهذه الأمسية شكل مختلف وإيقاع ناريّ حربجيّ. فعدت من أجل ذلك إلى قراءة ما كتبته عن تلك الحرب في الديوان، وإذا به كأنه يتحدث عن هذه الحرب، فالحرب هي الحرب، مآسيها وويلاتها هي هي، حتى القاموس اللغوي المستخدم إعلاميا وثقافيا هوَ هو يدور في فلك الحرب ومفرداتها والقتل والدمار والآليات العسكرية بمقابل قاموس فلسطيني عربي إسلامي فيه الثبات والمقاومة والشهادة والشهيد والجريح والبيت المهدوم والطفلة المغتالة والأحلام المهدورة. ناهيك عن مفردات الخطاب السياسي لسياسيين يمارسون البلادة وهم ينظر إلينا ونحن نموت يومياً.

لكل ذلك، يا عزيزتي، قررت أن أقرأ من هذا الديوان وأعددت منه خمس قصائد، ولكنني تفاجأت أن المنظمين قد خصصوا فقط "خمس دقائق" لكل شاعر. يا للإحباط! خمس دقائق، على أي حال وكما قال القرآن الكريم عن سيدنا يوسف "فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم". ماذا سيقول الشاعر في خمس دقائق؟ لم أشأ أن أنسحب ولم أفكر بالانسحاب أصلا، لأن مشاركتي في هذه الأمسية تعني لي الشيء الكثير، فألقيت قصيدة "هل رأيت الله؟" هذه القصيدة التي أحبها جدا. إنها لا تبحث في الحرب بقدر ما تبحث في سؤال الحرب، قبل الحرب وأثناءها وبعدها. هذه هي المرة الثانية التي ألقي هذه القصيدة في أمسية شعرية. وأنا في العادة لا أكرر القصائد، فلا أعود لأي قصيدة ألقيتها في أمسية شعرية لألقيها في أمسية أخرى.

لعلك لم تقرئي الديوان يا عزيزتي، وحتى لا أضعك تحت مغبة الشغف والطلب لقراءتها، فستكون مع هذه الرسالة في آخرها. أرجو أن تعجبك، وأن أقرأ لك رسالة حولها، لكن دون أن تتحولي إلى ناقدة، فأنا أشد ما أكره أن تتحول الحبيبة إلى ناقدة. أحبك متذوقة شعري كما تتذوقين القبل، وتستمتعين بالقراءة كاستمتاعك بممارسة الحب في سرير شهوتنا العارمة.

عزيزتي وغاليتي، أرجو أن يأتي يوم ألقي الشعر بين يديك في أي ظرف كان، سواء ونحن معاً في لقاء ما أو حضورا في أمسية شعرية، فأنا أحب أن ألقي الشعر وأنا أنظر إليك، قارئا ملامح وجهك وابتسامتك التي تعطيني النشوة في الشعر والحب والحياة.

أحبك ملهمة لأشعاري، وقارئة لها. وأحبك أكثر وأنت كل جمهوري الذي يستمع إليّ في نشوة وشهوة وجمال.

أترك لك القصيدة بين يديك، متمنيا أن أطبع قبلة على شفتيك فرحاً بهذا الحب الذي يسعدني.

ف. ح

هلْ رأيتَ اللهِ؟*

هل رأيتَ اللهَ يوماً هل رأيتَ اللهْ؟
هل رأيت اللهَ لمّا أسمعَ الأشجارَ صوتَ الآهْ؟
هل رأيت اللهَ لمّا اللحم مشويُّ الشفاهْ
وتاه عنا في محاجرنا شذاهْ؟
هل رأيت اللهَ لما أشبع الموتى النداءَ
على عطاءِ الطائراتِ
هناك تستجدي الطغاةْ؟
هل رأيتَ اللهَ لما هاجت الريحُ الغضوبةُ
في مداهْ؟
هل رأيت اللهَ فيهم
عندما قتلوا بنا أصلَ الحياةْ؟
هل رأيتَ الله يوماً؟ هل رأيتَ اللهْ؟

لستَ محتاجاً لرأيِ العينِ
وانظر كي ترى ما لا تراهْ
وانظر تراهم في الجبالِ
وفي السهولِ، وفي البقاعِ
وفي الحلوى، وفي السلوى
وفي قُنِّ الدجاجِ، وفي مناشير الجُناة

---

* القصيدة منشورة في ديوان "مزاج غزة العاصف، ص 106-108.

لستَ مُحتاجا لكي تقرأْ...
سطوراً ههنا أو ههناك
فلست محتاجاً لكلّ أسطولٍ سواكْ
ولست محتاجاً لطيرٍ
فَخّ في خيط الشباكْ
لست محتاجاً سوى للبيتِ
يحمي رأسك المصلوب في الأفكارِ
من حمم الهلاكْ
واقرأ مَواتكَ جيّداً قد تاهَ عنك الآنَ
ما قد تاهْ
فهل رأيت اللهَ يوماً
كي تصدق أنه اللهُ الإلهْ؟
كنْ ما تشاءْ...
لكن لا تَفَتَّت في السّفاهْ
فالله قبل الحربِ...
بعد الحربِ...
عند الحربِ موجودٌ
ووحدك لا تراهْ
فغدوت مسحوراً
وتبحث في النجاةِ عن النجاةِ
من الجُناةْ
فلو رأيت الله قبل الحرب

لم تكذب رؤاهْ
ولو رأيت الله عند الحرب
ما عملتْ يداهْ
ولو رأيت الله بعد الحربِ
إذ شعّت ضياه
لكتبتَ إيمان المشاهد واليقينْ
بأنّك قد رأيت اللهَ
في الموتى وفي الغرقى وفي الأطفالِ
وفي جنود الشاحناتِ
وفي عناق الطائراتِ
وفي جنون البارجاتْ
لا تصدّق غير رؤياكَ
ورؤيا ما تراهْ
فهاتيكم هُمُ الموتى
فصدّقْ ما يقولُ اللهْ
وافتح القلب المكسَّر
كي ترى فيه الإلهْ
فإنّك إن لم ترَ اللهَ هُنا
فإنّك لا تراهُ ولن تراهْ
أبداً فإنّك لا تراهْ...

المساحة التاسعة: سؤال التيه المشترك

رسالة واضحة لغزاة ربما سيقرؤون هذه المرة

أنا وأنتَ رجلا امرأة واحدة، فأنا لن أتنازل عنها، وأنت لن تتنازل عنها، إذن سنظل في صراع، فلا أنت ستقتلني فترتاح ولا أنا سأقتلك فأرتاح، وفلسطين ستظل بيني وبينك على حد أعراف سيوفنا تقطر من دمي ودمك، فكيف بنا إذن سنجد طريقا للخلاص، فكر معي بالأمر، فأنت من استبحتها، وتجرأت على حماها، وأنا كنت آمنا مطمئنا آويتك وأطعمتك من جوع، وآمنتك من خوف، عندما جئت فارّاً قبل مئة عام منهم إليّ، فلم أغلق البابَ دونك. تذكّر ذلك، ولا تكن حقوداً جاحداً.

أعرف، كما تعرف، أننا أصبحنا، بعد ذلك، رجلي امرأة واحدة، فإن هي طاوعتني راضية، فقد دست أنت سجادة صلاتها مكرهة، فحوّلتَ قبلتها، ولكنها ما زلت ترنو نحو الغرب مرة، ونحو الجنوب مرة، تنتظر آية الإسراء أن تكون فيصلا بيني وبينك نحن رجلي المرأة الواحدة.

كل ما نحن فيه بسبب الخرافة، فتعالَ نتخلَّ عنها، لعلنا نجد صيغة أكثر عقلانية تحميك مني عندما تغمس أنيابك في شرايين دمي. أظنّ أنه يمكننا فعل ذلك لو أردنا التخلي عن وعود ليس لها من رصيد سوى المزيد من الدم لصالح غيرنا. هل فكرت يوما أننا أنا وأنت طعام سائغ للوحش الكبير، أنت ضحيته وضحيتي، كما أنا ضحيتك وضحيته. قتلونا ببعضنا ليناموا نوما هادئاً مطمئناً. وأفرغت حقدك عليهم فيّ أنا.

لا تجعلني أؤمن بالدم وحده، فقلوبنا وعقولنا عليها أن ترعى الجمال وتراعيه في أرض لها كل مزايا الأرض الطيبة، بل إنها قطعة من الجنة، وماذا علينا لو صغنا معاً نشيدا واحدا لأرض واحدة.

إياك أن تظن أنني أقول لك ذلك، خوفاً، أو جبنا أو تقاعساً عن الرغبة الشديدة في القتال، بل أقول لك ذلك لأنني قويّ، وأكثر مما تتوقع، وقد خبرتَ قوتي وعقيدتي، وصبري واصطباري، ووجوه عبقريتي، واحتمالي. إنما

عليك أن ترى أرض الله لكل عباد الله! فماذا عليك وعليّ لو أنشدنا سوية هذا النشيد:

نماهـــــا الشـــــوق أرضـــا للمعـــــالي
وذُبْنـــــا في الســـــهول وفي الجبـــــالِ
فكانـــــت روحنـــــا وريــــاح غيـــــث
يصـــبّ رحيقهـــا شـــهد الـــدوالي
فـــــفي وديانهــــا أزهــــار نــــورٍ
وفي هضـــــباتها حلـــــو اختيـــــالِ
وإن شـــــامخت شـــــامخها فإنّـــــا
رجوناهـــــا البهيّـــــة في الكمـــــالِ
فلســـــطين، الحبيبـــــة، فاســـــتعدي
تلونـــــا الـــــذكر في آي الجـــــلالِ

أعرف أنك ستقرأ أفكاري يوماً ما، بل لعلك قرأتها عند غيري كثيراً، وأعرف أنكَ ستراني نقيضك الذي لا يرجو لك إلا ما ترجوه لي، إن خيرا فخير، وإن شرّا فشر، فأنا قد قلت كلمتي؛ وكل أفكاري واضحة تماماً دون مراوغة أو تزويق، ولعلك سترى أن هذه الأفكار رجعُ دفاعي المستميت عن وجودي الذي لا تفتأ تمحوه أو تحاول أن تمحوه. فإن لم تسمع قولي ونصيحتي، فاستعن بإلهاك الذي أعطاك حق إفنائي، واستحضر خرافتك، واقرأني على هديٍ من جنون العظمة، وعمى القلب والبصيرة وقاتلني بكل ما أوتيت من عنف وحقد وتاريخ ودين وأسفار، وساعتئذ لن يكون بيننا إلا خيار واحد، لا شيء غيره، إنها المواجهة التي تطحنني وتطحنك، وتميتنا سوية لندفن في الأرض ذاتها، وليصبح لحمنا وعظمنا جزءا من ترابها، ولتتغذى عليه أشجار الحقول، ونصبح أنا وأنت ثمراً مرَّ الطعم للأجيال القادمة. عليك أن ترى جيداً أي مستقبل مرعب تصنعه لأطفالنا.

فأيّ فكرة سوداء تلعب بعقلك لتراني أقلّ منك، حظاً، وأهمية، وجدارة بهذه الأرض؟ أرجو أن تتواضع قليلا لترى أن ظلي مساو لظلك عند الظهيرة، كما هو ظلكّ تماما مساوٍ لقامتك المستندة إلى حلم تنفس من عمق أسطورة قادتك لمصير عبثيّ معي.

لستُ مجنونا لأخاطبك قبل أن تدخل عقلي وتقرأني، لكنها محاولة مني أن تفكر جيدا كيف يمكن أن تُحلّ هذه المعضلة التي تزداد تعقيدا مع مرور الوقت، فليس لي أنا إلا هذه الأرض، وأظن أنك قد اخترتها أيضا مصيراً لك، فلا تجعل هذا المصير أسودَ تتساقط على حوافّه أرواح تشتاق أن تعيش بحريّة كاملة.

تذكّر أنني أحاول أن أخالف قناعاتي حتى لا نموت معاً ضمن هذا الدوامة التي تجبرني على أن أعيش بها، وترغم نفسك على تصديق أنك قادر وحدك على السيطرة عليها والتحكم بدورانها. كم أنت واهم لو أن قناعتك قادتك إلى شيء من هذا الهباء السرابيّ المستحيل.

العلاقة ليست معقدة بشكل كامل

الفلسطينيون و(الإسرائيليون) إما أحدهما ذكيّ جدا والآخر غبي جدا إلى حد الملل، وإما أن كليهما غبي إلى حد الهوس بتسلق جدران وهمية مشيدة بالماء فقط، وإما أن كليهما شبحيّ جدا إلى حد الدخول في علاقة ليست عدائية بالمطلق، وليست أخوية بشكل يليق بجارين متحاربين (صديقين) منذ ستة عقود أو سبعة، وداخلين إلى العقد الثامن بكل ما أوتيا من طاقة حيوية، ويبدو أنهم متفقون على الحرب إلى أجل غير مسمى.

الفلسطينيون و(الإسرائيليون) ليسوا جهتين قويتين إلى درجة الصراع الدموي العابر للتاريخ على أنقاض الجغرافيا، فيعبرون اللغة بمجاز الدم، وليسوا جهتين ضعيفتين إلى حد إدراك المعنى السطحي لكلمة (السلام) الجافّة في بداية خطابات الزعماء غير المثيرة للتصفيق الحارّ.

الفلسطينيون و(الإسرائيليون) ليسوا كائنات منتظمة في التفكير العقلاني المبدع بحيث يرتاحون من اشتقاق الزهرة من أصل لغويٍّ ساميٍّ كانت تدّعي الصحراء أنهم شركاء فيه، فكأنهم لم يدركوا حتى اللحظة، إلا بشكل مغلوط تماماً، أن اللغة القديمة قد تعمدت في أنهار أخرى ذات مصبّات ملونة بعيدة عن ساحل البحر الأحمر.

الفلسطينيون و(الإسرائيليون) على ما يبدو أنهم ليسوا ثنائية بشرية ذات علاقة معقدة سرية وعلنية، وعلى ما يبدو أيضا أنهم ليس (نحن وهم)، إنهم (هم وهم) و(نحن ونحن) ضمن هذا الجوّ العاصف من الحجارة الملقاة في طريق السياسة الدولية المعاصرة، بحيث لم يستطع أحدهما أو كلاهما الوصول إلى مكان عمله دون حاجة للتفكير بالعالم الآخر، حيث الملائكة المقربون أو الشياطين المتربصون لكليهما، دون أن تنحاز الجحيم إلى أحدهما أو ضده.

الفلسطينيون و(الإسرائيليون) هم هذا الذي نحن فيه من الإرهاق الممتع من لعبة طال انتظار نهايتها. كم يشبهون (تشارلي شابلن) و(توم وجيري).

كائنات مُسخَّرَة لخدمة متعة العالم (المتحضر)، الجالس أمام الشاشات يرى ويسمع أصواتاً دون أفكار واضحة، لا يستطيع تفسيرها علماء الأنثروبولوجيا الحياديون، إذ إنهم لم يدركوا حتى تاريخه في أي جهة من الدماغ البشري تتم عملية إنتاج الأفكار، وبناء على أي ثقافة يتم التخاطب بين قوميتين متصالحتين على التوجس الدائم.

الفلسطينيون و(الإسرائيليون) هؤلاء هم من يحرّك الدوامة دون أن يفهم المغزى البعيد من معنى العبث القدري الطويل الذي لا ينتهي عند حد.

تجار أحلام في تجّار دم

صحفية في واحدة من محطات الاحتلال واستديوهاتها المفتوحة على النقاش العام لما يجري في غزة من حرب، تبدو وهي تحلي صدرها الممتد الأملس بسلسال يحمل حلية تجسم خريطة فلسطين التاريخية من بحرها إلى نهرها، من شمالها إلى جنوبها، قطعة واحدة متصلة، كتلك الخريطة التي تعلقها النساء الفلسطينيات على صدورهن أيضا أو ربما اتخذن من الخريطة شكلا لبعض الأقراط.

هذه الخريطة المعلقة على صدر الصحفية التي تشبه أحياناً، ولا تشبه أحيانا أخرى الوسام المعلق على صدر الميليشيا، تقول الحلم الصهيوني الذي خرج من أدراج السياسة إلى العلن، فلسطين التاريخية وحدة واحدة، لا وجود لأي كيان سياسي فيها لغير المحتلين، يعيدون احتلالها لإعادة توحيدها، وصبغها بالصبغة التوراتية الصهيونية السياسية الاستعمارية.

هذه الخريطة التي اغتصبها صدر الفتاة الصهيونية هي نفسها الخريطة التي عرضها ملك صهيون الجديد في الأمم المتحدة، فلا مكان لغير المحتلين، هذه الخريطة الحلم، والهدف، وها هم يريقون أنهار الدم من أجل تحقيقها، في غزة، وفي كل مناطق الضفة الغربية.

لا أظن أنها هي الوحيدة التي تعلق الخريطة الحلم، بل كثيرات مثلها يعلقنها على صدورهن، ما يعني أن هؤلاء قد تربوا في الغرف المغلقة وفي المدارس وفي الجامعات وفي الكنس وفي المحاضرات وفي الإعلام المرئي والمقروء والمسموع على أن "فلسطين التاريخية هي أرضنا، ويجب أن تعود إلينا". هكذا حلموا منذ الكتابات الأولى لأدباء الصهيونية، وحتى آخر عمل فني أطلقته إحدى المغنيات. وأكده الأطفال في أغنيتهم التي تنضح بكل مفردات الموت والعنف تجاه الفلسطينيين.

هذه الخريطة المعلقة على صدر الصحفية تجسد عقيدتها الحياتية والقتالية، وأغلب الظن أنها قد خدمت في الجيش فهي إذاً ضمن العقيدة

القتالية التوراتية التي تحرك تلك العصابة، حيث لا تعرف إلا القتل والتدمير بسياسة الأرض المحروقة، وجعل غزة مثالا يلوح به زعيم تلك العصابة، ليجعل من بيروت شبيها بغزة. إنهم يصنعون الرموز التي بها يقاتلون.

هذه الخريطة بهذه الوضعية تؤشر على تاريخ طويل من الدجل الصهيوني الذي أوهمنا بالدخول في عملية سلام، ليعطينا شيئا ما، ربع فلسطين، بل أقل، بحكم ذاتي وكيان سياسي منزوع السلاح والصلاحيات. لم يكن ذلك في الحقيقة أكثر من مراوغة، لكنهم قد عدلوا عنها، فدمروا كل الاتفاقيات، وأعادونا إلى المربع الأول، بل قبله بدرجتين. أعادونا إلى واقع النكبة والتهجير مرة أخرى، والقتل بسبب أن الضحية فلسطينية وربما كانت تتخذ من الخريطة حلما أيضاً، حلم معلق على الصدر أو في شحمة الأذن.

هذه الخريطة تجسد الحلم الصهيوني المعبّر عنه في المنهاج الدراسية للاحتلال. هذه المنهاج التي لم تمسّ إطلاقاً، ولم تتغير بفعل عملية السلام، لكنها تغيرت عندنا في فلسطين وفي الدول التي دخلت مع المحتلين في علاقة سياسية، وفي دول التطبيع العربي، أزالوا من تلك المنهاج كل ما قد يزعج المحتلين ويقلق أحلامهم النائمة على صدور فتياتهم. لقد بقيت تلك المناهج قائمة على الدعوة نفسها المختزنة في هذه الخريطة، لكنهم يسعون بكل ما أوتوا من كبرياء وعنجهية أن يزيلوا تلك الخريطة، فيبعدوها عن التداول اليومي الشعبي وعن التداول الفكري المنهجي، كما يسعون إلى إزالتها من القاعدة التربوية، ومن ثّمّ غسل دماغ الشعب منها، كي لا تظل مرسومة هناك.

لعلهم لم يعرفوا بعد أن فلسطين ليست خريطة، وليست جغرافيا، وليست تاريخا وحسب، بل إن فلسطين عندنا هي العقدة والعقيدة والأرض التي نبت فيها شهداؤنا شجراً، وتخضب ترابها بالدماء منذ أول احتلال وطئت قدماه هذه البلاد، وحتى هذا الاحتلال الذي سيكون مصيره الزوال كما زالوا، وتبقى

فلسطين التاريخية وساما معلقا على صدورنا نحن الفلسطينيين ولو خضنا من أجلها أكثر معارك التاريخ دموية ودماراً.

لستُ وحدي من يفكّر بالحرب

تشغل الحربُ تفكيري كثيراً، في أوقات الهدوء، وفي أوقات الاشتباك، ودائماً يذكّرني الاحتلال بالحرب. ولا أرى له من زوال إلا بحرب طاحنة. هذا لا يقلل من حالة الاشتباك اليومي التي نقوم بها في كل مكان- عدا غزة- في مدن الضفة الغربية، وفي المخيمات، وعلى الطرقات، تلك المناوشات التي تقلق راحة الكيان الغاصب، وتجبر جنوده على إدامة التصويب على رؤوسنا، ومكوثه متصلبا على هيأة واحدة على الحاجز وهو يَعُدّنا في ذهابنا وإيابنا. إنه لا يرهقنا فقط، بل إنه يرهق نفسه ويذلّها؛ لأنه يجبرنا على أن نفكر مثله بالحرب، ولا شيء غير الحرب، ونجبره على أن يظلّ متوجساً لا يعرف الراحة ولا الهدوء ولا الاطمئنان. معادلة يبدو فيها شيء من العدالة. أليس كذلك؟ هذه المعادلة على بساطتها يجب أن تدفع "أحدهم" أن يفهم هذا السياق عند قراءته، فهو يعيشه يوميّاً، فلماذا لا يحسنون القراءة؟

أثبت الواقع والتاريخ أن الغزاة لا يقرؤون، وإن قرؤوا لا يحسنون التقاط الرسائل، هكذا قالها لهم بصريح العبارة الشاعر سميح القاسم أيام الانتفاضة الكبرى، انتفاضة الحجارة (1987-1993) في قصيدته المناضلة الشرسة المعنونة بـ "قصيدة الانتفاضة- رسالة إلى غزاة لا يقرؤون". ليس الاحتلال الصهيوني وحده الذي لا يقرأ ولا يحسن الفهم، بل إنها ميزة كل طغاة الأرض، سواء أكانوا محتلين أو محليين. هذه الحالة تدفعنا إلى النقطة المركزية التي يتمحور حولها العقل، ألا وهي التفكير الجدّي بالحرب.

إذاً، لستُ وحدي من يفكر بالحرب، كل فلسطيني يفكر بالحرب، سواء إن فكر فيها ليتجنبها أو فكّر فيها ليدخلها، أو فكر فيها ليقرأ عنها أو ليكتبها أو يرسمها أو يعبّر عنها اجتماعيا؛ على أقل تقدير عندما يسمّي أحدنا ابنه باسم بطل من أبطالنا الأشاوس الذين دخلوا في حالة اشتباك مع العدو، فأصبح شهيدا أو أسيرا أو مطلوباً، فبدلا من يحيى ورعد وعماد واحد نبت ألف مقاتلٍ

يحملون الأسماء ذاتها، وعلى ذلك فليقس من هو معنيّ بهذه الحركة الثقافية الاجتماعية في المجتمع الفلسطيني، فهي إشارات تحمل الكثير من المعنى.

نحن شعب محتل، وليس لنا مندوحة إلا أن نفكر بالحرب لنتحرر، لأن الآخر معتدٍ، وليس معنياً إلا بقتلنا وتهجيرنا، وإخراجنا من السياق التاريخي والحضاري المعاصر، وكل يوم يشهر سلاحه في وجوهنا، في ذهابنا وإيابنا، ولا يحتاج مبررا لأن يكرر لعبته في اقتناصنا متى شعر أن مزاجه يحتاج إلى مزيد من الدم ليتحسن.

محتل لا نراه فقط على الطرقات، ونحن ذاهبون إلى أعمالنا، بل نراه في شوارع القرى والمخيمات والمدن، ويسكن معنا في بيوتنا، وفي بطاقاتنا الشخصية التي لا تصدر إلا بموافقته. إنه يراقبنا حتى ونحن ننجب أطفالنا ونسميهم بأحسن الأسماء، إنه هو وحده صاحب الصلاحية ليعطينا رقم البطاقة الشخصية التي تولد مع كل طفل، كل طفل ورقمه. إن هذا الاحتلال يقيم معنا في رؤوسنا لذلك نُديم التفكير به.

أظن أنّ هذه هي الحالة الطبيعية؛ التفكير بالمحتل، والتفكير بالخلاص منه، وبالتالي التفكير بالحرب، هذه الحرب التي شهدنا منها جولات متعددة، وبأشكال مختلفة، لكنّها كلها لها هدف واحد هو التحرر والانعتاق، لأنه لا بد من أن نكون أحراراً في وطننا المعروف باسم فلسطين، ولا اسم له غير فلسطين من بحرها إلى نهرها.

لا أحد يحبّ الحرب، ولا نحن نحبها، فهي دائما مكروهة، ولكن: "إن لم يكن إلا الأسنةُ مركباً... فما حيلة المضطر إلا ركوبها" عندما لا ينفع إلا أن نخوض المعارك علينا أن نخوضها بثقة وقناعة وتصميم المنتصر، بل وأن نفتعل شرارة حرائقها كلما خبتت نارها، لأنها فرضت علينا عندما وضعنا الاحتلال في مواجهتها حصرا وقصراً، بتواطؤ دولي قانوني ظالم، سرقوا وطننا، وشردونا،

وأحلّوا محلنا "لاجئي أوروبا" من شذاذ الأفّاق، وصنعوا لهم وطنا على حسابنا.

يا لهم من مجرمين، فكيف لا نحاربهم؟ وهم زيادة على السرقة، ينهشون لحمنا ولحم أطفالنا يوميا، فرضوا علينا الحرب فدخلناها، رغماً عن مآسيها التي بالفعل نعرفها جيدا أكثر من أعدائنا المتبجحين بالقوة وامتلاك العتاد، ويهددون دوما بسحقنا، وإرجاعنا إلى العصور الحجرية، فآلته الهمجية وحشية ولا تعرف إلا الظلام والتدمير والإبادة. إننا نعرف الحرب الذي خبرها أجدادنا:

وَمـــا الحَـــربُ إِلّا مـــا عَلِمـــتُم وَذُقـــتُمُ
وَمـــا هُـــوَ عَنهـــا بِالحَـــديثِ المُـــرَجَّمِ
مَـــتى تَبعَثوهـــا تَبعَثوهـــا ذَميمَـــةً
وَتَضـــرَ إِذا ضَرَّيتُموهـــا فَتَضـــرَمِ
فَتَعـــرُكُّمُ عَـــركَ الـــرَحى بِثِفالِهـــا
وَتَلقَـــح كِشـــافاً ثُـــمَّ تَحمِـــل فَتُتـــئِمِ
فَتُنـــتَج لَكُـــم غِلمـــانَ أَشـــأَمَ كُلُّهُـــم
كَـــأَحمَرِ عـــادٍ ثُـــمَّ تُرضِـــع فَـــتَفطِمِ

إننا نعرف عن الحرب أكثر مما يعرف زهير بن أبي سُلمى، وأبو الطيب المتنبي، وأبو تمام، فنحن جيل لم يعرف إلا الاحتلال والحروب، أنا مثلا ولدت في سياق الاحتلال، وأبي وأمي كذلك، وأبنائي كلهم، ولدوا في سياق من الحرب والاحتلال والقهر والتسلط والجبروت، فلا يحق لأحد أن يجبرني على التغني بالسلام، وأنا من ولد في قعر جحيم الذل والهوان، فلا بد لي من أن أكون مع الحرب، قلبا وقالبا. لست أنا وحدي في ذلك بل كل فلسطيني اليوم، قل أكثر من 90 بالمائة من الشعب هو مولود في ظل النكبة- الحرب الكبرى الأولى، ثم أبناؤهم، ومن بعدُ أحفادهم المولودون في ظل الحرب والاحتلال. فكيف إذاً لا نفكر بالحرب، ولا نخوض جبهاتها المتعددة، ونكون جنودها. إن من

يرفض ذلك لن يكون ذا كرامة إنسانية مطلقاً، لأنه لا تتحقق كرامتنا الشخصية والإنسانية والوطنية إلا بالخلاص من المحتل، والمحتل لا يرحل بالحسنى، لا بد له من حرب تخرجه رغما عنه. لذلك سنظل نفكر بالحرب أنا وأولادي ومعنا كل الشعب في طول هذه البلاد وعرضها.

في هذه المساحة الشخصية بعضٌ مما أفكر فيه، التفكير بالحرب، وبالمحتل، وبما أنتجه، وبما يقوله، وبما يفرضه علينا من إجراءات، وما يشنه علينا من حروب، وما يحاول أن يسوقه من حلول واستسلام، وركون إلى حالة من الهدوء المجاني المفضي إلى الموت السياسي، هو ومعاونوه من الأنظمة العربية، والسلطة الفلسطينية، والمجتمع الدولي برمته. إن هؤلاء كلهم مجرمون وهم في كفة واحدة ضدنا، نحن الشعب الفلسطيني الرازح تحت الاحتلال والمهجّر في الشتات لأكثر من خمسة وسبعين عاماً.

علينا أن نختصر الطريق بالحرب، وبالحرب فقط، إن أردنا أن نكون أحرارا نعيش في وطن حرّ!

المساحة الأخيرة: حيرة العاقل في الحياة الزائفة

أسئلة لا تعرف النوم

هل خرجتَ من الإحساسات والمشاعر الفادحة إلى التسليم بالهزيمة؟

سؤال مفتوح على مطلق الحالة النفسية التي يعاني منها كل شخص تعرض للقهر النفسي والسيطرة والتحكم، ومنع من ممارسة حقه الطبيعي الذي منحته إياه قوانين الحياة، لترى أن الخروج عن هذا النسق القانوني هو مخالفة فادحة لذلك القانون الاجتماعي الطبيعي، وتجد ذلك في العلاقات السياسية والاجتماعية، كما تجده في علاقتك مع ذاتك وإحساساتك الداخلية.

هل التسليم بالهزيمة شعور فادح؟

لعل من أكثر المشاعر إيلاما للنفس البشرية هو التسليم بالهزيمة في أي مجال من المجالات، ولذلك ترى أن الكبار في همتهم يرفضون رفضا قاطعا التسليم بالهزيمة، سواء أكانت نفسية معنوية أم مادية، لأن التسليم بالهزيمة معناه الموت والخسران، وهذا شعور قاتل بحد ذاته.

فكيف يكون التوازن إذن؟

لقد برع الإنسان، هذا المخلوق العبقري على الرغم من ضعفه الواضح في اختراق كل حواجز الضعف والتلاشي والعدمية، من خلال اختراع التعويض النفسي الذي تمنحه إياه أفكاره ومشاعره الزائفة، ليعيش أوهاما جديدة، يريد أن يقنع نفسه أنه يعيش إحساسا حقيقيا، فيداري في كهف مكنوناته أسرارا كانت تشكل أجمل تجليات اليقين، ليحل محلها ترددات قصيرة ومتوسطة بذبذبات مؤلمة، تتسرب من خلالها تلك المشاعر المدفونة في عمق الروح، فيحدث صراع بين الحقيقي والزائف، ومن خلال ذلك الصراع تبحثُ عن التوازن، لتجد أن التوازن تحول إلى طيف من الحقيقة وأشلاء من الزيف.

فهل يكفي ذلك لشعورك الشخصي بأنك أصبحتَ إنسانا متوازناً؟

الإنسان بطبيعته وبتركيبته المعجونة بالفكر والروح، يبحث دائما عما يريحه، ويزيل أوجاعه الوجودية، ويسعى في حياته من أجل هذا الهدف، حتى تعلقه بالمصير الأخروي هو نوع من إراحة النفس، وإعطائها أملا للتعويض عما فقدته في هذه الدنيا الفانية، هكذا هو شعور من تعلق بالعالم الآخر، تخلصا أو هروبا من واقع سقيم تافه، تحيط به العدمية من كل حدب وصوب، فليس بمقدور أحد عاقل أن يظل كالريشة في مهب الريح تتقاذفه أقداره، وتلعب بمصيره أفعال الآخرين العبثية، وليس بمطمح إنسان عاقل أن يعذب نفسه عذابا طويل الأمد يشقي روحه ويشقي الآخرين، فلا بد له من صيغة تصالحية مع هذا المحيط الفارغ من المنطق، وليكن بالتعلق بالوهم، ولكن...

هل يستطيع الإنسان التخلي عن ماضيه؟

تتشكل حياة الإنسان من مجموعة تجارب حلوة أو مرة، وتلكم التجارب هي العامل الاجتماعي والتاريخي المؤهل بكل جدارة أن تبني شخصا بخبرات متعددة بوجهات نظر مغايرة، تختلف يوما بعد يوما، فتتوسع الخبرات وتتعدد وجهات النظر، وتتعقد التفسيرات، فتلجأ إلى التأويل، وليكن التفسير شاعريا إنشائيا فلسفيا، مقنعا بشكل زائف أن الماضي مضى وانتهى ولم يبق منه غير ظلال باهته، ولم يدر في خلدك أن الماضي يتحول رغما عنك إلى إشعاع خفي تسري رعدته في كل جنبات نفسك وتسكن دماءك كالروح تماما، وتحتل موقعها الأثير في كل ما حولك، فترى انعكاسات ذلك الماضي في دقات ساعتك الشخصية، فتتذكر ما شاء لك أن تتذكر كلما مرت عيناك لتبحث عن فسحة وقت لعلها لم تضع بعدُ وأنه بالإمكان أن يظل النور حاضرا وساكبا أشعته في نبض وجدانك وفيض تمددات الوقت المذبوح في تلك الساعة التي لا تفتأ تذكرك بأنك ما زلت تتذكر وما زال الألم والذكرى حاضرة.

يحاصرك ذلك الماضي فتراه شبحا مخيفا في العلاقات الاجتماعية اليومية، وفي ممارساتك الحياتية في طعامك وشرابك وأنة جهازك المصلوب على أمل

التصدي لانقطاع نبض الأمل، يحاصرك في صرير القلم، وضغط الأصابع على حروف ذلك الجهاز الميت، فلا تجرأ أن تكتب جملة، لأن كل الكلام فادح في إشعاع الذكرى واستحضار الماضي، تبتعد عن اللغة، فتهجم عليك المعاني، تبتعد عن الحروف، فتهجم عليك الطيوف، تهرب من نفسك فيحاربك الموت ويجرك نحو هاوية بلا نهاية، فتظل تهوي بك إلى أبعد وأبعدَ، لتؤول متأرجحا بلا قرار، ولا شيء يعزيك غير الوقت المسكون في إحساسك بأهمية أن تفتح جرحك ليظل أخضر، ولترش عليه ما شئت من أملاح الماضي الحاضر بكل قوته ليستولي على الحاضر بكل ضعفه، لتكون المعادلة القاسية: الماضي هو حاضرك، ولا حاضر أو مستقبل بغير حضوره.

وبعد، هل تطلبُ تعاطفا من أحد؟

من يطلب العطف هو من كان ضعيفا ومستكينا ومنكسرا ومتلاشيا، فهل أنت كذلك؟ إن من يستطيع أن يفتح جرحه الناغر، ويحرص على أن يظل مشعا جميلا على الرغم من الألم، هو شخص عبقري في فلسفته في مغازلة جراحه، ومن كان فيلسوفا، ليس بضعيف ألبتة، بل هو بلا شك أقوى من كل الأقوياء، ويقترب من إحساس الطغاة بدكتاتورية المنتصر المنتشي بنصره على كل أعداء أرادوا له الموت المجاني، وعليه فإنك لا تطلب ولن تطلب ولم تطلب تعاطفا من أحد، فمن يستطيع الكتابة في بؤرة الألم هو الأقوى دائما وأصلب ممن يلوذ بصمت قاتل، يؤرجح الروح في مسافات غامضة، ودروب قاحلة بلا إشارات أو محطات ترده إلى الصواب.

هل كنّا يوما نحلم بالعبث؟
هواجس في اليوم العالميّ لحقوق الإنسان (2016/12/10)

لا أحدٌ يشكّ في أنّ العالم يعاني من أزمات حقيقيّة فكريّة وسياسيّة واقتصاديّة وإنسانيّة، حتّى لكأنّه قد دخل نفقا مظلما مليئا بالنّواهش والقوارض الّتي تُهَشِّم العقل والرّوح وتُنْحِل الأجساد، فينبت على أطرافها الوجع الوجوديّ القاسي لمن أراد أن يتدبّر أمر هذا الكون السّاعي بجنون نحو الجنون.

إنَّنا نعيش في "هيكليّة التّفاهة" بكلّ ما في هذا المصطلح من واقعيّة فكريّة، وليس لغويّة مجازيّة فقط، تفاهة في الأهداف، وتفاهة في الممارسة، وتفاهة في الاندماج في هذه الهيكليّة العبثيّة، لا نحسن فهم الذّات، ولا نسمع أصواتنا الدّاخلية، قمعنا أنفسنا بأنفسنا، وقزّمنا العالم فينا، فلم نعد نرى إلّا ما يراه الآخرون المتحكمون بنا.

لقد أصبحنا مستعبدين، الوظيفة تستعبدنا، والواجبات الاجتماعيّة تأسرنا، وتفاصيل الحياة اليوميّة تكبّلنا، لا نعيش أفكارنا كما نحبّ أن نعيش، وتخلّيْنا عن أحلامنا، ننظر بعين الرّيبة إلى كلّ فعل نفعله، وإلى كلّ قول نهمّ أن نقوله، حاسبنا أنفسنا فتلاشت كينوناتنا الضّعيفة الهزيلة لنغدو أشباحا تجرّ أذيال الهزيمة، وتسحب خلفها أرتالاً من أثقال الواقع فنصطدم بالحواجز الخارجيّة والدّاخليّة، فارتطمنا، وكُبّت وجوهنا في الوحل، ونقول إنّنا نمارس حرّيّتنا.

أين هي هذه الحرّيّة أيّها العالمُ الحرّ؟ إنّها محض خيال غير متصوَّر إلّا في أحلامٍ، هي الأخرى غدت بعيدة المنال، الرّجال قبل النّساء، والأقوياء قبل الضُّعفاء، والكبار قبل الصِّغار، والأثرياء قبل الفقراء، والحكّام قبل المحكومين، كلنا مكبّلون بوهم أنّنا أحرار في زمن تخيّلناه أنّه زمن الحرّيّة والانعتاق من السُّجون والرّقّ، فإذا بنا مسجونون في دهاليز سجون، ليس لها فضاء، وليس لعتمتها انتهاء، فكم من سجينِ فكرٍ ورأيٍ في سجون الطّغاة،

وكم من شاعرٍ وأديبٍ حوكم وأقصي وعوقب بسبب إبداع تخلّق بين يديه، وكم من سياسيّ اغْتيل ونُهِش لحمه وتفتكّت عظامه بسبب رؤاه السّياسيّة المغايرة للإله الوثنيّ الحاكم، والكلّ يسمع ويشاهد، وينصت، ويتابع الفوضى كلّها دون أيّ اعتراض وامتعاض، وكأنّه يتابع أحداث فلمٍ تشدّه روعة ما فيه من إخراج الخلل على أحسن صورة.

هل كان على البشرية أن تصبح هكذا خواء وعدماً، وتعيش أقصى وأقسى درجات الانحطاط والتّشيُّؤ والعبث؟ ألم يكن بمقدور مفكريها أن ينقذوها ممّا هي فيه، أم أنّه لا أحد يستطيع أيّ فعل، وقد فقد كلّ حيّ في هذا العالم صوته ويديه، وتلطخت صورته، وفقد بصره وبصيرته؟ بل كيف صار الجميع ساعيا إلى حتفه بخطواته الثّكلى، ليكون عيشه في هذا العالم ورحيله عنه سواء بسواء؟

كم هي موجعة هذه الأسئلة؛ لأننا نعرف الإجابة، ولكننا لم نعد بشرا قادرين على أن نكون كما ينبغي أن نكون، فقد اكتفينا بصنع التّماثيل الحجريّة، ونسينا أن ننفخ فيها الرّوح لتصبح خلقاً سَوِيّاً.

آهٍ، منك أيّتها اللغة

لست أرغب في أن ترتكز لغتي على خواء المجاز و الاستعارة البلهاء، ولست ساعيا إلى شيء من هذا، وقد لا يكون الأمر متيسرا أن تكتب شيئا وتفهمه، أو تُفهمه للآخرين؛ لذا فان هذه الآه تحمل كثيرا مني، ومن لغتي البسيطة حتى تكاد تكون ساذجة.

تدور في مخيلتي أشياء كثيرة، وتتصارع صور متعددة، وتحتل ذاكرتي أسوأ الصور وأشدها إيلاما، تلك هي التي جعلتني أتمحور (لغة) حول اللغة وآهاتها، لأنني إنسان لم يفهمه أحد (فقد أصبحت ناشزا ونشازا) هكذا قيل ولذا لجأت إلى اللغة أبثها ما فيّ من لاعج وألم ليس إلا.

منذ فترة ليست بالبعيدة وأنا ترن في مسامعي كلمات (صاحب) وكنت مشتاقا إلى حد الهوس أن أصارحه بما يتعلق على أذيال لغتي من معانٍ فتخرج الكلمات خجولة لتقول له ما كان مختبئا في دفتر ذاكرتي من وَهْمٍ لعله كذلك. يسمى حبا فتأتي كلماته كصاعقة تجعلني أرتدّ إلى الأعماق وأطلق تنهيدة لم تتحمل زفراتها سوى اللغة، فكم صبرت عليّ وحنّت، وكم سامحتني إنها لغتي عاشقتي مسامرتي الأبدية.

تلك محطة وهناك محطات.

أظن أن من يعيش في زمن ومجتمع تسيطر عليهما قيم المادة الزائفة وانعدام رائحة المعاني الجميلة فإن الألسن ستنطلق بالتعليقات والسخرية مما يجعلك تنزوي وتبتعد إن كنت مسالما لا تريد أن تكون كعنترة، وإما أن تواجه المأساة وتصرّ على أن تمارس شهوة الحياة إلى نهاية الشوط، ولكن لا بد من إرادة وقوة وعندها ستحصل على شهادة الإنسانية من معهد الحياة. وتجيب على أسئلة امتحاناتها التي تبدو طلاسم لا يسهل حلها إلا على من عشق المحال وأظن نفسي أنني من هؤلاء قاومت وصمدت، وتسلحت بشيء من

سلاح اللغة، وأخذت أكتب وأكتب حتى أصبحت لغتي هي المحامي والأنيس وإنها لكذلك.

تراني نثرت كل ما في جعبتي من سهام اللغة أم ما زالت سؤرة منها؟ أأترك اللغة/ الرسالة/ القصيدة تنثرها عني؟

آه يا لغتي احمليني

وضعي فؤادي جانباً

وتساوقي من دمّي المنثور فيكِ

واستعدي كي تقولي للخطايا

الماثلات بشهقتي

إني عجوز، فيك أهدرت التباريح

وفيك خانتني اللغات جميعها

ما كنت أعرف أولاً

ما لست أعرف ثانياً

من كنت أعرف عاتباً يوماً

من كنت أجهل حانقاً دوماً

من لغات الشعر والنثر الإلهي المصفى

سرق الألق

سرق المجازات الجميلة

فسرقت روحي من بين أنقاض الحروب

فتشكلت شمساً لينثرها الظلام

على الظلام فتصبح في بحور الشك تحبو

لينطفئ الليل على نجوم

قد تهاوت واستراحت

وغامت في سكراتها

وأسلمت الجفون لذي أرق

وعادت للسماء...

هذه هي لغتي من حملتني، ولست أحملها، أتعبتها ولم تتعبني، عز عليها أن تراني وحيدا في خضم هذا النسيج المحكم. تأتيني زائرة لغتي تصلي علي وتخبرني: من كنت أهواها– قديماً– قد أصبحت في أعمق الأعماق تهوي. أريد الخلاص منها، من الآخرين، من نفسي. تتقدم اللغة القربان حاملة همي وتلقي بالأعباء على كاهليها وتمضي في الحوار:

- اتركني أحمل عنك ماضيك الملطخ بالجنون.

= وكيف ذاك؟

- لأنك لا ترتاح من شيء تحمل همه وحدك. جرّبْ ترَ

= وماذا سيقول الآخرون عني وعنك وعنها؟

- وماذا ستقول أنت؟

= إن قلت أشيائي استخفَّ بيَ الأنام.

- أنا سأردّهم حيرى بأرتال العبارات المراوغة الذكية. سأكون سيفك

= أتُراكِ أنت أيتها اللغة لك كل هذا الفعل؟

وأنتم أيها السادة أتراكم ترون أن اللغة لها هذا السحر، وهذا الحب، وهذا الاندفاع، أم تراها تتخلى عن أنامل كاتبها كما تخلى عنه الجميع أو كادوا؟ إني لا أسألكم... ولكنني أتوقع.

آهٍ، لو أتى غدنا:

في ظل هذه الحرب الشرسة، يصعب على المرء التكهن بما سيأتي من غيب، فالعالم المتشكل أمام ناظريك، يجعلك تشك في إمكانية التفكير فيما سيأتي، ولكن هل يستطيع الإنسان أن يمتنع عن التفكير؟ لا شك في أن الجواب سيكون بالنفي. لذا فإن التكهن بما سيحل بعد ساعات ممكن، بل والتكهن بعد سنين ممكن أيضاً لو كان في العمر بقيّة بطبيعة الحال.

ينتقل الإنسان في حياته من مرحلة إلى أخرى، وكل مرحلة لا بد من أن تترك بصماتها على المرحلة التي تليها، ويتم هذا الانتقال غالبا بالتدريج، وفي ظل هذا التعاقب الكوني غير المتناهي تعتري الإنسان لذة البحث عن ماهية المرحلة التي يعيش.

أتراني أسرفت في محاولة الولوج إلى ما أريد، ولكن إذا ما عرفت أن ما سأقوله مبني ومعتمد في كل جزئية من جزئياته على ما تقدم، فإنك ستعتذر مني؛ لأنك سألت نفسك وتساءلت عن الغرض وراء هذه الكتابة. سأقطع عليك دهشتك، وأُريك كتاب فكرتي التي أحاول تشكيلها، ولعلك تدري أنني أعيش الآن مرحلة انتقالية ذاتية جدا، في منطقة وسطى، ولكنها تختلف عن المنطقة النزارية التي تسمعها ربما يوميا وأنت بعيد عن الحرب.

إنها مرحلة ارتباط وانفلات، انفلات من ماض ساهم بكل إصرار في نسج بُردة الحاضر التي ما زلت أرتديها، وارتباط باللحظة الآتية متطلعا إليها بكل شغف وحنين. مرحلة كثرت فيها الأعباء وتراكمت فيها الأفكار، وتزاحمت فيها

الآمال، مرحلة وداع ولقاء، وداع الذكريات القاسية، فقد بدأت أتخلص من حبقها المر ولقاء غد أحسبه مشرقا لألاء كنجمة تضيء في أفق الليل الدامس، ولست أرى غائبا منها سوى مجموعة صور تشذ عن القاعدة فترتسم عبر كلمات يلفها الغموض بعباءة متهرئة، سرعان ما تتسلل وتلوذ بالقلم راجية أن تتخلص منها في لحظة وهم أو في لحظة جنون، أيحقّ لي أن أدخل هذه اللحظة فأحلم؟

أتطلع إلى الغد، تتفتح أبوابه أمام الخيال، فأراه مسكونا بهاجس الحب، معمورا بنفس يضيء الروحُ منها، فتنعكس أنوارها في أرجاء بيت صغير يشبه عش عصفورة، ولا عشّ فريد الأطرش، لا تطمح بأكثر من هدوء ولحظة أمان، ولا تسعى إلا للسعادة، ترفض وبشدة الأنواء والأعاصير والتشتت والتشرد، تنفر من الحر وتغتاظ من البرد، ترتاح إلى سماع أنيسها ينشدها زقزقة الشعر الحالم، يهنئها على أحلامها التي تحققت، أسرة صغيرة يدفئها الحنان وتغمرها العناية الإلهية بكل ألوان الوداد، هل كثير عليّ أيها العالم الأبكم؟

أتطلع إلى الغد بشوق فأراه جنة مليئة بالأزهار، تتفتح يوميا على ربى الروح، فتهب النسمات تدغدغ أعماق مشاعرها، تؤلف سيمفونية تعزفها ألحان الطبيعة نذوب ولا نحس بالوحدة، نتسامى فوق عالمنا، هذا الذي يلهث خلف الخواء، إنه الغد الحالم الذي ينقلنا إلى العيش في أرجائه قبل أن يأتي. رؤية لعلّي لا أبالغ إذا ما قلت: إنني أراها ماثلة كالشمس، شذية كالعطور، شدية كالبلابل، مترقرقة كماء الغدير، مغنية كالمطربين القدامى، منادية من يتطلعون إليها، تومئ لأقرانها بأن تبتهج بقدوم زائرين جدد إلى منطقتها، فتحل ضيفة علينا، ونبقى نحن الاثنين أصحاب المحل أصحاب الذكرى والحاضر أصحاب الغد المشرق، أصحاب الحكاية الرومانسية والأشعار الراقصة، أصحاب الأحلام التي نراها تولد بين أيدينا نربيها ونعتني بها، تشبّ ولا تشيب، تكبر ولا تتكبر، تتعاظم ولا تتعنصر، تسهر ولا تنام، تستريح ولا

تتعب، تلقي عن كاهلها ضنى البحث عن مأوى؛ لأن مأواها روحان تناغما في لحظة التقاء صوفية راقية إلى أعلى مستوى في التوحد والحلول محققا أعلى قدر من الانتشاء، لا يعكر صفوها كدر، ولا يشوب فصيحها نفور. يشرح صدرها الإيمانُ، لا تسمع سوى ترانيم الصباح تزغرد قبل العصافير، تشرق قبل انبلاج الفجر، وتصدح قبل نشيد فيروز الشطآن.

آهٍ، كم هو أسودُ هذا العالم:

نظرة فاحصة لهذا العالم، نظرة عميقة لهذا الواقع، تكتشف شيئا ما، شيئا يقوم على الخلل المصطنع جراء حياة البشرية المتعاكسة مع القوانين الكونية، فكل الأنبياء وكل الفلاسفة لم يستطيعوا أن يقتلعوا الشر الكامن في النفوس، حاولوا أن يخففوا نزعة التمرد المتساقطة من جنبات الأفكار ليؤسسوا مجتمعا هادئا ولكن سرعان ما يثور الروح النكد ليحطم كل النظريات ويثبت عكسها.

لا أدري ما سر التبجح هذا العقل الطامح إلى معرفة الأسرار، أو تقديم وجهة نظر تؤدي إلى بتر المعقول عن اللامعقول في تكوين الموجودات، فتصدم جميع العناصر المرئية وغير المرئية، بجزيئات العقل الواعي وغير الواعي لتشكل في نهايتها تكوينا متماهيا متعاقبا ومتعاكسا مع حركة السير اليومية.

ربما هو الجنون، وربما هو التعقل المتحكم في نبش ما استقر، وما وضح في متلاصقات التعاسة البشرية التي لا تؤدي في نهايتها إلا إلى السديم المكون للسفْر الهائم الذي يقود البشرية نحو العالم المجهول، لتصاحبه رؤية على أنقاض ما فات، مشرئبة إلى ما هو آت إلى ما يعرف بنظريات نحو هذا المستقبل.

يقود هذا اللعاب غير المتشكل من موقف محدد الكيان إلى مجموعة من الأسئلة لا تلقى لها حلا ولا تبحث هي في ذاتها عن حل، إلا لتوهم نفسها بصغر الكون وإحكام السيطرة عليه، لتتآلف مع الأشياء غير محمود العواقب يؤدي إلى مزيد من التعب الفكري والتعفن.

شكل ما من الكتابة يحل واقع الأمور، يحاسب فيها المرء كلماته الباهتة التي لا تستطيع أن تناوئ حتى أصغر الأشياء وأحقرها، لأنها في محطتها الأخيرة تكتشف نسيانها لأدق الأمور وأهمها مع عدم استطاعتها معرفة هذا الشيء.

يظل الكون الدائر بلا توقف، وركام الأسئلة ينهال على رؤوس الفلاسفة والمفكرين الذين رضوا بالشقاء ليسعد العالم، ولكنهم في حقيقة أمرهم نسوا أنهم ليسوا أنبياء أو مخلصين من همومها المكدسة، في مواقعها المعاش فالكتابة حينها تكون هما ووهما لا فائدة مرجوة منها.

ليس بالأمر الكبير أن تكتب عن العالم، ولكن أن تحمل رؤيا، وأن تغير هو الأمر النادر، بل هو المستحيل فكم من كتب كتبت، وكم من أقلام جفت وكم من صحف اسودت وما ابيضَّ وجه العالم.

سنة تلحق بأخواتها، وأيام تنتحر يائسة من القهر والدوران حول المحور. ويقال: إن الأرض ما زالت تدور، حتى لو توقفت عن الدوران ما توقف العبث، ما دامت الحروب هي الحلّ الأكثر أقناعا لهؤلاء الطغاة، فتذهب كل التمنيات والآمال أدراج تلك الريح التي تعبث بهدوء البحر، وتفتح الأرضُ بطنها لتلتهم المزيد من الأحلام.

رسالة الفلسطينيّ ما قبل الأخيرة:

وأكرهكم جميعاً
لأصغركم وأكبركم
وأعظمكم وأحقركم
وأنبلكم وأدنئكم
وأعلاكم وأسفلكم
ومن ذكرانكم حتى أناثيكم
***
وأكرهكم جميعاً حيث أنتم
في مساجدكم
كنائسكم
معابدكم
وفي خَلَوَات صوفيٍّ يناجيكمْ
وأكره عاشقاً فيكم
وأكره ما سأكرهه طهارتكم
وتسبيحات هاديكم
وأكره صبحكم يأتي بأنفاسٍ تعرّيكم
وأكره من "ثقافتكم" كراريساً تُعدّ بحبر غاويكم
وأكره شعركم
والنثرَ يستعليه حاديكم
***
وأكرهكم

إذاعتكم

تلاوتكم بصوت الجنّ تشدوكم

وأكره كلّ ما تأتيه نشرتكم من الأخبارِ

تمدحكم وتعليكم

***

وأكرهكم

جوائزكم

فضاء الكون يحملكم ويذروكم

بمسمعنا فيشتوكم

وأكره كل هذا الكون إذ فيهِ ذراريكم

***

وأكرهكم

وأكره كلّما يأتي فتىً فيكمْ...!

تواريخا

تضاريسا

وماء قد جرى فيكم

وأكره فيكمُ نفسي

إذ انتسبت لناديكم...

وأكرهكم بلا تفسيرْ

لأنْ لا شيءَ من لغتي سيعنيكمْ.

لن تموت أيها الأمل
الخميس: 2012/11/15 (1 محرم 1434 هـ)

تمر السنوات وما زال الأمل في محطته جريحا يعاني من آلامه وجراحه التي مُنِيَ بها في معاركه المستمرة، لم يكن مثخنا ومحموما كما كان في تلك السنة التي انفرطت أيامها وتبعثرت أشلاؤها في دمائنا، لقد كانت سنة صفراء ذابلة كأوراق الخريف تُخَرْخِشُ كلما حركتها الريح لتصدر صوت أنينها، وقد شعرت بالخسران المبين.

عام مضى، ولم ننتبه أنه نسل من أرواحنا أجمل اللحظات، عام تصرّم راحلا وقد حملنا فيه من الأوزار والآثام والآلام ما يكفي لتفتيت جمرة الجحيم في نفوسنا، عام تلاشت أيامه مخلفا وراءه أشباحا من الذكرى والخوف والعقم والردى، عام مليء بما أشقى وأسقم حتى النجوم في أفلاكها. والبدر في مداره أصبح رماديا رصاصيّ اللون متكاسلا، لا يروم طلوعا مكسوفا خجلا من شدة ما عانى أصدقاؤه ومحبوه من ألم في ذلك العام الذي مات، وما مات الأسى، فيا ليته رحل ورحلت معه أوجاعنا، ولكنها تأبى أن تفارقنا، تبدأ معنا رحلتها في عام جديد، فهل سنستطيع لها شفاءً؟

عام انتهى بدماء مصبوبة أنهارا هنا وهناك في كل بقعة من هذا العالم، في سوريا، حيث البطش يأخذ مداه بأوسع ما استطاع، ويعرّش الموت المجاني فوق الرؤوس، فتهدم البيوت، وتُدكّ المساجد، ويموت الناس ويشردون، وما ذاك إلا ليكون ثمنا لبقاء حاكم مهووس لبعض وقت على كرسي الوهم رئيسا فرعونياً، نيرونيّ النزعة، ساديّ النفس، مغرور.

عام بدأ في فلسطين حيث المستضعفون نساء ورجالا وأطفالا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، محاصرون في علبة من سردين قطاع غزّة المحاصر المنكوب، تتسلى بهم آلات البطش والموت، ويسهر على بريق دمائهم وعزف أناتهم المترفون من نبلاء العالم الحر، عالم الديمقراطية والإنسانية

وحقوق الإنسان، عالم الحرية والكرامة وحق الحياة بأمان، وبعيدا عن بطش المستهترين والطغاة.

لقد أثبت هؤلاء جميعا عقيم الفكرة والسلوك، فالضحية لا تُرى والمأساة هي مأساة، الجاني المجرم وحقه في الدفاع عن نفسه، عام رسخ في وعينا أن أدعياء الأفكار الجديدة ما هم إلا "ضغث على إبّالة"، وما لهم أي صلة أو اتصال بما تعاني منه البشرية من آلام وأوجاع، أو ما تتطلع إليه من حرية وانعتاق، لقد ماتت كل الأفكار عندما وصلت إلينا، وجاء دورها لترى النور، وإذا بها في ظلام دامس، لتدخل بهذا الظلام عاما جديداً.

عام متواصل في العزف على أوتار المحنة في بلادنا، فهل سنظل مكتوفي الأيدي نتحسر ونبكي ونرثي شهداءنا، ونزفهم إلى جنات الخلد بزغاريد القهر؟ متى سنعلن أننا قد تقدمنا خطوة إلى الأمام نزفّ فيها شهداءنا وهم في معارك الخلاص الأخير من المحتلين والمستغلين والفاسدين والعتاة والطغاة والمتجبرين، لتعلن الحياة ألقها من جديد، ويتفتح دم الشهداء ليسري نورا وبهجة في غناء الساهرين وأضواء الشموس الزاهية، ويسري روحا وعبقا يعانق الفل والنسرين والدحنون؟

متى سنقول بحق كل عام ونحن بخير، وننعم بالخير والحياة الهادئة المطمئنة لا نخاف على نفس من أن يتخطفها موت هنا ويد غول هناك؟ متى سنقول كل عام وأمنياتنا في ازدهار وأغنياتنا في بهجة العيد نشدوها من قلب سعيد فعلا، ليكون لحياة القلوب مع أحبابها طعم خاص؟ فلا فرح لقلب، ولا معنى لحب إذا كانت الدماء شلالات والموت معروضاً بالمجان.

ومع ذلك، وعلى أمل أن نعيش كما ينبغي أن نعيش، أقول: كل عام وأنتم إلى الله أقرب، علينا جميعا أن نضمّد جراح الأمل؛ عسى العام الجديد يحمل لنا خير القلوب، وحب النفوس، والأمل بحياة أفضل.

الفهرس

الإهداء 5

المقدّمة 7

المساحة الأولى: من قلب الجحيم 9

النكبة ومناسبة الحديث عن مآلاتها 11
الحرب وأسئلة الموت المدبّبة 15
كلّ المصائبِ من قديمٍ ترتوي من حزنِنا وعزاؤنا التحليلُ 17
ليس للاستحمار من حلّ سوى المزيد منه 22
الدعاء مخّ العبادة ووهم من أوهام البلادة أيضاً 25
هؤلاء هم أعداؤنا 29
"وحدهم" من يتحمل مسؤولية العنف في فلسطين 31
إنسانية الثورة وأخلاقية المقاومين 34
من درنة ومراكش إلى غزة والمصيبة واحدة 44
لا تجعلونا نكفرُ بكم أيضاً 47

المساحة الثانية: على الحوافّ الناتئة 49

اسمح لنا بالاختلاف معك يا رَيِّس 51
ما هي النتيجة بعد 28 عاماً على اتفاق أوسلو؟ 53
السيناريو نفسه مع اختلاف المخرجين 56

السلطة الفلسطينية عرّاب التطبيع السعودي 59
نعم، إننا خائفون ومرعوبون 62
لماذا الخامس عشر من نوفمبر مجرد كذبة بلهاء؟ 64
على هذه الأرضِ ما يسحقُ الحياة 67
المسكوت عنه في السرديّة الفلسطينية الرسمية 69
صورتان نقيضتان 74
1- من مفكرتي الشخصية 74
2- الشاعر أبو فراس الحمداني شهيدٌ شاهدٌ على أرض غزة 76

المساحة الثالثة: انطفاء عينِ الكاميرا 79

قوة الإشارة القادمة من هناك 81
أين محمد عبد الله؟ 84
عندما يصنع "القتيل" سرديته الخاصة 87
في أربعينية شيرين أبو عاقلة 89
من بعض الحوادث 91
قرآنهم للموتى فقط 93

المساحة الرابعة: المستقبل المفتوح على القبر 95

جوجل والطفولة أين أطفال غزة أيها العالم الحر؟ 97
الطفولة الغائبة في عيدها 99
نحن وجوجل والأطفال 101
شهداء لا يُنْسَوْن: محمد الدرة، فارس عودة، إيمان حجّو 104
عادات محمد منذ استشهاده 109

رسالة من غزة 111
أين رجولتكم أيها الذكور؟ 113
غزة مقبرة للزهور 115
أطفالنا لا يلعبون الببجي فقط 120

المساحة الخامسة: الرقص في الحلبة الملتهبة 123

إلى امرأة لا تحسن القراءة 125
غزة ومحظور البكاء المرّ 127
لماذا تسرق الحرب شعر الحب؟ 129
أسئلة من القرّاء 131
من رسائل الكتّاب 133

المساحة السادسة: العيش المقدّس في اللغة المركّبة 137

الثقافة في المواجهة 139
مملكة الزّيتون والرّماد 144
هموم شخصيّة ذات طابع ثقافي 146
لماذا علينا أن نقاوم بالأدب أيضاً؟ 153
أبو عبيدة ظاهرة لغوية أيضاً 158
الأدب في ظل الحرب 165
الشعراء أصدقاء حبٍ... رفقاء حرب 172
تميم البرغوثي وفكرة الانتصار 178
فدوى طوقان ومعاناة الانتظار 181
عبد العزيز سعود البابطين الشاعر المؤسسة 187

لا أريد أن يتفلسف النقاد 190
أغنية عن الحرب: كارول سماحة ومحمود درويش 194
الفيلم الذي يصوّر حالتنا "ليلة سقوط بغداد" 203
الحرب والموسيقى 209
فيروز ودخولها معمعة الحرب 214
لا أثق بما يكتبه الوزير 219

المساحة السابعة: المكوث في الحكاية 227

مشاوير الخليل 229
في رحلة الخلود الأبدية 234
أربعة ناقص واحد 236
النشيد الحيّ في الذكرى الأولى للخلود 237

المساحة الثامنة: مذاق الحبّ في لذعة الحرب- الرسائل 239

أنا وصوفي نحب المثلث الأحمر 241
رسالة حبّ من طرطوس 243
لماذا أكتبُ لك عن الجزائر؟ 251
العيد في فلسطين غير والله غير 255
إنّه لنهار مختلف 259
"إنتِ وأنا يا رَيْتْ عِنّا بَيْتْ" 263
نحاربهم أيضاً بالأغاني والهاشتاج 267
خيباتيَ المتوقعة وغير المتوقّعة 272
يا ليتكِ كنت معنا 279

هلْ رأيتَ اللهَ؟ 282

المساحة التاسعة: سؤال التيه المشترك 285

رسالة واضحة لغزاة ربما سيقرؤون هذه المرة 287
العلاقة ليست معقدة بشكل كامل 290
تجار أحلام في تجّار دم 292
لستُ وحدي من يفكّر بالحرب 295

المساحة الأخيرة: حيرة العاقل في الحياة الزائفة 299

أسئلة لا تعرف النوم 301
هل كنّا يوما نحلم بالعبث؟ 304
آهٍ، منك أيّتها اللغة 306
آهٍ، لو أتى غدنا 309
آهٍ، كم هو أسودُ هذا العالم 312
رسالة الفلسطينيّ ما قبل الأخيرة 314
لن تموت أيها الأمل 316

الفهرس 319

جانب من سيرة ذاتية 325

جانب من سيرة ذاتية

فراس عمر حج محمد؛ كاتب فلسطيني مقيم في قرية تلفيت؛ إحدى قرى محافظة نابلس، ولد في (1973/7/30م)، حاصل على درجة الماجستير في الأدب الفلسطيني الحديث عن بحث بعنوان "السخرية في الشعر الفلسطيني المقاوم بين عامي 1948-1993".

نشر العديد من المقالات والقصائد والنصوص في مجالات النشر المختلفة؛ المواقع الإلكترونية، والصحف، والمجلات العربية، في فلسطين والوطن العربي، والمطبوعات العربية حول العالم، وفي كتب الاختيارات (الأنثولوجيات) الخاصة بالشعر الفلسطيني؛ ديوان "الفرقان- قصائد عن حرب غزة 2009"، وديوان "الشهيد- قصائد عن مجزرة كفر قاسم".

عضو مؤسس لمنتدى المنارة للثقافة والإبداع في مدينة نابلس، وعضو الهيئة الإدارية لجمعية الزيزفونة لتنمية ثقافة الطفل لعام واحد، ومحرر في مجلتيها (الزيزفونة الصغيرة، والزيزفونة الكبيرة)، وعضو اتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين. وعضو لجنة قراءة في عدة دور نشر محليّة. ومسؤول مكتب فلسطين ضمن هيئة تحرير مجلة الليبي التي يصدرها مجلس النواب الليبي. عمل معلما لمدة تزيد عن (12) عاما، ومشرفا تربويا منذ عام (2008) وحتى الآن.

أصدر (32) كتاباً، وله أيضاً مجموعة من الكتب النقدية والشعرية والسردية المخطوطة والمعدة للنشر، وحرّر (12) كتاباً، ووردت للكاتب ترجمة في كتاب "دليل آفاق حرة للأدباء والكتاب العرب" (الأردن، 2020)، الجزء الثاني منه؛ الترتيب (172).

كتب عن هذه الكتب والنصوص الأدبية شعرية وسردية العديد من الكتّاب والنقاد العرب والفلسطينيين، وأجريت مع الكاتب عدة حوارات صحفية منشورة ولقاءات تلفزيونية وإذاعية. وشارك في العديد من الأنشطة الثقافية

المحلية في فلسطين (مؤتمرات، وندوات، وأمسيات ومهرجانات شعرية، وحفلات توقيع الكتب ومناقشتها).

اشترك في العديد من الأنشطة التربوية مع وزارة التربية والتعليم الفلسطينية في مجال التدريب وإعداد المواد التدريبية، وكان من ضمن فريق إعداد وتحرير الإصدار الثاني من مجلة القانون الدولي الإنساني التي كانت تصدرها وزارة التربية والتعليم الفلسطينية من أجل تعريف طلاب الصف الحادي عشر بالقانون الدولي الإنساني، وعضو الفريق الوطني للتعليم الإلكتروني في فلسطين.

أشرف على مجموعة من كتب الأسرى قبل الطباعة، وراجع مجموعة من الكتب لمجموعة من الكتّاب الفلسطينيين.

الكتب المطبوعة:

- كتاب "رسائل إلى شهرزاد"، دار غراب للنّشر والتّوزيـع، مصر، 2013
- كتاب "من طقوس القهوة المُرّة"، دار غُراب للنّشر والتّوزيـع، مصر، 2013
- مجموعة "أناشيد وقصائد" (للفتيان والفتيات)، جمعيّة الزّيزفونة، فلسطين، 2014
- ديوان "أميرة الوجد"، جمعيّة الزّيزفونة، فلسطين، 2014
- دراسة "قراءة في كتاب قلب العقرب للشّاعر محمّد حلمي الرّيشة، ذلك المنتبه المختلف"، فلسطين، 2014.
- كتاب "دوائر العطش"، دار غراب للنّشر والتّوزيـع. مصر، 2014
- ديوان "مزاج غزّة العاصف"، جمعيّة الزّيزفونة، فلسطين، 2015
- كتاب "ملامح من السّرد المعاصر- قراءات في القصّة القصيرة جدّاً- دار موزييك للتّرجمات والنّشر، الأردن، 2015
- ديوان "وأنتِ وحدكِ أغنية"، دار ليبرتي بوكس، القدس، بالتّعاون مع بيت الشّعر في فلسطين، 2015.

- كتاب "يوميّات كاتب يدعى X" (قصص وسرد -1)، دار الرقميّة، فلسطين، 2016.
- كتاب "كأنّها نصف الحقيقة" (قصص وسرد -2)، دار الرقميّة، فلسطين، 2016.
- كتاب "في ذكرى محمود درويش"، جمعيّة الزّيزفونة، فلسطين، 2016.
- ديوان "الحبّ أنْ"، دار الأمل، الأردن، 2017.
- كتاب "شهرزاد ما زالت تروي- مقالات في المرأة والإبداع النسائي"، دار الرقميّة، فلسطين، 2017.
- كتاب "ملامح من السرد المعاصر- قراءات في الرواية"، مكتبة كل شيء، حيفا، 2017.
- كتاب "ملامح من السرد المعاصر- قراءات في متنوع السرد"، مؤسسة أنصار الضاد، أم الفحم، 2019.
- ديوان "ما يشبه الرثاء"، دار طباق للنشر والتوزيع، رام الله، 2019.
- كتاب "بلاغة الصنعة الشعرية"، دار روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.
- كتاب "نسوة في المدينة"، دار الرعاة وجسور الثقافية، رام الله وعمّان، 2020.
- كتاب "الإصحاح الأول لحرف الفاء- أسعدتِ صباحا يا سيّدتي"، دار الفاروق للنشر والتوزيع، نابلس، 2021.
- كتاب "لا شيء يعدل أن تكون حرا- على هامش كتاب نسوة في المدينة"، دار الفاروق للنشر والتوزيع، نابلس، 2021.
- كتاب "استعادة غسان كنفاني"، دار الرعاة وجسور الثقافية، رام الله وعمّان، 2021.
- كتاب "من قتل مدرّس التاريخ"، دار الفاروق للنشر والتوزيع، نابلس، 2021.
- ديوان "وشيء من سرد قليل"، وزارة الثقافة الفلسطينية، رام الله، 2021.

- ديوان "على حافّة الشعر: ثمّة عشقٌ وثمّة موت"، دار بدوي للنشر والتوزيع، ألمانيا، 2022.
- كتاب "في الوجه والمواجهة"، دار الرعاة وجسور الثقافية، رام الله وعمّان، 2023.
- كتاب "متلازمة ديسمبر"، دار بدوي للنشر والتوزيع، ألمانيا، 2023.
- كتاب "في رحاب اللغة العربية"، دار بدوي للنشر والتوزيع، ألمانيا، 2023.
- كتاب "سرّ الجملة الاسمية"، دار الرقمية، القدس، 2023.
- كتاب "تَصَدُّع الجدران- عن دور الأدب في مقاومة العتمة"، دار الرعاة وجسور الثقافية، رام الله وعمّان، 2023.
- ديوان "في أعالي المعركة"، دار الفاروق للثقافة والنشر، نابلس، 2023.
- كتاب "مساحة شخصية- من يوميات الحروب على فلسطين"، دار الفاروق للثقافة والنشر، نابلس، 2024.

تحرير الكتب:

- كتاب مؤتمر الزيزفونة الأوّل لأدب الأطفال، (نحو أدب أطفال فلسطيني وطني)، مع أ. شريف سمحان، جمعية الزيزفونة، رام الله، 2016.
- ديوان "اصعد إلى عليائك فيّ"، فاطمة نزّال، مكتبة كل شيء، حيفا، 2017.
- كتاب "إيفا شتال حمد- أممية لم تغادر التل"، بالاشتراك مع أ. حسن عبادي، دار الرعاة ودار جسور ثقافية، رام الله وعمّان، 2020.
- كتاب "لا تعجب زعترنا أخضر- قصائد"، بالاشتراك مع أ. حسن عبادي، دار الرعاة ودار جسور ثقافية، رام الله وعمّان، 2021.
- كتاب "الكتابة على ضوء شمعة"، بالاشتراك مع أ. حسن عبادي، دار الرعاة ودار جسور ثقافية، رام الله وعمّان، 2022.
- كتاب "وقفات مع الشعر الفلسطيني"، كميل أبو حنيش، وزارة الثقافة الفلسطينية، رام الله، 2021.

- كتاب "تحيا حين تفنى"، ثائر حنيني، دار الرعاة ودار جسور ثقافية، رام الله وعمّان، 2021.
- ديوان "أنانهم"، أحمد العارضة، دار طباق، رام الله، 2021.
- ديوان "العزيمة تربّي الأمل"، أماني حشيم، حيفا، 2022.
- ديوان "أنا سيّد المعنى"، ناصر الشاويش، حيفا، 2022.
- رواية "المعبد الغريب"، للأسير رائد الشافعي، دار الرعاة ودار جسور ثقافية، رام الله وعمّان، 2023.
- ديوان "تمرّد"، للأسير عبد العظيم عبد الحق، مخطوط.

الكتب المخطوطة:

- السخرية في الشعر الفلسطيني المقاوم بين عامي (1948-1993).
- في حضرة الشعراء.
- مقالات في الدين والدولة والمجتمع.
- نظرات في التجربة الشعرية.
- نظرات في الواقع الثقافي.
- نظرات في الكتابة النقدية.
- الوقوع في اللهب.
- ديوان "أي امرأة كنت أنا".
- ديوان "ثلاثية الشاعر والظل".
- ديوان "تنهيدة... تنهيدة ثم المطر".
- ديوان "رسائل خاصة جداً".
- الرسائل- الثرثرات المحببة.
- كتب ومؤلفون.

كما يوجد تحت الطبع كتاب "انتبهات الطليعي في عوالم الكتابة" للناقد رائد الحواري، متحدثاً عن تجربة الكاتب الكتابية. وكتاب "مقدّمات نسائيّة"، مقالات لمجموعة من الكاتبات متحدثات عن الكاتب وكتبه وأشعاره ورأيهنّ فيه كاتباً.

لا أظنّ أن الحرب قادرة على أن تجعل سؤال الموت أكثر إقناعاً من ذي قبل. الموت لغزٌ في السلم، وهو معضلة في الحرب، وكلما تعقّدت الحرب زاد سؤال الموت تعقيدا أيضاً، مع أنه يغدو أسهل من أجل أن نتعايش معه ونتصالح على حصته اليومية التي يصرّ على تحصيلها ضريبة بقاء في الأرض الملتهبة.

فلنصحُ قليلا لعلنا نستجلي بعض السر، فجعبة الموت المفاجئة كالمتوقعة المنتظرة ما زالت عامرة تنفجر في أية لحظة، وعلى الهواء مباشرة، فما زالت السهام معدة، لعلها تصيب أحدنا اليوم أو غدا، في عز الذهول أو جنون نسيان أننا سنموت، وليس المهم أن نموت، فليس لعقل أن يتصور خلوده في هذه الخادعة المسماة الدنيا، ولكن هل كنا على مستوى يليق بإنسانيتنا المقهورة لنموت ونحن نستحق الكرامة؟ المقاومة تناضل من أجل أن تعطي هذا السؤال حقّه في الإجابة المقنعة.

ISBN 978-9950-381-13-1

9 789950 381131

يطلب من

دار الفاروق

للثقافة والنشر

شارع جمال عبد الناصر - نابلس - فلسطين

تلفون: 00970/9/2313969

Email: abu_rafat_be@hotmail.com

المعرض: شارع سفيان- مجمع القوقا التجاري

الطابق الأرضي تلفون: 00970/9/2338219

نابلس - فلسطين